# جراح النهضة في ماليزيا

# مهاتير محمد

## شخصيته - خبراته - إنجازاته

يوسف أبو الحجاج الأقصري



# جراح النهضة في ماليزيا

## مهاتير محمد

اسم الكتاب : مهاتير محمد

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران

رقم الايداع : 15546 / 2018

الترقيم الدولي : 977-978-345-111-1

---



2019

#شخصيات_غيرت_مجرى_التاريخ




15 شارع الشيخ محمد عبده - خلف جامعة الأزهر - الأزهر الشريف

01149383472 - 01222900401 - 01223786418

مكتبة زهران للطبع والنشر والتوزيع /

# تقديم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

وبعد،،،

هذا كتاب عن رائد من رواد النهضة الحقيقية في عصرنا الحالي رجل استطاع أن ينهض ببلاده ويحولها من بلدة يعيش أغلب سكانها في الغابات لتتحول خلال سنوات بسيطة وقليلة في التاريخ الإنساني إلى أحد النمور الآسيوية إذا ذكرت بلاده لابد أن يتم ذكر اسمه... إذا قلنا ماليزيا... لابد أن نقول (مهاتير محمد) فما هي قصة ذلك الرجل.. أن خير إنسان يروى قصته دون تضخيم أو تحجيم هو ذاته (مهاتير محمد) الذى كتب مذكراته الحاملة بالحقيقة المجردة.

❖ في هذا الإصدار نلقى الضوء على بعض الجوانب التى أتى بها مهاتير محمد في مذكراته وكيف كانت ماليزيا التى تبلغ مساحتها 320 ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها 27 مليون نسمة كانوا حتى عام 1981 يعيشون في الغابات ويعملون في زراعة المطاط والموز والأناناس وصيد الأسماك وكان متوسط دخل الفرد أقل في ألف دولار سنوياً وكانت الصراعات الدينية هي الحاكمة وجاء (مهاتير محمد) الأبن الأصغر لتسعة أبناء كان والدهم مدرس ابتدائي راتبه لا يكفى لتحقيق حلم أبنه (مهاتير) الذى كان يحلم بشراء عجلة يذهب بها إلى المدرسة الثانوية، فيعمل (مهاتير) بائع (موز) بالشارع حتى حقق حلمه،

ودخل كلية الطب في سنغفاورة المجاورة، ويصبح رئيساً لأتحاد الطلاب المسلمين بالجامعة قبل تخرجه عام 1953 وليعمل طبيباً في الحكومة الانجليزية المحتلة لبلاده التي استقلت في عام 1957، ويفتح عيادته الخاصة كـ"جراح" ويخصص نصف وقته للكشف المجاني على الفقراء... ويفوز بعضوية مجلس الشعب عام 1964، ويخسر مقعده بعد خمس سنوات، فيتفرغ لتأليف كتاب عن "مستقبل ماليزيا الاقتصادي" في عام 1970...

❖ ويعاد انتخابه "سيناتور" في عام 1974... ويتم اختياره وزيراً للتعليم في عام 1975، ثم مساعداً لرئيس الوزراء في عام 1978.

❖ وأصبح رئيساً للوزراء في عام 1981، لتبدأ النهضة الشاملة التى قال عنها في كلمته بمكتبة الإسكندرية إنه استوحاها من أفكار النهضة المصرية على يد محمد علي باشا.

**ماذا فعل (الجراح الماليزي)؟**

**أولاً/** رسم خريطة لمستقبل ماليزيا حدد فيها الأولويات والأهداف والنتائج، التى يجب الوصول إليها خلال 10 سنوات، وبعد 20 سنة، حتى عام 2020.

**ثانياً/** قرر أن يكون التعليم والبحث العلمي هما الأولوية الأولى على رأس الأجندة، وبالتالي خصص أكبر قسم في ميزانية الدولة ليضخ في التدريب والتأهيل للحرفيين والتربية والتعليم، ومحو الأمية، وتعليم الإنكليزية، وفي البحوث العلمية.. كما أرسل عشرات الآلاف كبعثات للدراسة في أفضل الجامعات الأجنبية..

فلم يعطى «الجيش» الأولوية لأنهم ليسوا في حالة حرب أو تهديد.

ولم يهتم بالإسراف على القصور ودواوين الحكومة والفشخرة والتهاني والتعازي والمجاملات والهدايا..

ثالثاً/ أعلن للشعب بكل شفافية خطته واستراتيجيته، وأطلعهم على النظام المحاسبي الذى يحكمه مبدأ الثواب والعقاب للوصول إلى «النهضة الشاملة»، فصدقه الناس ومشوا خلفه ليبدأوا «بقطاع الزراعة».. فغرسوا مليون شتلة «نخيل زيت» في أول عامين لتصبح ماليزيا أولى دول العالم في إنتاج وتصدير «زيت النخيل».

وفي قطاع السياحة.. قرر أن يكون المستهدف في عشر سنوات هو 20 مليار دولار بدلاً من 900 نليون دولار عام 1981، لتصل الآن إلى 33 مليار دولار سنوياً.. وليحدث ذلك، قام بتحويل المعسكرات اليابانية التى كانت موجودة من أيام الحرب العالمية الثانية إلى مناطق سياحية تشمل جميع أنواع الأنشطة الترفيهية والمدن الرياضية والمراكز الثقافية والفنية.. لتصبح ماليزيا «مركزاً عالمياً»، للسباقات الدولية في السيارات، والخيول، والألعاب المائية، والعلاج الطبيعي.. إلخ وفي قطاع الصناعة.. حققوا في عام 1996 طفرة تجاوزت 46% عن العام السابق بفضل المنظومة الشاملة والقفزة الهائلة في الأجهزة الكهربائية، والحاسبات الإلكترونية.

وفي النشاط المالي، فتح الباب على مصراعيه بضوابط شفافة أمام الاستثمارات المحلية والأجنبية لبناء أعلى برجين توأم في العالم (بتروناس) يضمان 65 مركزاً تجارياً في العاصمة كوالالمبور وحدها، وأنشأ البورصة التى وصل حجم تعاملها اليومي إلى ألفى مليون دولار يومياً.

وأنشأ أكبر جامعة إسلامية على وجه الأرض، أصبحت ضمن أهم خمسمائة جامعة في العالم يقف أمامها شباب الخليج بالطوابير، كما أنشأ عاصمة إدارية جديدة Putrajaya بجانب العاصمة التجارية "كوالالمبور" التى يقطنها الآن أقل من 2 مليون نسمة، ولكنهم خططوا أن تستوعب 7 ملايين عام 2020، ولهذا بنوا مطارين وعشرات الطرق السريعة تسهيلاً للسائحين والمقيمين والمستثمرين الذين أتوا من الصين والهند والخليج ومن كل بقاع الأرض، يبنون آلاف الفنادق بدءاً من الخمس نجوم حتى الموتيلات بعشرين دولار في الليلة.

استطاع "مهاتير" من عام 1981 إلى عام 2003 أن يحلق ببلده من أسفل سافلين لتتربع على قمة الدول الناهضة التى يشار إليها بالبنان، بعد أن زاد دخل الفرد من 100 دولار سنوياً في عام 1981 عندما تسلم الحكم إلى 16 ألف دولار سنوياً..

**وأن يصل الاحتياطي النقدي من 3 مليارات إلى 98 ملياراً. وأن يصل حجم الصادرات إلى 200 مليار دولار، فلم يتعلل بأنه تسلم الحكم في بلد به 18 ديانة، ولم يعاير شعبه بأنه عندما تسلم الكرسي في عام 1981 كان عددهم 14 مليوناً والآن أصبحوا 28 مليوناً، ولم يتمسك بالكرسي حتى آخر نفس أو يطمع في توريثه لأبنائه أو لأحد من أقاربه...**

**في عام 2003 وبعد 21 سنة، قرر بإرادته المنفردة أن يترك الجمل بما حمل، رغم كل المناشدات، ليستريح تاركاً لمن يخلفه "خريطة طريق" و"خطة عمل" أسمها "عشرين.. عشرين" أى شكل ماليزيا عام 2020 والتى ستصبح رابع قوة اقتصادية في آسيا بعد الصين، واليابان، والهند.**

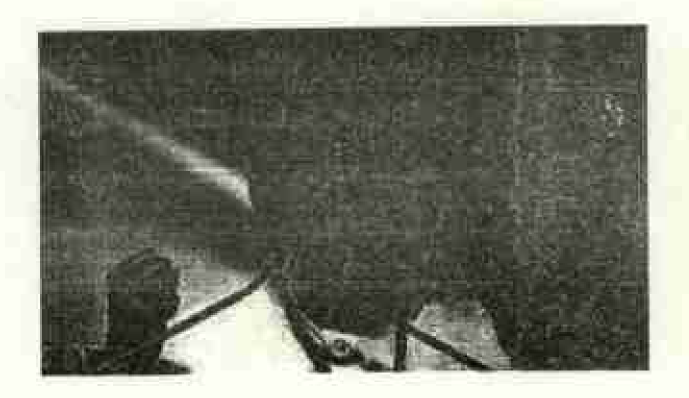
لهذا سوف يسجل التاريخ أن هذا المسلم وشعبه لم يعترفوا بإسرائيل حتى اليوم، كما ظل ينتقد نظام العولمة الغربي بشكله الحالي الظالم للدول النامية، ولم ينتظر معونات أو د... خارجية، ولكنه اعتمد على الله، ثم على إرادته، وعزيمته، وصدقه، وراهن على سواعد شعبه وعقول أبنائه ليضع بلده على "الخريطة العالمية"، فيحترمه الناس، ويرفعوا له القبعة. وأخيرا وهو في الثانية والتسعون تم اختياره رئيسا للوزراء من جديد وبالتحديد في مايو 2018.

وهكذا تفوق "الطبيب الجراح" بمهارته وحبه الحقيقي لبلده واستطاع أن ينقل ماليزيا التى كانت "فاراً" إلى أن تصبح "نمراً" آسيوياً يعمل لها ألف حساب، لهذا كان اختيارنا لمهاتير محمد كشخصية لهذا الإصدار ومع مذكراته التى كتبها بنفسه بدور سطور هذا الإصدار والله المستعان.

**المؤلف**

**يوسف أبو الحجاج الأقصري**

# التعريف بالشخصية



# (1)

# بضاعة التعارف

**مهاتير محمد:**

رئيس وزراء ماليزيا الرابع في المنصب 16 يوليو -1981 31 أكتوبر 2003. تم في مايو 2018 عن عمر الثانية والتسعون تولى رئاسة الوزارة في ماليزيا من جديد.

**معلومات شخصية:**

الميلاد: 10 يوليو -1925 ماليزيا.

مواطنة: ماليزيا.

الديانة: الإسلام.

الحياة العملية:

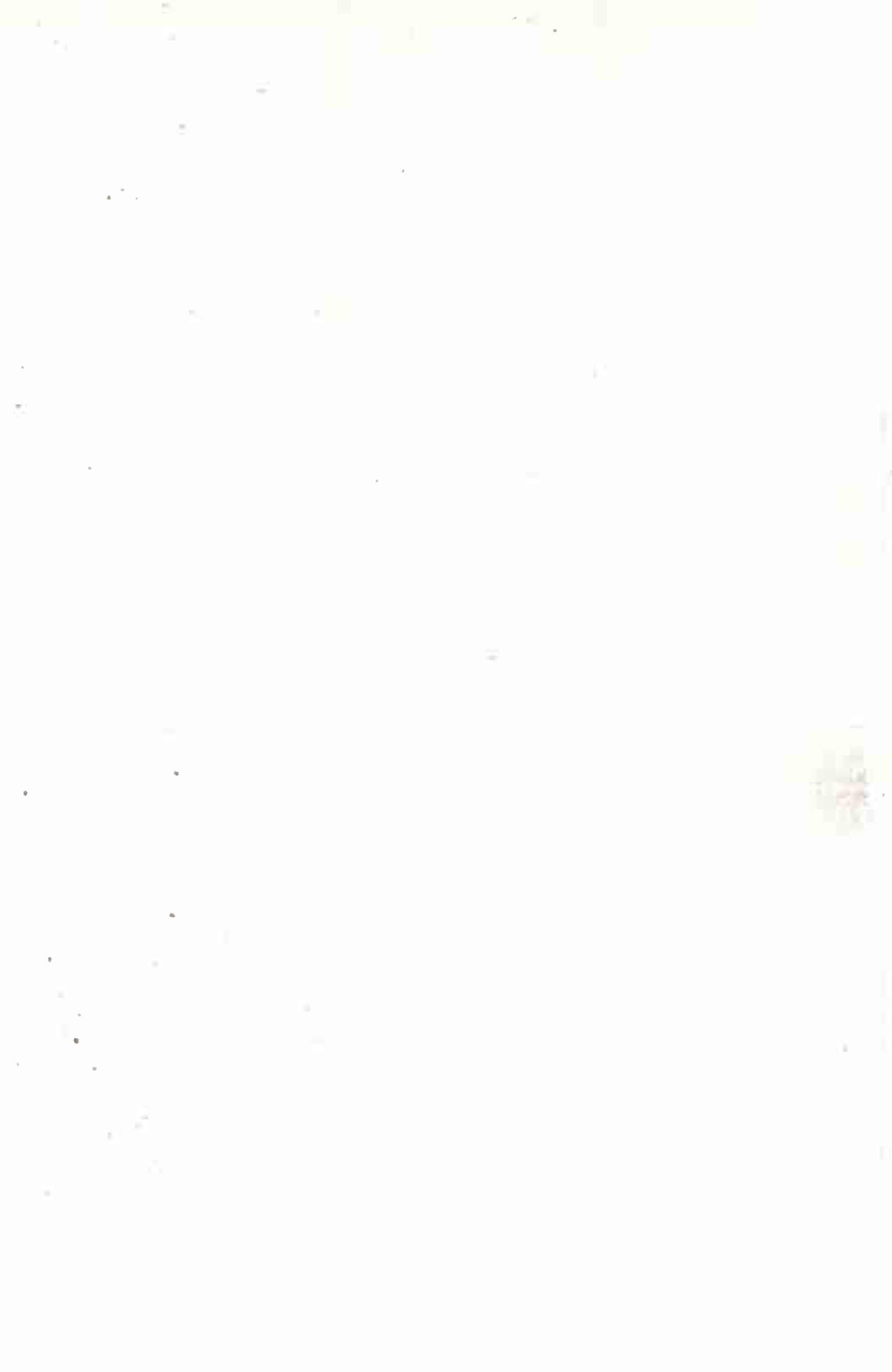
المدرسة الأم: جامعة سنغافورة الوطنية.

شهادة جامعية: دكتوراه.

المهنة: سياسي، وطبيب، وكاتب.

**الجوائز:**

- ❖ جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام 1997.
- ❖ جائزة جواهر لال نهرو 1994.
- ❖ جائزة القذافي لحقوق الإنسان.



# موجز سيرته

مهاتير محمد أو محاضر محمد المولود في (10 يوليو 1925) سياسي ماليزي تولي رئاسة الوزراء فكان رابع رئيس وزراء لماليزيا في الفترة من 1981 إلى 2003، وتعد أطول فترة لرئيس وزراء في ماليزيا، وكذلك من أطول فترات الحكم في آسيا أمتد نشاط مهاتير السياسي لما يقرب من 40 عاماً، منذ انتخابه عضواً في البرلمان الاتحادي الماليزي عام 1964، حتى استقالته من منصب رئيس الوزراء في عام 2003، كان لمهاتير محمد دور رئيسي في تقدم ماليزيا بشكل كبير، إذ تحولت من دولة زراعية تعتمد على إنتاج وتصدير المواد الأولية إلى دولة صناعية متقدمة يساهم قطاعي الصناعة والخدمات فيها بنحو 90% من الناتج المحلي الإجمالي، وتبلغ نسبة صادرات السلع المصنعة 85% من إجمالي الصادرات، وتنتج 80%.من السيارات التى تسير في الشوارع الماليزية.

كانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن انخفضت نسبة السكان تحت خط الفقر من 52% من إجمالي السكان في عام 1970، أى أكثر من نصفهم، إلى 5% فقط في عام 2002، وارتفع متوسط دخل المواطن الماليزي من 1247 دولاراً في عام 1970 إلى 8862 دولاراً في عام 2002، أى أن دخل المواطن زاد لأكثر من سبعة أمثال ما كان عليه منذ ثلاثين عاماً، وانخفضت نسبة البطالة إلى 3%.

كان خلال فترة حكمه من أكثر القادة تأثيراً في آسيا. كما يعتبر من أكثر المعارضين للعولمة. وهاهو يتولي رئاسة الوزارة مرة أخري عام 2018 وهو في الثانية والتسعين ليعاود إنقاذ ماليزيا.

## نشأته وحياته الخاصة:

ولد مهاتير في ألور سيتار، بولاية قدح، وهو أصغر تسعة أبناء لأب معلم مدرسي وأم ربة منزل، والده.

خلال الحرب العالمية الثانية وأثناء الاحتلال الياباني لماليزيا، باع مهاتير فطائر الموز والوجبات الخفيفة الأخرى لتوفير الدخل لأسرته التحق مهاتير بالمدارس العامة قبل أن يواصل تعليمه في كلية السلطان عبد الحميد في ألور سيتار، التحق مهاتير بعد ذلك بكلية الملك إدوارد السابع الطبية (التى أصبحت جامعة سنغافورة الوطنية) في سنغافورة، حيث حرر مجلة طبية طلابية، كما ساهم أيضاً في التحرير بصحيفة «ستريتس تايمز» باسم مستعار وكان مهاتير أيضاً رئيساً لجمعية الطلبة المسلمين في الكلية.

بعد التخرج في عام 1953، خدم مهاتير في الحكومة الماليزية الاتحادية كضابط خدمات طبية، تزوج من (حازمة محمد علي) وهي طبيبة وزميلة سابقة له في الكلية، في 5 أغسطس 1956، ثم ترك الخدمة الحكومية في عام 1957 ليمارس عمله الخاص به في ألور سيتار. أزدهرت أعمال مهاتير الخاصة، مما سمح له أن يمتلك سيارة "بونتياك كاتالينا" عام 1957 متخذاً سائق خاص من أصول صينية.

لدى مهاتير محمد 8 أبناء من زوجته ستى حازمة محمد علي- مارينا- ميرزان- ماليندا- سمير- مخراني- مخريز- مايزارو- مزهار

خمسة أبناء وثلاث بنات، كما خضع مهاتير بنجاح لعملية جراحية في القلب في عام 1989 وهو في سن الثالثة والستين.

**حياته السياسية:**

في الانتخابات البرلمانية العامة لعام 1964، انتخب مهاتير محمد عضواً في البرلمان عن دائرة «كوتا سيتار سيلاتان» بعد أن هزم مرشح الحزب الإسلامي الماليزي، ولكنه خسر هذا المقعد في الانتخابات العامة التالية عام 1969، أمام مرشح نفس الحزب وكان مهاتير قد أقيل من البرلمان في 12 يوليو بعد خطاب وجهه إلى رئيس الوزراء حينئذ تنكو عبد الرحمن بعد أحداث شغب 13 مايو 1969، في رسالته إلى تنكو عبد الرحمن، انتقد مهاتير الطريقة التى أدارت بها إدارة تنكو عبد الرحمن البلاد، حيث كانت تعطي الأولوية للمواطنين ذوي الأصول الصينية. ثم استقال مهاتير من عضوية حزبه في 26 سبتمبر.

بعد ذلك في عام 1970، كتب مهاتير كتابه «معضلة الملايو» الذى سعى فيه لشرح أسباب أحداث 13 مايو في كوالا لامبور، والأسباب التى جعلت تقدم الملايو الاقتصادي سيئاً. حظرت حكومة تنكو عبد الرحمن نشر الكتاب، ولكنه الحظر رفع بعدما أصبح مهاتير رئيساً للوزراء في عام 1981.

في 7 مارس 1972، انضم مهاتير إلى حزب المنظمة الوطنية الماليزية المتحدة، وفي عام 1973، عين كسناتور في عام 1974، تخلى عن منصب السيناتور من أجل خوض الانتخابات العامة، حيث أعيد انتخابه بالتزكية في دائرة «كوبانج باسو»، وعين وزيراً للتعليم في عام 1975، أصبح واحداً من النواب الثلاثة لرئيس حزب المنظمة

الوطنية الماليزية المتحدة في 15 سبتمبر 1978، عينه رئيس الوزراء حسين أون نائباً لرئيس الوزراء، ثم عينه وزيراً للتجارة والصناعة في تعديل وزاري.

في 16 يوليو 1981، أصبح مهاتير محمد رئيساً لوزراء ماليزيا عندما استقال حسين أون من منصبه لأسباب صحية، وكان أول رئيس وزراء في البلاد ينتمى لأسرة فقيرة، حيث كان رؤساء الوزارات الثلاثة الأول أعضاء في الأسرة الملكية أو من عائلات النخبة، قضى مهاتير 22 عاماً في المنصب، وتقاعد في 31 أكتوبر 2003، مما جعل منه واحداً من أطول فترات الحكم في آسيا. وعند تقاعده في 31 أكتوبر 2003، حصل مهاتير على لقب «تون»، وهو اعلى تكريم لشخصية مدنية في ماليزيا.

بين عامي 1983 و1991، استطاع أن يمرر بعض التغييرات الدستورية الرئيسية التى تنزع حق الفيتو الملكي والحصانة السيادية ضد المقاضاة للأسرة المالكة، قبل هذا التعديل، كانت الموافقة الملكية على القوانين مطلوبة من أجل تمرير أى من مشروعات القوانين. بعد هذا التعديل، أصبحت موافقة البرلمان تعادل الموافقة الملكية بعد فترة 30 يوم، دون انتظار رأى الملك، كان عام 2004 مثيراً للجدل لبعض قادة دول الأعضاء لمنظمة المؤتمر الإسلامي بسبب بعض تصريحات الرئيس مهاتير محمد ضد اليهود وتحديداً إسرائيل عند ألقى خطابه الناري وقال بأن كل المشكلة هم اليهود ونحن المسلمون متسامحون وبعد هذه الجلسة وصف الرئيس الماليزي بالبطل وذا الشخصية الرجولية.

**مؤلفاته:**

❖ التحدي.

❖ صوت آسيا.

❖ تحديات الاضطراب.

❖ العولمة والواقع الجديد.

وأخيراً في مايو 2018م تم اختياره رئيسا لوزراء ماليزيا من جديد وهو في الثانية والتسعين من عمره.

# قصة ماليزيا

يقول مهاتير محمد في مذكراته التي نشرها:

هذه قصة ماليزيا كما أراها، وهي قصتي أيضاً.

كتبت عن حكمة آبائنا المؤسسين الذين أقاموا نظاماً سياسياً مكن البلاد من حل مشكلاتها ومواجهة التحديات المتأصلة في مجتمع معقد، بطريقة ديمقراطية وسلمية.

ربما لا تحاكي ماليزيا الديمقراطيات الليبرالية التى في الغرب، لكن ترأسها حكومات ينتخبها الشعب على المستوى المركزي وعلى مستوى الولايات، وبالمقابل، أخفقت مستعمرات سابقة عديدة في إنجاح النظام الديمقراطي، لدينا في ماليزيا مرشحون من المعارضة يمكنهم الفوز وتحقيق نجاح يكفيهم لتشكيل حكومات الولايات، وحتى الحكومة المركزية. ومع إن حزب الائتلاف وخلفه الجبهة الوطنية، فازأ في جميع الانتخابات الوطنية منذ الاستقلال، وكان أدواهما رائعاً باعثاً على السرور جيناً، ومخيباً باعثاً على القلق حيناً آخر. وفيما أكتب هذه السطور، يبقى الائتلاف عرضة للفشل بعد أن انتزعت منه المعارضة خمس ولايات في الانتخابات العامة لسنة 2008م، وكي تستعيد الجبهة الوطنية قوتها، يتعين عليها إجراء تقييم صادق لمناقبها وإخفاقاتها، ويتعين عليها الاستعداد لاتخاذ تدابير جذرية إذا كانت تريد أن تكون قائداً واقعياً وفاعلاً لماليزيا في الألفية الجديدة.

بالنظر إلى السياسات البراغماتية التى اعتمدتها ماليزيا، استطاعت الانتقال بشكل سلس من اقتصاد زراعي إلى اقتصاد صناعي، وأبناء وبنات المزارعين وصيادي السمك الذين عاشوا على الكفاف يعملون الآن في مصانع مكيفة، ويتعاملون مع معدات حساسة وينتجون منتجات مبتكرة للأسواق العالمية.

بلغت ماليزيا اليوم مصاف أكثر دول العالم النامي تقدماً؛ إذ إنها تضطلع بدور مهم في الشؤون الدولية، مركزة أساساً على ظلم الدول الغنية للدول الفقيرة، وهي إحدى أكثر الدول الإسلامية مجاهرة برأيها.

ازدهرنا على الصعيد الاقتصادي، فتحولت كوالالمبور من عاصمة غير معروفة، كان يقطنها 300.000 نسمة غداة الاستقلال، إلى مدينة عالمية يقطنها أكثر من مليوني إنسان. يتميز مشهدها بمبان مدهشة يتصدرها برجا بتروناس التوأمان اللذان بقيا مدة من الزمن أطول برجين في العالم. ولطالما أخذت خططنا التطويرية في الحسبان حاجتنا في يومنا الحاضر وحاجاتنا في المستقبل البعيد.

كان لي دور في ذلك كله لكني سأكون مقصراً إن لم أنسب إلى أسلافي فضل التقدم الاستثنائي لماليزيا، فهم وضعوا الأساس وأنا بنيت عليه فحسب. ولولا حكمتهم البالغة وبصيرتهم النافذة، لكانت مهمتي أصعب بكثير.

لابد من أن تتمحور هذه المذكرات بالبداهة حول دوري، لكنها تتحدث عن بلدي العزيز ماليزيا، البلد الذي منحني، ومنح جميع الماليزيين طبعاً، حياة طيبة. ستصدر كتب أخرى تتحدث عن ماليزيا وحتى عني، من زوايا أخرى، لكني آمل بأنني أنصفت بلدي.

## مهاتير محمد رئيسا للوزراء

يقول مهاتير محمد عن توليه لمنصب رئيس الوزراء أصبحت رابع رئيس وزراء ماليزيا في 16 تموز/ يوليو 1981م، وكما قادة المنظمة الملايوية الوطنية المتحدة (أمنو) من قبلي، راودني حلم بأن أصبح عضواً في الوزارة، وحتى رئيس الوزراء، لكني لم أعتقد أن ذلك الحلم سيتحقق فعلاً، بل إني بقيت مرشحاً يستبعد بدرجة كبيرة بلوغه أرقى منصب في البلاد إلى أن جاءت اللحظة التى وقفت فيها أمام الملك في انتظار أداء اليمين.

لطالما تضافرت العوامل بقوة ضدي، فأنا لم أنتم إلى النخبة الملايوية الحاكمة، فيما كان تونكو عبد الرحمن بوترا الحاج بن المرحوم سلطان عبد الحميد حليم شاه، وهو أول رئيس وزراء في البلاد، أميراً ونجل سلطان ولاية قدح. كما كان مساعد المدعي العام ومديراً في وزارة التعليم. كان تونكو (الأمير)، وهو اللقب الذى خاطبته به بحفوة كافة طبقات المجتمع، في الخدمة المدنية بولاية قدح وكان يرأس عدداً من الدوائر الحكومة. لذلك، لم تتعارض ترقينه إلى منصب رئاسة الوزراء مع التقاليد الاجتماعية السائدة آنذاك.

انتسب تون عبد الرزاق حسين، رئيس الوزراء الثاني، إلى أسرة مرموقة من المدراء. كان والده موظفاً حكومياً رفيعاً في حكومة ولاية

باهانغ، وكان تون عبد الرزاق نفسه وزير خارجية في باهانغ قبل انخراطه في السياسة. وبعد إقامة فدرالية ملايا في سنة 1948م، أصبح رئيساً للوزراء في ولايته وباعتلائه سدة المنصب الثاني في المنظمة الوطنية الملايوية المتحدة (أمنو)، أصبح نائب رئيس الوزراء والخليفة البديهي لتونكو.

ومن ناحية أخرى، كنت إنساناً عادياً ونجل معلم مدرسة سابق تقاضى راتباً تقاعدياً شهرياً مقداره 90 رينغت ماليزي عندما انخرطت في السياسة. كانت جزر ملايا لا تزال إقطاعية ولم تألف جميعها ارتقاء أشخاص من عموم الناس إلى طبقة فوق طبقتهم، لكني كسرت القاعدة وعبدت الطريق أمامهم ليكون أحدهم رئيس حكومة ماليزيا. واليوم، يحظى أى شخص عادي يعتلي منصب رئيس الوزراء بالاحترام نفسه الذى يحظى به أى شخص يتحدر من الطبقات الحاكمة.

كما كان رؤساء الوزراء الثلاثة الأول محامين تدربوا في لندن، بينما كنت طبيباً تخرج من جامعة ملايا في سنغافورة. وهذا وحده يجعلني في وضع غير مؤات؛ لأن مهنة الطب ليست المؤهل الأفضل لطامح إلى تولى منصب رئيس وزراء. فالمحامون هم الأنسب لتولي هذا المنصب بسبب الوظائف التشريعية التى ينطوى عليها الحكم. وساد اعتقاد بأن الأطباء ليسوا متمرسين بدقائق القانون والإدارة.

كنت متمرداً وصانع مشكلات أيضاً بلا سند يحميني، ولذلك طردت من (أمنوا) في سنة 1969م لتجرئي على انتقاد تونكو، وهذا العمل وحده يجب أن يكون كافياً لإنهاء مسيرتي السياسية. لكني لم أكن أول من فعل ذلك؛ فقد طالب عزيز إسحاق، وزير الزراعة السابق في أول

وزارة شكلها تونكو، ببناء مصنع للسماد لمساعدة المزارعين المحليين الذين كانوا يشترون السماد من شركة أجنبية. أزعجت الخطوة تونكو الذى لم يشأ إغضاب الشركة الأجنبية فأقال عزيزاً من منصبه، ثم طرد من المنظمة في النهاية ولم يسمح له بالعودة إليها.

كنت أوفر حظاً؛ إذ سُمح لي بالعودة إلى المنظمة، لكن سجلي كصانع مشكلات كان سيقصيني عن تسلم مناصب رفيعة في الحزب أو في الحكومة. كما لم تربطني بالطبقة العليا روابط أسرية ولم أكن لأقطع شوطاً كبيراً في الأحوال العادية. لكن خلاصي السياسي جاء على يد تون رزاق الذى تغاضى عن سلوكي مع تونكو وسهل أمر وصولي بجعلي وزيراً بحقيبة بعد أن فزت بمقعد في الانتخابات العامة لسنة 1974م.

التقليد السياسي الذى كان سائداً إلى عهد قريب يشترط أن يتقلد المرء منصب عضو برلماني أولاً ثم مساعد وزير قبل ترفيعه إلى منصب وزير بحقيبة، لكني تجاوزت هاتين المرحلتين التدريبيتين.

بطبيعة الحال، كان هناك عدد لا بأس به من الأعضاء الأرفع مني بكثير في أمنو والذين لم يتقبلوا تجاوزي الآخرين. لكن تون رزاق رأى أن فرصة وصولي إلى القمة ضئيلة للغاية من دون ذلك، وبوفاته في سنة 1976م، خسرت سندي الوحيد.

توجب على أن أخطو خطواتي بحذر حتى في حياته لكن صديقاً لي هو داتوك هارون إدريس، رئيس الوزراء في سلانغور الذى ساعدني من قبل على العودة إلى صفوف المنظمة بعد أن طردت منها، أعتقد أنني قضيت على فرصته في الترشح لمنصب نائب الرئيس في انتخابات أمنو لسنة 1975م؛ فقد خضت السباق نفسه وهزمته بفارق ضئيل. ولم

يسامحني هارون وأبناؤه أبداً، لكني لم أنس صنيعه الجميل معي. قدم إلى المحاكمة في وقت لاحق ووجد مذنباً بتهمة الفساد، ثم أخلي سبيله في أثناء تقلدي منصب رئيس الوزراء. وفي سنة 1986م، أعان هارون وابنه تونكو رزاليغ حمزة الذى كان نائباً رئيس أمنو، عندما تحداني في انتخابات رئاسة الحزب في ذلك العام.

لكن الحصول على تأييد الرجل الأول لم يكن يعني التمتع بمساندة كبار الأعضاء في الحزب. فعندما عينني تون حسين مساعداً لرئيس الوزراء في سنة 1976م، واجه معارضة مستمرة من أعضاء ذوي نفوذ في الحزب، مثل: تان سري سيد جعفر حسن البار، قائد شبيبة (أمنوا المسن) الذى توفى إثر تعرضه لأزمة قلبية في أثناء حملته الانتخابية في جوهور. وما إن عينت مساعداً لرئيس الوزراء حتى اعتقل اثنان من أصدقائي المقربين بزعم مساندتهم للشيوعيين.

**ويضيف مهاتير محمد قائلاً:**

كان تان سري عبد الله أحمد وعبد الله مجيد مساعدين لرئيس الوزراء في حكومة تون حسين. شغل عبد الله أحمد منصب السكرتير السياسي لتون رزاق وكان صديقاً لأسرته، وكان أحد أقوى أنصاري أيضاً. وكما لو لم يكن اعتقال صديقي كافياً، اعتقل سكرتيري السياسي صديق غوز بزعم القيام بأنشطة تجسسية. وذكر وزير الداخلية السيد غزالي شافعي لاحقاً أن صديق عمل جاسوساً لصالح جهاز المخابرات السوفياتية الكاي جي بي (KGB).

هذا كان مآلي، مساعد رئيس الوزراء، منحدراً من أسرة غير عريقة في السياسة، سكرتيرة السياسي "جاسوس" وأصدقاؤه "متعاطفون مع

الشيوعيين". بدت إمكانية وصولي إلى أبعد مما وصلت إليه في الحزب مستبعدة جداً.

ربما لست الوحيد الذى لم تكن مسيرته سهلة؛ إذ تعرض تون حسين كذلك للهجوم عندما عين رئيس الوزراء تون رزاق مساعداً له. اعتبره بعض قادة الحزب دخيلاً لأنه لم يعد إلى أمنو إلا في سنة 1964م، بعد مضى سبع عشرة سنة على انسحابه ووالده داتو عون جعفر، مؤسس أمنو، لتشكيل حزب استقلال ملايا. وكان تون رزاق من أعاد تون حسين إلى الحزب- كان كل من الرجلين متزوجاً بشقيقة زوجة الرجل الآخر ولذلك كانا قريبين أصبح تون رزاق وزير التربية والتعليم واعتبر ترقيه في سلم المناصب سريعاً أيضاً، واعتبر اختياره لي في وقت لاحق مساعداً لرئيس الوزراء، قراراً غير حكيم، وذلك عائد من بعض النواحي إلى صلاتي بمن وصفوا بالشيوعيين. مقدور أحد الاعتقاد بأنه، بالإضافة إلى، على صلة بالشيوعية. أضف إلى ذلك أن تون حسين أمر باعتقال الأشخاص الذين اشتبه في كون ميولهم يسارية على علو شأنهم في أمنوا وقربهم من تون رزاق.

لطالما تساءلت عن سبب اختياره لي مساعداً له، فهو لم يعرف عني كثيراً على المستوى الشخصي. ربما وقع اختباره على لأن معرفته بتون غفار باباً كانت أقل من معرفته بي، وهو الذى خاض جولة الانتخابات ذاتها في الحرب ونال أكبر عدد من الأصوات من بين المرشحين لمناصب نائب الرئيس الثلاثة. ولا يسعنى سوى التكهن بموقف تون حسين من النائب الثاني للرئيس، تونكو رزاليغ حمزة. وربما كان لحادثة وقعت أثر في استبعاده عندما كان تون حسين وزير المالية ومساعد رئيس الوزراء.

طلب تونكو رزاليغ، الذى كان رئيس شركة النفط الوطنية "بتروناس"، ورئيس الشركة الوطنية للتجارة "بيرناس" (شركة ترايد ويندس الآن)، تخصيص مبلغ 100 مليون رينغت ماليزي لكل من الشركتين وألا يرفع تقاريره إلا إلى تون رزاق مباشرة متجاوزاً تون حسين رئيس الخزانة، وربما لم ينس تون حسين فعلته تلك. وأنا أعتقد أنه لم تتوافر له خيارات كثيرة عندما اختار مساعده، وربما كان لا يزال لآراء تون رزاف بعض التأثير. وكما قال لي ذات مرة، نصح له تون رزاق بالاستعانة بي متى احتاج إلى مساعدة.

لا ريب أنه كان للقدر دور مهم في ارتقائي السياسي، عندما توفى تون الدكتور إسماعيل عبد الرحمن الذى رشحه تون رزاق لمنصب مساعد رئيس الوزراء، أصبح تون حسين نائب رئيس الوزراء. ولم يمض وقت طويل حتى توفى تون رزاق ليصبح تون حسين رئيس الوزراء، لكن اعتلال صحته منعه من شغل المنصب مدة طويلة فتنحى في تموز/ يوليو 1981م.

**يقول مهاتير محمد:**

**أنا اعتبر ارتقائي سريعاً، ومع ذلك احتجت إلى ثماني عشرة سنة لأصبح عضواً في البرلمان، وإلى ثمان وعشرين سنة لأصبح وزيراً. لم يكن المال السياسي معروفاً في تلك الأيام ولم استخدم المال لأصل إلى ما وصلت إليه. وحتى عندما زعم أن المال استخدم في تمويل الحملات المنافسة لي، استطعت الفوز من دون رشوة أحد وإن بهامش ضيق وأنا ممتن للديمقراطية التى تمارس في "المنظمة الملايوية الوطنية المتحدة" (أمنو) التى تناهض الإرث الإقطاعي للملايويين. لقد تجرأت**

على تحدي التونكو في سنة 1969م شعوراً مني بأني أتمتع بدعم شعبي، وحتى عندما طردت من الحزب، استطعت الانتساب إليه مجدداً بفضل هذا الدعم.

لكن حين أصبحت مساعد رئيس الوزراء، كنت شخصاً اختاره قائد لم يتمتع بدعم قوى في الحزب. وبدا واضحاً أننى لن أقضى وقتاً سهلاً، كما لم يستطع تون حسين تأمين حماية كبيرة لي وكان قد عول على تون رزاق في الحصول على الدعم عندما اختير مساعداً لرئيس الوزراء. وعندما توفى تون رزاق، لم يكن لتون حسين قاعدة شعبية واسعة يمكن الحديث عنها. والظاهر أن اعتقال شخصيات كبيرة في الحزب ممن وصفت بالمتعاطفة مع الشيوعيين واحتجازها أوحي لى بأن مكتبه متأثر بالشيوعيين. وربما كان إذعانه للضغوط الرامية إلى تنفيذ تلك الاعتقالات مقياساً جيداً على ضعفه السياسي. في الواقع، كانت إدارته مهووسة بالغول الشيوعي الذى أطلقه الطاعنون فيه آملين بأن يطرد أو يتنحى مبكراً، ما يؤجج صراعاً على القيادة داخل (أمنو).

وبالإضافة إلى عجز تون حسين عن كبح الجهود الرامية إلى إضعافه داخل (أمنو)، واجه تحديات من الصينيين. فبموجب "السياسة الاقتصادية الجديدة"، ألزمت الشركات بموجب قانون التنسيق الصناعي لسنة 1975م بتخصيص 30 في المئة من أسهمها للبوميبوترا. ولما كانت عامة الشركات الصينية تملكها أسر، لم ترض بالبداهة عن إشراك البوميبوترا الغرباء بالكامل على أى مستوى ولو كمدراء. لكن القانون (ICA) افتقر إلى المرونة وثارت ثائرة رجال الأعمال الصينيين على الحكومة. كما تعالت أصوات طالبت بفتح جامعة صينية.

ولتنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة بحذافيرها، زيدت الحصص المخصصة للبوميبوترا في الجامعات الأهلية، مما منع بعض الطلاب الصينيين والهنود المؤهلين من الالتحاق بهذه المعاهد. لم يشكل ذلك مشكلة للأثرياء لأن في وسعهم الدراسة في الجامعات الأجنبية، لكن نظام الحصص قلص إلى حد بعيد الفرص المتاحة للفقراء من غير الملايويين لتلقي علم جيد.

لم يكن في البلاد جامعات خاصة ولا مؤسسات تعليم مدرسي عال في تلك الأيام. وكان عدد من الصينيين يكملون دراساتهم الثانوية باللغة الصينية ما جعل المطالبة بافتتاح جامعة صينية تدعى دونغ جياو تسونغ، فأصبحت وتون حسين في مأزق وكنت وقتئذ وزير التربية والتعليم فوقعت القضية على كاهلي؛ فإذا أذعنا لمطالب الصينيين سنغضب أنصارنا الملايويين، وإذا رفضناها، سنضعف "الحزب الصيني الماليزي" والأحزاب الصينية المتحالفة مع أمنو في ائتلاف الجبهة الوطنية الحاكم.

يصوت الصينيون بحسب القضايا لا بحسب الانتماءات السياسية بعكس الملايويين. وفي قضية الجامعة الصينية، عرفت من خبرتي أن عدداً من أنصار "الحزب الصبني الماليزي" و"حزب الحركة الشعبية الماليزية" سيصوتوت لـ"حزب العمل الديمقراطي المعارض" (DAP). فولاؤهم لعرقهم أشد من ولاءاتهم الحزبية. وعلى سبيل المثال، صوت الناخبون الصينيون في دائرتي الانتخابية في انتخابات سنة 1969م لصالح "الحزب الإسلامي الماليزي" (باس) ((PAS) The Malay Islamist Party) لضمان عدم فوزي لأنني حسبت في عداد ما يسمى

الملايويين "المغالين"، وهي جماعة إثنية متطرفة مزعومة. يوضح هذا الاختيار الدور الحاسم أحياناً لأصوات الأقليات الإثنية في ماليزيا، والذى بتجاهله لا يضر المرء إلا نفسه.

**ويضيف مهاتير محمد قائلاً:**

على أن أصعب المشكلات التى واجهها تون حسين منذ توليه منصب رئيس الوزراء كانت قضية فساد تورط فيها هارون إدريس. كان رئيس الوزراء في سلانغور ورئيس جناح شبيبة أمنو أيضاً وكان يتمتع بشعبية كبيرة في أوساط الملايويين الأكثر جرأة. كان الأحرى بتون حسين الذى افتقر إلى دعم قوى من حزبه وواجه أعداء أقوياء من الحرس القديم في أمنو أن يتوخى الحذر في التعامل مع هارون، لكنه مضى في إثارة القضية، فأدانته شبيبة أمنو بقوة. لم يكن أمامي خيار سوى مساندته مع علمي بأنه لو سقط فقد أسقط معه.

لكن تون حسين كان رجلاً صاحب معتقدات راسخة، فتجاهل شبيبة أمنو بل تهيأ لاستخدام الشرطة عندما رفض هارون تسليم نفسه. وتواصل التحريض على تون حسين، لكن فوز الجبهة الوطنية في الانتخابات العامة لسنة 1978م- الذى يعزى بدرجة كبيرة إلى انشقاق في صفوف "الحزب تون حسين، المنتشي بهذا الفوز، إجراء انتخابات أمنو لتأكيد رئاسته للحزب فترشح ضده عضو في الحزب يدعى الحاج سليمان فلسطين، وهو صاحب شخصية مثيرة للاهتمام يتكلم العبرية على نحو يثير الدهشة كونه عاش في فلسطين في سني شبابه (ومن هنا كان لقبه). كان سليمان صاحب الشعبية الكبيرة خطيباً مفوهاً، لكن تون حسين فاز عليه بفارق كبير. وإذ لم يتحداني أحد، ثبتت مساعداً

للرئيس، وانحسر الخطر الذى كان يتهددني ويتهدد تون حسين".

لكن التوتر شاب علاقتي الخاصة بتون حسين أحياناً؛ فقد رفض بعض مقترحاتي واستاء من جرأتي في عرضها عليه. ومع تزايد شعوري بالإحباط أحجمت عن طرح أفكاري في النهاية؛ لأني لم أشأ إزعاجه وعريض حظوظي في أن أصبح رئيساً للوزراء للخطر. ثم جاء يوم في سنة 1981م، أبلغ به تون حسين الوزارة فجأة بأنه ذاهب إلى المملكة المتحدة لتلقي العلاج بسبب علة في القلب. عرفنا أنه لم يكن على ما يرام، لكننا لم نعتقد أن علته تستوجب جراحة قلبية- كانت خطورة العملية في تلك الأيام أكبر بكثير منها اليوم. ولئن تكللت العملية الجراحية بالنجاح، فقد بقي تون حسين متوعكاً عندما عاد إلى البلاد. توجب عليه التخفيف من أعبائه فعرضت عليه تولى بعض الأعمال الإضافية. وفي أحد الأيام، استبقاني بعد لقاء عقد في منزله في أواسط سنة 1981م. قال لي إنه غير قادر على البقاء في منصبه ويريد التنحي، فعرضت عليه مرة أخرى القيام بعمله نيابة عنه في أثناء نقاهته، لكنه كان عنيداً وقال إنه قد حسم أمره، وكان علي أن أتسلم منصبه.

احتفظت بهذه المعلومة لنفسي وانتظرت ريثما يدلي تون حسين بالخبر بنفسه، وهذا ما فعله في قسم أمنو في جوهور بارو في يوم 15 أيار/ مايو 1981م. صعق الأعضاء الألف الذين حضروا اللقاء السنوي عندما أبلغهم نيته عدم الترشح لتجديد انتخابه رئيساً للحزب وأنه سيتنحى عن منصب رئيس الوزراء. وبعد وقت قصير، أبلغ الوزارة وأدلى بتصريح علنى قال فيه إنه ينوي الاستقالة من رئاسة الوزراء. تعين على الحزب إجراء انتخاباته في "الجمعية العامة السنوية" في 28

حزيران/ يونيو من تلك السنة. ولم أقبل بالترشح لرئاسة الحزب إلا بعد أن أتضح أن تون حسين لن يخوض تلك الانتخابات.

وبما أنه لم يترشح شخص آخر، فزت بالرئاسة بالتزكية في 28 حزيران/ يونيو وذلك يوم تنحى تون حسين رسمياً. وتركز الانتباه في المنافسة على منصب مساعد الرئيس. شارك في المنافسة مرشحان، تنكو رزاليغ وتون موسى هيتام، وكانا نائبي الرئيس.

انعقدت "الجمعية العامة السنوية" في قاعة نيروانا بفندق هيلتون آنذاك لأن أعمال البناء في مقر المنظمة لم تكن قد اكتملت بعد. غصت القاعة بالوفود والمراقبين والضيوف، وبعد الإجراءات التمهيدية المعتادة، أعتلى تون حسين المنصة وألقى كلمة مقتضبة كانت بحسب الممارسة المتبعة في أمنو الخطاب الافتتاحي للجمعية. أعلن أمام الحشد الصامت أنه بعد أن تساور معي، قرر التنحي عن منصب رئيس الوزراء في 16 تموز/ يوليو، أى إنه بعد 17 يوماً، لن يكون رئيس الوزراء رئيس المنظمة، والعكس صحيح، ومع أن ذلك مثل خروجاً على التقاليد، لم يكن لقراره ارتدادات ولم يعلق أحد عليه. رمقت العيون كافة تون حسين وهو ينزل عن المنصة بعد أن أنهى كلمته، قوبل بتصفيق حاز وصافح أعضاء المجلس الأعلى قبل أن يعود إلى مقعده.

رفعت الجلسة وتوجه جميع أعضاء المجلس الأعلى إلى "غرفة الراجا" (Rajah Room) للاستراحة واحتساء القهوة، ولم يبق تون حسين مدة طويلة والتفت أعضاء المنظمة حوله فيما كان يشق طريقه نحو الردهة السفلى في الفندق، وهناك ودعه أعضاء "المجلس الأعلى". وبعد ذلك، تجمهر أعضاء الحزب حولي لتهنئتي على انتخابي من دون

منازع رئيساً لأمنو، كان ذلك جيداً لإشباع الاعتداد بالنفس، مع أننى لم أعرف كم كان عدد الصادقين فيهم.

عندما استؤنفت الجلسة، انطلقت عملية التصويت لانتخاب مساعد الرئيس، ونائبي الرئيس ومناصب أخرى. التقليد السائد في أمنو هو أن من يصبح مساعد الرئيس يصبح مساعد رئيس الوزراء أيضاً، لذلك كان من الطبيعي أن تستحوذ المنافسة بين تنكو رزاليغ وتون موسي على جل الانتباه. عزمت على العمل مع الفائز أياً كان، ولم أجرؤ على دعم أى من المرشحين لأنه إذا خسر مرشحي، يصبح مساعدي خصماً لي. لذلك كان لزومي الحياد أمراً فائق الأهمية بالنسبة إلي لأنى أردت أن أكون قريباً من مساعدي، وعدم تمتعي بهذا القرب من تون حسين كان في رأيي سبب رفضه بعض أفكاري. على أن حرصي على لزوم الحياد لم يكسبني دعم مساعدي مدة طويلة؛ ففي غضون خمس سنين، اتفق تنكو رزاليغ وتون موسي علي في المنافسة على رئاسة أمنو.

مع أن هارون كان لا يزال في السجن عندما تنحى تون حسين عن رئاسة الوزراء، فقد رشح لمنصب نائب الرئيس في تلك الجمعية. لم يثر تون حسين مشكلة بسبب ذلك، كما إنه ليس في ميثاق الحزب ما يوقف هذا الترشيح، لكن القواعد التنظيمية منعت هارون من شغل منصب فاعل في السياسة إلى أن يمضى على خروجه من السجن خمس سنين. وأوضحت شبيبة أمنوا أنها تريد أن يحصل هارون على عفو شامل من الملك. لم أعرف على وجه اليقين إن كان الحصول على عفو شامل يتيح له استئناف مزاولة السياسة على الفور، لذلك كانت انتخابات أمنوا في هذه الجولة حرجة. كانت ستحدد من سيكون مساعدي وتفصح عن

مشاعر أعضاء الحزب حيال سجن هارون. عرفت مشاعر تون حسين حيال هذه القضية؛ إذ إنه ألقى ملفات هارون على عاتقي بكل ما في الكلمة من معنى عندما حاولت قبل هارون، وافترضت حينئذ أنه سيستاء إذا ساعدت هارون. ومن ناحية أخرى، لم أستطع المجازفة بتجاهل مشاعر الأعضاء وأفقد شعبيتي بعيد تسلمي منصب رئيس الحزب.

ساد جو من الإثارة الشديدة في أثناء عد الأصوات، وكان المرشحون كافة قد تعهدوا في جلسة "المجلس الأعلى" العادية في الليلة التى سبقت انعقاد الجمعية العامة بمواصلة خدمة الحزب والحكومة منتصرين كانوا أم منهزمين. شعرت بثقة معقولة بأن الحزب لن ينقسم إلى طرف مساند لتنكو رزاليغ وآخر مساند لتون موسي. وفي النهاية، فاز تون موسي بأغلبية مريحة بحصوله على 722 صوتاً مقابل 517 صوتاً لرزاليغ، ضجت القاعة بالهتاف الشديد وإن لمدة وجيزة عندما أعلنت النتائج، وأحمد الله أن المندوبين استجابوا لمناشدتي عدم المبالغة في إظهار مشاعرهم حيال النتيجة.

أما النتائج التالية التى كانت ستعلن بعد ذلك فهي حصيلة انتخابات نائبي الرئيس. انتظرت حابساً أنفاسي ريثما يتضح عدد الأصوات التى سينالها هارون، كان هناك سبعة مرشحين، ولم يكن فيهم شاغل لمنصب مساعد الرئيس سوى تون غفار، أما المساعدان الآخران، وهما تنكو رزاليغ وموسي هيتام فلم يكونا في عداد المتنافسين المغامرين ولكن شاركاً في التنافس على منصب مساعد الرئيس وليس على أى منصب آخر. وباستثناء تون غفار وهارون، كان في عداد المتنافسين تنكو تان سري أحمد رثاء الدين تنكو إسماعيل، وتون غزالي شافعي، وتان سري

سينو عبد الرحمن، وداتوك سيري الدكتور ربس يتيم. وكما كان متوقعاً، أحتل تون غفار المركز الأول بحصوله على 869 صوتاً، واحتل هارون المركز الثاني بعد أن نال 757 صوتاً، وحل تنكو أحمد رذ، الدين ثالثاً بعد حصوله على 711 صوتاً.

تحققت أعظم مخاوفي؛ لأن الحصيلة أوجدت لي مشكلتين رئيستين حال تبوئي رئاسة (أمنو) ورئاسة الوزراء: الأولى، هي إمكانية انقسام الحزب إلى معسكرين يساند الأول تون موسي ويساند الثاني رزاليغ. والمشكلة الثانية، هي أنه لدينا الآن نائب رئيس في السجن.

ترأس تون حسين اجتماعه الوزاري الأخير في 15 تموز/ يوليو، وقدم رسالة استقالة رسمية في اليوم التالي إلى يانغ ديبيرتوان أغونغ (الملك) ثم إلى أحمد شاه، سلطان باهانغ آنذاك. وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم نفسه، عقد احتفال قصير في قاعة الاحتفالات في القصر حضره جميع الوزراء إلى جانب مفتش عام جهاز الشرطة ورئيس أركان القوات المسلحة والمدعي العام. كما كان في عداد الحاضرين توه بوان سهيلاً محمد نوح، زوجة تون حسين، وزوجتي سيتي حاسمه محمد علي. وإلى طاولة أخرى جلس رئيس المحكمة العليا بالوكالة تان سري راجاً أزلان شاه (الذى أصبح سلطان بيراك لاحقاً)، والسكرتير الأول في الحكومة تان سري هاشم أمان.

دخل تون حسين القاعة وسرت خلفه، وارتدى كل منا بزة داكنة متهدلة وسونغكوك لأن المراسيم التى تقتضى أن يرتدي وزراء ماليزيا باجو ملايو الأسود لم تكن قد طبقت بعد. ثم دخل جلالة الملك بانغ دي بيرتوان أغونغ (الملك) وجلس على العرش وإلى جانبه أربعة ضباط

معاونين من الشرطة ومن القوات المسلحة. وعقب دعوة كبير أمناء البلاط، تقدمت نحو الملك فسلمني الوثيقة الرسمية لأداء اليمين وبعد إدلائي بقسمين، الأول قسم رئاسة الوزراء والثاني قسم صون الأسرار الرسمية، وقعتهما ووقعهما رئيس المحكمة العليا بالوكالة.

مثل هذان التوقيعان حداً فاصلاً بين حياتي السابقة وحياتي اللاحقة، وغالباً ما تعجبت في أثناء شغلي منصبي من وصول شخص عادي مثلي إلى هذا المنصب. وعند النظر إلى الوراء، يتبين أنها مسيرة مستبعدة للغاية بالنسبة إلى طبيب، فكيف بالنسبة إلى أحد من عامة الناس، ومع ذلك أصبحت رئيس الوزراء الرابع لماليزيا.

# القيم الأسرية

**عن القيم الأسرية التى اعتنقها مهاتير محمد يقول:**

كان والدي محمد بن إسكندر رجلاً ذا شخصية غير عادية في مسألة الدراسة. كان يفر إلى المدرسة وليس منها، وكان يكتم عن أبويه أمر التحاقه بالمدرسة، كانت تلك خاصيته التى علمتني في النهاية تبجيل التعلم والمعرفة.

السبب أن الآباء الملايويين عارضوا إرسال أبنائهم إلى مدارس الإنكليز لأن الأخوة المسيحيين أو الإرساليات المسيحية كانت تدير أغلبيتها. كانت تدرس الكتاب المقدس في الأديرة وفي مدارس الإرساليات الأخرى، وتفرض على عدد من الطلاب الملايويين دراسته كأحد المواد التى يمتحنون فيها. خشى الملايويون المسلمون تحول أبنائهم إلى المسيحية إن هم ذهبوا إلى تلك المدارس، مع أنه لم يعرف عن أحد ارتداده عن دينه مدرسة مسيحية في مستعمرة بينانغ البريطانية. رغب في تلقي العلم إيماناً منه بأنه سيحسن فرص حصوله على عمل، وأن إيمانه بالإسلام قوي بما فيه الكفاية ليقاوم التبشير.

بعد نجاح والدي في امتحانات الصف النموذجي الرابع، قبلت به حكومة بينانغ مدرساً تحت التدريب. خضع لتدريب «الصف العادي»، وهو تدريب عملي للمعلمين، وفي سنة 1908م، دعته حكومة قدح إلى افتتاح مدرسة إنكليزية في عاصمة ألور ستار الخاصة بأبناء الأسر

الملكية ونخبة الموظفين في السلك الحكومي، كان في عداد تلاميذه تونكو عبد الرحمن الذى أصبح لاحقاً أول رئيس وزراء لملايا وماليزيا المستقلتين. ولأن والدي مؤدب صارم، لم يحبه تلاميذه، بما في ذلك أول رئيس للوزراء، وربما يكون مرد ذلك أن السلطان أجاز لوالدي معاقبة التلاميذ الذين يقصرون في دراستهم ولو كانوا من أسر ملكية. ولم يتردد في فعل ذلك، بل كان يستعين بعصا رفيعة من الخيزران في بعض الأحيان.

لم يكن والدي في المنزل أقل صرامة منه في المدرسة. ولأنه أمرنا بالدراسة بجد، أرسل أقرباؤنا أبناءهم للإقامة عندنا ليتشربوا القيم ذاتها، منهم الراحل تون سيد أحمد شهاب الدين الذى خدم حاكماً لملقا، فضلاً عن توليه مهاماً أخرى. عشنا كأطفال مذعورين من والدي ولو لم يلمسنا بيده، ولم يكن في حاجة إلى ذلك، فصوته وهو يسعل عندما يأتي إلى المنزل كان كافياً لنسارع إلى فتح كتبنا وأداء فروضنا. كنا نجلس جميعاً إلى طاولة كبيرة في الحجرة المحاذية لواجهة المنزل للدراسة، ولا نتوقف إلا لتناول طعام العشاء.

نقل والدي في وقت لاحق من قدح إلى باهانغ، ثم إلى جوهور للتدريس في المدارس الإنكليزية هناك وغالباً ما كانت الرحلات تسبب الإجهاد وتستغرق أياماً عديدة، وتوجب عليه ركوب الباخرة واصطحاب والدتي وأبنائه. وفي هذه الأثناء، ولدت إحدى شقيقاتي، واسمها حابسه، في باهانغ، وولد شقيقي في جوهور حيث كان والدي يدرس في مدرسة أصبحت لاحقاً كلية جوهور الإنكليزية. وفي النهاية سئم تغيير أماكن إقامته والعيش بعيداً عن منزله، فاستقال من سلك التعليم

بعد نحو ثماني سنين. ولما كان بارعاً في الرياضيات، التحق بدائرة قدح لتدقيق الحسابات كمدقق أول. وكان يدرس شقيقي مشهور، الذى التحق بالمدرسة قبلي بسنتين، موضوعات مثل القاسم المشترك الأكبر والمضاعف المشترك الأصغر، وذلك بالجلوس إلى الطاولة الكبيرة حيث كنت أدرس وأصغي باهتمام، ما جعلني أتقن الحسابات العقلية. ثم تقاعد والدي عندما وصلت إلى الصف الإعدادي الثاني في المدرسة الانكليزية الأهلية في ألور ستار.

ولدت في أفقر أحياء هذه البلدة في منطقة تسمى سيبيرانغ بيراك. صادف مولدي الحقيقي في العاشر من تموز/ يوليو 1925م، لكن والدي دأب على تسجيل ولادات جميع أبنائه الذكور في كانون الأول/ ديسمبر. وبما أن السنة الدراسية الملايوية تبدأ بكانون الثاني/ يناير، فقد أغنانا ذلك عن أي مشكلات قد يسببها السن عند تسجيلنا في المدارس. ولذلك فإن تاريخ ميلادي بحسب السجلات هو 20 كانون الأول/ ديسمبر بينما سني بحسب الوثائق أصغر قليلاً من سني الحقيقي.

عندما تصرف مياه أرض حينا المنتنة وتطفو الأوساخ السوداء على الماء، يكاد أن يصبح زقاقاً قذراً، بل إن المنطقة بأسرها تصبح موحلة بعد هطول المطر. وعندما يرتفع مستوى مياه النهر، تتدفق في المصارف وتصب في الأراضي المحيطة ملقية أكواماً من الأوساخ حال انحسار المياه. لكن هذه الظاهرة لم تخل من جانب إيجابي؛ ففي هذا الموسم، كنت وأشقائي نصطاد سمك إيكان تيميكونغ، وهو نوع من الأسماك الصغيرة غير الصالح للأكل، لكننا كنا نصطاده من أجل التسلية.

دأب عدد من أبناء المنطقة على زيارتنا- شخص مخنث يدعى

تشي دين بوني، وبائع كعكات مصنوعة من فوق الصويا ونباته؛ وإنسيك سيوتان آدم وهو جار ثري؛ وبائعة حلوى اعتادت حمل أربع سلال فيها كعكات ملايوية متنوعة بيديها. وفي بعض الأمسيات، كان يزورنا با أوانغ لاديه، وقد لقب بذلك لأنه كان يبيع اللاديه أو اللبن الرائب. وله ابن ديعى عبد الرحمن أوانغ درس طب الأسنان وكنا معاً في دفعة طلاب كلية الطب لسنة 1947م. وبعد التخرج، التحق بالسلك الحكومي وترقى في المناصب إلى أن أصبح مدير قسم طب الأسنان في ماليزيا. وقصته تثبت أن في استطاعة أى كان النجاح في هذا البلد إذا بذل جهداً كافياً.

كان يزورنا أيضاً سقاء هندي، وهو شخص غريب الأطوار بعض الشئ، فقد اعتاد وضع صفائح من القصدير تبلغ سعتها أربعة غالونات أرضاً ليرقص بصخب. ولسبب ما، كان يلصق نقوداً معدنية من مختلف الفئات على قميصه وكانت تصدر أصواتاً عندما يرقص ويصرخ «آييم يويسه، يوهوك يوهوك»، وهي عبارة من دون معنى، ولا يزال هذا الرجل وقطعه النقدية الكثيرة تخطر ببالي إلى يومي هذا كلما ارتديت ملابسي وأوسمتي الرسمية، واعتقد أنني أشبهه.

كان والدي ملايوياً من بينانغ، علماً بأنه يجري في عروق جميع الملايويين في جزيرة بينانغ دم هندي بشكل أو بآخر. بلغت الهجرة من الهند ذروتها حين أصبحت بينانغ مستعمرة بريطانية، وبما أن المهاجرين كانوا من الرجال فقط، فقد تزوجوا نساء ملايويات. يطلق على أبنائهم صفة جاوي برنكان، وتعنى «جاوي المولد»، ربما لأنه لم يكن في استطاعة الناس في تلك الأيام التمييز بين الملايويين والجاويين، ولا يزال العرب يطلقون على الملايويين اسم الشعب الجاوي، واستعمال

وصف جاوي العربي في ماليزيا مجرد صدفة. إن الملايويين البينانغيين ملايويون من الناحيتين الثقافية واللغوية. ووالدي لم يكن يحسن أياً من لغات الهند ولا يعرف شيئاً عن أجداده أو أقربائه هناك، بمعنى أن صلة القرابة كانت مقطوعة بالكامل.

وفر والدي لجميع أبنائه العلم الذى يحتاجون إليه لشق طريقهم في الحياة. لكنني طالما شعرت بأني أوفر أشقائي حظاً لأن والدي أوصلني إلى أعلى مستوى تعليمي، ولهذا أنا أيسر حالاً منهم.

وبينما شدد والدي على التعليم العادي، أصرت والدتي على أن يتلقى أبناؤها علوم الإسلام في مرحلة مبكرة من حياتهم، كانت تجيد تلاوة القرآن الكريم وهي علمتنا تجويده بنفسها. وعرفت شقيقتي الكبرى رفيه، ولقبها بوتيه، بصوتها الجميل عندما تتلو القرآن. كما تعلمنا في المدرسة الملايوية أساسيات الدين، وحفظنا سوراً مختارة من القرآن الكريم من دون تعلم تفسيرها. وفي مرحلة لاحقة، حفظنا مزيداً من الآيات عن ظهر قلب على يد معلم من مدرسة عربية يدعى إنسيك زكريا محمد نور، وشرح لنا معانيها باللغة الملايوية. وما زلت أحفظ هذه الآيات إلى الآن، وبفضل تشديد والدي على طلب العلم وإصرار والدتي على أن أتعلم أصول ديني، تولدت لدى حماسة لاكتساب المزيد من المعرفة ومطالعة الكتب على اختلاف أنواعها.

كنت أقرب إلى والدتي مني إلى والدي، ولذلك كان تأثيرها أعظم في بناء شخصيتي؛ إذ علمتني القيم التى تمسكت بها طوال حياتي، وخصوصاً خلق التواضع وعدم التباهي بأفعالي، وعندما كنت أتحدث عن نفسي، ربما بنبرة متعالية، كانت تقلل من شأن إنجازاتي. رأت أنه

ينبغي لي الإذعان في أى نزاع أو شجار، وكان ذلك صعباً جداً علي لأني كنت أعتقد في العادة أنني على حق. لكن وبحسب ما تسعفني به ذاكرتي، لا أذكر أنها وقفت بجانبي في نزاع ما.

كما علمتني بوضوح شديد بأني إذا أردت شيئاً، على أن أبذل قصارى جهدي للحصول عليه. وعندما أردت شراء قَلم، طلبت إلي حمل دلاء الماء لسقاية شجيرات الياسمين مقابل سين واحد في اليوم كي أجمع المال اللازم. تعلمت منها أن هذه هي الطريقة المشرفة للحصول على ما أريد. لذلك، لم أشتك عندما تقلص مصروف جيبي من أربعة سينات إلى سينين عقب تقاعد والدي. وعوضاً عن ذلك، بذلت جهدي لأجني مزيداً من المال ببيع البالونات لأصدقائي، وكنت أشتري ثلاثة بالونات بسينين من متجر قريب من منزلي في يوم الجمعة في العادة عندما يتوافر لي الوقت، ثم أبيع البالون الواحد بسين. كان في استطاعتك شراء كثير من ربح سين واحد في تلك الأيام، مثل طبق كامل من الأرز مع الكاري، لكني لم أكن أنفق مالي على نفسي دائماً، ففي بعض الأحيان، كان أحد المتنمرين في صفي يسكن بالقرب من مسكني، وكان يأخذني إلى متجر للحلوى ويرغمني على الإنفاق عليه وإذا رفضت، كان يلكمني، وأنا لم أشأ بالطبع أن أتشاجر معه، إذ كان من الصبية القساة وكان والده شرطياً سابقاً. كما جنيت بعض المال من أداء مزيد من الأعمال المنزلية؛ إذ كانت أمي تربي بعض الدجاج والبط تحت المنزل، وكنت أعينها على إطعامها وإعادتها إلى أقفاصها في المساء كما كنت أحتطب جذوع الباكو، وهي من أشجار المنغروف، لإعداد نار الطهي. وكنت أتقاضى لقاء هذه الأعمال المنزلية سيناً واحداً كأوباه أو كأجرة.

امتلكت أمي قطعة أرض صغيرة وكان أكثر ما فيها شجيرات الياسمين والورود. كنا نجمع زهور الياسمين ونعلقها على سيقان أعشاب جافة مشقوقة بدقة تسمى مينيرونغ، ثم يأتي بائع أزهار هندي ليجمع خيوط الأزهار تلك ويبيعها للفتيات اللاتي كن يضععلها حول جديلات شعورهن، وفي حينا، اشتهرت أمي أيضاً بصناعة السيلاك أو الكحل، كان عملاً مضنياً يقوم على دق الكحل بواسطة هاون من البورسلان وتحويله إلى مسحوق ناعم. وبالإضافة إلى ذلك، كانت تصنع البيداك سجوك بإسقاط طحين الأرز السائل من خلال مخروط مصنوع من ورقة موز على قطعة من الشاش الأبيض، ثم تخزنه عندما يجف على شكل كريات في قوارير. وكانت النساء في تلك الأيام يذبن العجينة المقساة في الماء ويطلين بها وجوههن لتبريد بشرتهن. وكانت أمي تصنع أيضاً منياك أنجين، وهو مرهم مصنوع من زيت جوز الهند يساعد على تخفيف آلام العضلات والكواحل الملتوية.

افترض أننا كنا نعد من أبناء الطبقة الوسطى الفقيرة، لكن والداي لم يبخلا علينا بشئ؛ وإن تقلص مصروفي اليومي من أربع سينات إلى سينين فلأن معاش والدى التقاعدي آل إلى ثلث آخر راتب تقاضاه وكان 270 رينغت ماليزي، أحسست بحبهما لي، مع أن أبي عاش بعيداً عني ولم يحسن التعبير عن عواطفه، وعرفت أن أمي أرادت مني قبل كل شئ أن أكون رجلاً صالحاً مستقيماً. وعلى صعيد المهن، هناك مهنتان لا غير لم تشأ مني الاشتغال بهما، وهما مفتش في جهاز الشرطة، وطبيب وهو الأمر المثير للسخرية؛ قالت إن كلتا المهنتين تعني أنني لن أخلد إلى النوم، لكني عندما أردت الالتحاق بكلية الطب لم تعترض على ذلك.

لم يكن في منزلنا غير سريرين معدنيين فقط، واحد لوالدي والثاني لأي فرد من الأسرة متزوج حديثاً، وكان الباقون ينامون على فرش رقيقة على الأرضية تعلوها ناموسيات معلقة بمسامير مغروزة في القوائم الخشبية. وفي الصباح، ترفع الناموسيات وتسند الفرش إلى الجدار مع الوسادات، وعندما أصبحت رئيساً للوزراء وصرت أزور اليابان كثيراً، سررت لشرح اليابانيين بالتفصيل عاداتهم في النوم على الأرضيات لأنها لم تختلف في شئ عن عاداتي في حداثة سني.

حظيت الأخلاق في منزلنا باهتمام شديد، يأكل الملايويون على سبيل المثال بأصابعهم، لكنهم لا يتناولون الطعام براحات أيديهم ولا يلوثونها وينبغي تناول الطعام باليد اليمني فقط، وتمسك ملاعق سكب الطعام باليد اليسرى كي تبقى مقابضها نظيفة، ربما يبدو ذلك صعباً لكنها ممارسة أتقناها، حتى إني أنزع لحم الربيان (القريدس) والسلاطعين بيدي اليمني فقط، ويزعجني أن أرى الأطفال الملايويين اليوم وهم يأكلون بكلتا اليدين. وفي أسرتي التي أصفها بأنها ملايوية مسلمة ملتزمة، كانت النساء، باستثناء أمي، لا يأكلن إلا بعد أن يفرغ الرجال من طعامهم. وكنا نتناول وجباتنا قعوداً على الأرض ولم نكن نتكلم ونحن نأكل وبعد أن يتناول الرجال طعامهم، حتى صغار الصبية مثلي، ينقل الطعام إلى ناحية المطبخ الذي كان مستواه خفيضاً لتناول شقيقاتي طعامهن.

والدي هو الذي علمني الجلوس إلى المائدة واستعمال الشوكة والملعقة في تناول الطعام، وقد أحضر طاولة خشبية صغيرة ليعلمني ذلك بما أننا كنا نقعد على الأرض في العادة لتناول وجباتنا. لكني لم

أحبذ استعمال الشوكة والملعقة إلى أن جرحت يدي اليمنى وأنا في سن قريب من الثمانية حين كنت أحاول منع أريكة من الوقوع، لكنها وقعت على أصبعي الوسطى الأيمن وشقت طرفه، عندئذ اضطررت إلى استعمال شوكة وملعقة في غالب الأحيان، إلى حد أني بالكاد أتناول طعامي بيدي الآن. ولا ريب أنني أمهر اليوم في نزع لحم الريبان والسلاطعين باستخدام الشوكة والملعقة من أغلبية الناس الذين يستعينون بأصابعهم وأنا أنزع قشور السلاطعين غالباً لزوجتي حاسمه، كما علمت أطفالي الطريقة المثلى لنزع اللحم، أنا أعتبر عادات تناول الطعام على المائدة، الملايوية منها والانكليزية، مقياساً لنشأة المرء، ولذلك أرتعب من رؤية ماليزيين، وحتى دبلوماسيين، يمسكون الشوك بقبضات أيديهم كما لو كانوا يريدون طعن أحدهم.

كما أدت شقيقاتي وأشقائي دوراً في تنشئتي، فأنا الأصغر سناً من بين الأطفال الستة الذين أنجبتهم أمي، ومن الطبيعي أني كنت مدللاً. لكن شقيقاتي الثلاث، رفيه وحابسه وجوهرة، صححن تصرفاتي، وكن يضربن يدي إذا تناولت الطعام بطريقة خاطئة، وعلمنني كيفية التعامل مع الكبار بطريقة لائقة وكذلك أصدقاء الأسرة الذين كانوا موظفين رفيعي المستوى في السلك الحكومي فاتح، وإلى جانب شقيقاتي الثلاث، لدى أخوان غير شقيقان وأخت غير شقيقة أسمها عائشة، وهي الأقرب إلي مع أنها تزوجت وأنا ما أزال صبياً صغيراً وعاشت مع زوجها في منزل بعيد مطل على طريق سيبيرانغ بيراك. وكنت ورفيه كبرى شقيقاتي الأطول قامة من بين أشقائي. وقد رحلت عن ألور ستار للعيش معي في كوالالمبور، وكنت أشعر بسعادة وحنين إلى الماضي دائماً عندما تكون

بقريبي، وقد توفيت في 1 أيلول/ سبتمبر 2009م.

من خلال التواضع الذى علمتني إياه أمي، أورثتني أيضاً قيمتي التسامح والاحترام وعندما أصبحت مساعد رئيس الوزراء ورئيساً للوزراء، لم أنقل أى موظف في فريقي لسوء عمله كما هي الممارسة المتبعة، وسعيت عوضاً عن ذلك لحملهم على فعل ما أتوقعه منهم بكسب ولائهم، وكانوا قادرين عموماً على تطوير أدائهم وتحسينه وصولاً إلى مستوى مرض، ولا يزال عدد من أعضاء فريقي معي يجد عقود من الخدمة. ولدى إيمان راسخ بأنه على عاتق الرئيس تقع مسؤولية الانسجام مع الفريق واستخلاص أفضل ما عنده. لا مفر من ارتكاب الأخطاء، وتغيير الفريق ليس ضمانة بأن الموظفين الجدد سيكونون أفضل، وأنا على دراية نامة بأنه ليس للأشخاص المثاليين وجود. وبقدر ما كنت أستاء من أعضاء فريقي، لابد من أنهم كانوا يستاؤون مني غالباً، لكن توجيهات أسرتي عادت علي بنفع عميم في أثناء مدة شغل منصب مساعد رئيس الوزراء ورئيس الوزراء. فمع أنني لم أوفق تون حسين على بعض سياساته وأفكاره، كان هو الرئيس وكنت أحترمه دائماً.

كما تعلمت من مراقبتي والدي وأنا في حداثة سني تعظيم مفهوم الأسرة، كان والداي قريبين جداً من بعضهما. وقد اعتاد والدي الجلوس على الأرضية في المساء ومد رجليه وإسناد ظهره إلى الركيزة الأساسية لمنزلنا وهو يتحدث إلى أمي. كانت ناحية الركيزة مكانه المفضل، وقد أصبح سطحها أملس على مر السنين من كثرة اتكائه عليها، كان يدخن سجائر مفتوحة الطرفين فيما كانت والدتي تمضغ أوراق التنبول. لم أعرف الموضوعات التى كانا يناقشانها لكنهما كانا رفيقين جيدين

وبدا أنه كان لديها موضوع يناقشانه في أى وقت. ومع أنهما لم يظهرا عواطفهما لبعضهما لأن فعل ذلك لم يكن لائقاً، عرفت أنه جمع بينهما حب كبير.

مع تقدم والدي في السن ومعاناته من قلبه، أعرض عن الذهاب إلى أي مكان، وأعتقد أنه خشي أن يموت وهو بعيد عن المنزل. كنت قد أصبحت طبيب صحة عامة مقيماً في المستشفيات الحكومية حينئذ، لكني حصرت على زيارة والدي كل يوم. وفي النهاية، جاء اليوم الذي رفض فيه تناول الدواء الذي وصف له فضعف جسمه إلى أن فاضت روحه بهدوء في سنة 1962م. لم يعد لدى أمي رغبة في العيش بعد وفاته فانزوت جميعاً، لم تعد تأكل جيداً أو تتحدث كثيراً. وبعد مدة، تمددت على حصيرة على الأرضية فاترة الهمة وقد قبضت رجليها والظاهر أنها لم تكن ترغب في النهوض. وفي النهاية، تجمدت رجليها في تلك الوضعية. وعندما فاضت روحها، لم نستطع تمديدهما. كان لدي عيادة خاصة آنذاك وكنت أتوجه إلى المنزل في كل يوم لأتفقدها بعد أن أعالج آخر مرضاي. حاولت أن أبعث السرور في نفسها، لكن الأمر بدا صعباً ومحبطاً. وبعد ثلاث سنين من وفاة والدي، فارقت والدتي الحياة أيضاً.

لا يمكنني تخيل كيف تكون تنشئة المرء في أسرة تضم أكثر من زوجة، لا ريب أن المرارة في هذا الوضع ستذيب قلب الأسرة، فلا يمكن الزوج أن يعيش حياة هانئة. أقول ذلك لأن مراد، أخي الأكبر من زواج والدي الأول، هو الوحيد من بين أشقائي الذي تزوج بامرأتين، وحقيقة نشأتي في أسرة فيها زوجة واحدة ساعدتني على التزام الصراط القويم، كما

إن خديوي الحاج محمد علي اقترن بزوجة واحدة فقط، وأشعر وحاسمه بأننا في نعمة كوننا جئنا من مثل هذه الخلفية الأسرية.

غالباً ما يستند الناس إلى حجة أن الإسلام ليجيز للرجل الجمع بين أربع زوجات، ولذلك شرط ينجاهله الناس دائماً. قال الله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) (النساء: 3). وفي موضع آخر في السورة ذاتها، يقول الله تعالى: (وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ) (النساء: 129)، والمضمون واضح: يحبذ القرآن الكريم الزواج بامرأة واحدة لا بأربع.

لا شك في أن ظروفاً غير عادية قد تستجد أحياناً، مثل اندلاع حرب، ينتج منها تجاوز عدد الإناث عدد الذكور ولضمان توافر شخص يرعى النساء اللاتي فقدن أزواجهن في الحرب، يباح للرجل المسلم الزواج بأكثر من امرأة واحدة. إن الإسلام ليس مجرد منظومة معتقدات وشعائر، بل إنه يوجه المجتمع في الأنشطة الحياتية اليومية كافة، حتى في نواح مثل مراعاة دقة المواعيد، والنظافة الشخصية وحماية البيئة.

بصياغة طريقتنا في الحياة، يحافظ الإسلام على مجتمع متوازن جيد التنظيم، لكن من دواعي السخرية أن الأشخاص الذين يزعمون أنهم مثقفون دينياً هم الذين يميلون إلى الزواج بأكثر من امرأة واحدة، وعلى العموم، تتألف المجتمعات من أعداد متساوية تقريباً من الرجال والنساء وغالباً ما حاججت بأنه لو تزوج رجل بأكثر من امرأة، فسوف يحرم رجلاً آخر من الزواج، وهذا يخل بصميم توازن المجتمع.

لكني لا أقصد من ذلك القول إن الزواج بامرأة واحدة مثالي فلا

مجال لتلافي الخلافات من الناحية العملية، لكن ينبغي ألا تؤدي إلى شرخ في علاقات الرجل بزوجته؛ وعلى سبيل المثال، أنا دقيق للغاية في مسألة الوقت وفي القصص التى قرأتها وأنا صغير، بدت الدقة في المواعيد خصلة جيدة ولذلك تمسكت بها، لكن حاسمه متأخرة دائماً ولا مفر من بروز شئ يشغلها قبيل خروجنا. في البداية، سبب لنا هذا الفارق احتكاكاً كثيراً، لكني تعلمت بمرور السنين كيفية التكيف مع هذا السلوك، بينما تكيفت مع كثير من سلوكياتي وأنا أمازحها الآن بشأن تأخرها المعتاد وأبذل جهوداً جبارة للعثور على ما تبحث عنه. وأنا أغيظها بتتبعها وهي تتنقل في أرجاء الغرفة، وأكذب وأقول علينا أن نغادر عند الساعة الثامنة مساء، بينما الوقت الذى ينبغي أن نغادر فيه فعلاً متأخر عن ذلك، ولكنها تظل عصية على الإصلاح، وأنا الآن ألازم غرفة ارتداء الملابس إلى أن تتهيأ للمغادرة وقد تعلمت بالطريق الصعبة أنه إذا نزلت السلم أولاً، فلن تظهر. يمكن الاحترام المتبادل والفكاهة الجيدة أن يحافظا على رباط الزوجية كما يظهر هذا المثال الصغير وأنا لا أحلم بالاقتران بزوجة أخرى والتسبب لحاسمه وأولادي بالأسى والألم، فكي يعيش المرء سعيداً، يتعين عليه تعلم كيفية التوصل إلى تسويات برحابة صدر.

تعلمت من والدتي أيضاً أهمية الأسرة الكبيرة؛ إذ كنا شديدي الالتصاق بأقاربنا، حتى أقاربنا في النسب، ومن ذلك أن والدة أمي عاشت معنا إلى أن وافتها المنية. كان اسمها حواء، وعندما ولدت كان لون شعرها قد استحال رمادياً وأكثر ما يذكرني بها أنها اعتادت وضع مالها في علبة سجائر مستديرة، وفي المساء، تجعل من العلبة وسادة

لتنام عليها. ومؤخراً، شاهدت برنامجاً تلفزيونياً قرر فيه زوجان ملايويان وضع والدهم المسن الذى أصيب بسكتة في دار للعجزة فكانت هذه فكرة غريبة عني؛ ففي الثقافة الملايوية، أنت ترعى أقرباءك المسنين وتوقرهم، ولا ترسلهم إلى مأوى يموتون فيه وسط غرباء وأنا مرتعب من التغير الذى طرأ على نظام القيم الملايوي وأبكي على أفول عادة غرس القيم الجيدة من النوع الذي غرسه في والداي.

على أن الروابط الأسرية والمنصب الرفيع ليست توليفه مريحة دائماً، فبعد أن أصبحت رئيساً للوزراء، لم يفهم عدد من أفراد أسرتي الموسعة أنني لا أستطيع استخدام سلطتي في الحصول على ما أريده (أو يريدونه)؛ توقع بعضهم أن أحابيهم في العقود والتراخيص وما شابه ذلك فكانوا يأتون إلى منزلي مسلحين بمغلفاتهم البنية التي تحتوى على كافة أنواع العروض، لكن جل ما كان في استطاعتي فعله هو أداء دور رجل بريد وإيصال هذه المغلفات إلى المسؤولين المعنيين وربما كتبت على المغلقات في بعض الأحيان «أرجو النظر» يقول بعض إنها عبارة كافية للتأثير في المسؤولين وتقديم المطلوب، لكني أعرف أيضاً أن أغلبية أقربائي وأصدقائي لم يحصلوا على شئ، وإذا تلقوا رداً إيجابياً، فلأن عروضهم كانت قوية في نظر المسؤولين المعنيين.

ولا يزال بعض أقربائي الذين فشلوا في الحصول على شئ يقاطعونني، وفي إحدى الحالات، سعى ابن أختي أحمد مصطفي، وهو صحافي، دخول قطاع الأعمال وحاول إقناعي بشراء ما قال إنه طائرة سوخري35-، وقلت له إن أي قرار بالشراء سيعتمد على مدى جودة الطائرة. وعندما استعلمت عن المسألة مستعيناً بأحد الروس، قال إنه

لا يوجد طائرة اسمها سوخري- 35، ولكن هناك سوخري30- التى اشترتها الهند فقط، ولم يتم تصنيع النموذج 35 إلى يومنا هذا. حتى إني سألت الرئيس الروسي فلاديمير بوتن عن هذه الطائرة بما أنني رغبت في تأمين الأفضل لسلاحنا الجوي، وأكد لي أنه ليس لديهم طائرة اسمها سوخري35- ولذلك قررت حكومتنا شراء سوخري30-. شعر مصطفي أنني خذلته شخصياً ولا يزال كذلك إلى اليوم، وهو لا يكلمني، هذه هي مخاطر تولى منصب عام، ويتعين على تحمل استياء أقاربي مني.

عرف أبنائي وجهات نظري فلم يزعجوني، حتى إني لم أسمح لهم بالترشح لمناصب في أمنو أو الترشح للانتخابات، فلدى إيمان راسخ بأنه ليس لأسرتي دور تؤديه في الحكومة وكنت رئيس وزراء الشعب وليس أسرتي. حصل أبنائي في بعض المناسبات على أسهم في شركات وعلى تراخيص لاستيراد سيارات. حصل ميرزان أكبر أبنائي على أسهم لأن منصب مدير في الشركة يجيز له ذلك، وحصل مخزاني، ولدى الثاني، على تراخيص استيراد لأنه يدير مؤسسة قانونية تستورد السيارات وتبيعها لكن هناك أشخاص كثيرون حصلوا على تراخيص استيراد بقصد بيعها لا لاستيراد سيارات من خلال مؤسسة تجارية حقيقية.

أحسست بعد تقاعدي أن حرمان أبنائي من الاضطلاع بدور في السياسة لم يعد منصفاً إذا كانت تلك مشيئتهم. لم ينتفع أبنائي مباشرة من السنين التى قضيتها رئيساً للوزراء، ومع أنه ليس في يدي حيلة عندما يربط بعض بينهم وبين اسمي، فقد بنى أبنائي حياتهم ومستقبلهم

بأيديهم.

وكما تلقيت المبادئ الأخلاقية من والدي ووالدتي، تلقى أبنائي التوجيه الأخلاقي مني، أو هذا رجاني. ومن بين جميع الدروس التى أمل أنهم تعلموها، أهم درس هو عدم إساءة استخدامهم لمناصبهم. وفي سياق الحديث عن أسرتي، أنصبت أغلبية التركيز العام على ميرزان لبيعه شركته للشركة الماليزية للنقل الدولي التابعة لشركة بتروناس التى تمتلكها الحكومة. لكن أبنائي لم يتكلوا علي في حل مشكلاتهم، وقد عالج ميرزان مشكلته بنفسه كما سأحكي القصة في فصل لاحق.

إن رؤيتي الخاصة بماليزيا، والسياسات التى وضعتها إدارتي كانت للجميع لا لنخبة تتمتع بصلات سياسية أو دائرة صغيرة مؤلفة من أسرتي وأصدقائي. حتى إني لم أمنح أياً من أبنائي فلساً واحداً لتكوين رأسماله، وكل ما أعطيتهم إياه هو التعليم الجيد، وفرصة للتطور ولبناء أنفسهم في هذه الحياة. لم يطلبوا مني صنيعاً بل لم يحدثوني عن الأعمال التجارية التى يزاولونها، كما إننا لم نكن نتباحث في القضايا المهنية أو السياسية والفكرة التى فهمها الجميع بوضوح تام دائماً هي أنني مشغول بإدارة البلاد وان مشكلاتهم تخصهم وحدهم.

الحقيقة هي أنني لم أعد أنتمي إلى أسرتي منذ أن أصبحت رئيساً للوزراء. قبل أبنائي بأنه ليس في استطاعتي، كوني رئيساً للوزراء، تمضية الوقت معهم أو إشغال نفسي كثيراً في مشاكلهم والأمر نفسه انطبق على أمهم أيضاً، فلم تكن حاسمه تشتكى إذا لم أعد إلى المنزل، أو إذا عدت في وقت متأخر، أو إذا لم أمنح أسرتي أو منزلي الاهتمام الكافي، بل كفتني هذين الهمين الأخيرين. فهمت وفهم أبناؤها أن في

وسعهم الرجوع إلى أمهم وليس إلي طلباً للمساعدة عندما يواجهون مشكلات.

لم أسئ استعمال السلطة التى كانت في يدي، كما لم أشا أن يسيئوا استعمال صلتهم بي، وهذا ما كنت أقوله لهم دائماً، وهم عرفوا ما عنيت قوله. لقد كبروا وبلغوا مرحلة النضج وأنا رئيس للوزراء. وحتى عندما التحقوا بالجامعات، لم أطلب منحاً دراسية من الحكومة. وعلي أن أشير إلى أن ميرزان حصل على منحة حين لم أكن في الحكومة، وحين طردت من أمنو وقبل وقت طويل من تتبوئي منصباً وزارياً. حصل ميرزان على منحة من «مارا» لمؤهلاته الخاصة. كان من بين حفنه من الطلاب الملايويين الذين اختيروا للالتحاق بمدارس خاصة في المملكة المتحدة للتعرف إلى ثقافة مختلفة.

بالنسبة إلى القيم الأخرى، مثل الثبات ودقة المواعيد والجدارة بالاعتماد، أقول لهم إنه لا يجدر بهم التصرف مثل أبناء الأثرياء. وعندما كنت أحدثهم عن أيامي في المدرسة، وعن ذهابي إليها مشياً على الأقدام وما شابه ذلك، كانوا يشعرون بالسأم. ربما سيقرؤون هذه الصفحات، ولا سيما استحضاري ذكريات والدي وطفولتي، ويجدون فيها ما يثير اهتمامهم. ربما سيتعلمون شيئاً يشرح لهم تصرفات والدهم أو بعض نواحي شخصيته بقدر أكبر من الوضوح، أو ربما يتلمسون رؤية يمررونها بدورهم إلى أبنائهم، فهناك دروس نتعلمها دائماً بشرط أن نمتلك الحكمة التى تساعدنا على استخلاصها.

# أنا ملايوي وافتخر بذلك

**يقول محمد مهاتير عن أصله:**

أعلم حق العلم أن أصلي الإثني موضوع كثير من المناقشات الحامية؛ إذ يزعم بعض أن والدي ملايوي وأنه كان يتقن اللغة التأميلية والملايوية. حتى إن بعضهم ذكر في كتاباته أنه هندوسي اعتنق الإسلام ليتسنى له الزواج بأمي، ويقول آخرون إنهم اطلعوا على مستندات تشير بوضوح إلى إثنيتي. أنا أقر بأن في شيئاً هندياً، وبعبارة أدق، أن الدماء الجنوب آسيوية تجري في عروقي، لكني لا أعرف ذلك الجزء من شبه القارة الهندية الذى تحدر منه أجدادي. فلم يكن الملايويون يتتبعون أنسابهم في الماضي، مع أن أغلبية الذين تجري في عروقهم دماء عربية يرجعون أصولهم إلى اليمن ويعرفون الأسر التي ينتمون إليها.

سيرى بعض الأشخاص في هذا الفصل نزعة عنصرية في أسوأ الأحوال، ونرجسية في أحسنها، لكن ليس في هذا الفصل شئ من الصفتين، أنا ملايوي وأفتخر بذلك. وهناك أسباب كثيرة تدفعني إلى قول ذلك بهذه القوة والجرأة؛ فالأشخاص الذين يقولون إن الشعوب لا تعبأ بإثنية قادتها أو جنسهم إنما يخدعون أنفسهم. ففي الولايات المتحدة، لم تظهر امرأة أو أفريقي أمريكي كمرشح جاد في الوصول إلى الرئاسة إلا في الانتخابات الرئاسية الأمريكية لسنة 2008م. وإلى يومنا هذا، لم يرأس الولايات المتحدة رئيس كاثوليكي سوى جون أف. كيندي. والأمر لا يختلف عن ذلك في بريطانيا، فالبارونة الحديدية

مغريت تاتشر تنتمى إلى أسرة إنكليزية عريقة على نحو مميز، ولو استثنينا بنيامين ديزرائيلي الذى نبذ اليهودية، لم تعرف بريطانيا رئيس حكومة أو رئيساً للوزراء ليس أبيض البشرة أو مسيحياً.

هناك فوارق دقيقة في الديمقراطيات المتعددة الأعراق لا يمكن الدول المتجانسة إثنيا تخيلها. إننا نجد في الأوصاف العرقية سمة الحط من قدر الناس؛ ففي ماليزيا، ينظر إلى الصينيين على العموم بأنهم يحبون جمع المال، وإلى الهنود بأنهم ثملون عنيفون، ويقال إن الملايويين، وهم العرق الذى يشكل الأغلبية، كسالي ويفتقرون إلى المقدرة الفكرية. ستبقى الصور النمطية دائماً، حتى في أكثر المجتمعات رقياً وعلماً، لكن القائد الجيد لا يتحاشى الطعن فيها؛ فما من مرة ارتكبت فيها غلطة أو اتخذت قراراً غير شعبي وأنا رئيس للوزراء إلا ووصمني الناس على الفور بوصمة «الملايوي الأبله». لكن عندما كنت أتخذ قرارات صائبة، وهي القرارات التى جلبت التقدم والازدهار إلى البلاد، يعزى ذلك إلى دمي الهندي. أردت إثبات العكس، وهو أن الملايويين أقدر على التفكير والتطوير والقيادة.

ما من ملايوي في ماليزيا إلا وفيه عرق غير ملايوي، لكن هذه الحقيقة لا تجعلهم ملايويين من الدرجة الثانية. ويبدو أننا نصنف أنفسنا بطرق محيرة إلى حد يجعل إدارة بلدنا المتعدد الثقافات أمراً بالغ الصعوبة، والتصنيفات العرقية تؤثر كثيراً في القبول بقيادة المرء وقراراته أو رفضها.

لطالما عاش الملايويون في جزيرتهم عند مفارق الطرق بين الشرق والغرب، ولذلك تزاوجوا مع الآخرين وأصبحوا خليطاً من الأجناس قبل

أغلبية الشعوب الأخرى. أغلبية تلك الزيجات المختلطة كانت مع الهنود ومع العرب وفي مرحلة معينة، كانت ذراري هذه الزيجات تصنف على وجه التحقير غالباً بـ«الملايويين ذوي الأصول الهندية» أو بـ«الملايويين ذوي الأصول العربية». واليوم، بطل استعمال هذه التسميات، وهذا يعني أن كل تصنيف أفرز صوره النمطية الخاصة وبعض هذه الصور سلبي.

واليوم، لم يعد كون المرء ملايوياً مسألة نسب في ماليزيا، أو مسألة تاريخ للزيجات المختلطة لأسرة المرء، والتى أفرزت مصطلح «الدم» الشعبي، وإن «الانتماء الملايوي» تركيبة قانونية؛ بمعنى أن المرء لا يكون ملايوياً ما لم تتحقق فيه شروط قانونية معينة. من الناحية الدستورية، الملايوي شخص يتكلم اللغة الملايوية بوصفها لغته الأصلية، ويمارس العادات الملايوية ويدين بالإسلام، كل فرد يفي بهذه المتطلبات فهو ملايوي، وجميع هؤلاء الشخاص مواطنون تلقائياً ويتمتعون بحقوق في الدولة، والمواطنون من أصل ملايوي يتمتعون بحقوق معينة تنسجم وهذه الشخصية القانونية، والآخرون أيضاً يصبحون مواطنين ماليزيين بموجب الدستور والقانون، لكن الأساس الرسمي أو التقني لمواطنيتهم مختلفة في هذا الوقت على الأقل. وفي النهاية، كل من ولد في ماليزيا ويدين لها بالولاء من دون غيرها، سيصبح، كما نأمل ونخطط، فرداً من أفراد الشعب والأمة حاملاً اسم بانغسا ماليزيا.

وإلى أن نصل إلى هذه المرحلة، ستظل العلاقات العرقية في ماليزيا موضوعاً مثار اهتمام وخلاف دائم. إننا نتهم غالباً بالشوفينية (المغالاة بالوطنية)، والمادة الدستورية التى تعرف «الملايوي» تعتبر تفريقية وإقصائية أحياناً، وتعتبر أيضاً مصيدة لاستدراج الغافل إلى الانضمام

إلى طبقاتنا العرقية. والحقيقة أنه أريد منها تغيير منحي النزعة العرقية بوضع الملايويين كافة، أياً يكن ميراثهم الإثني، على قدم المساواة مع بعضهم. وأحسب أن هذه المقاربة نجحت، وإن كانت ولاية جوهور لم توسع على نحو يدعو إلى الاستغراب حق تملك المحميات الملايوية ليشمل المواطنين من أصل عربي.

أضحى هذا التعريف القانوني ضرورياً عندما زعم أشخاص ليس لديهم خصائص أو صلات ملايوية أنهم ملايويون ليتمتعوا بحقوق ملايوية معينة مثل الحق في تملك المحميات. حصل ذلك عندما كانت الولايات الملايوية محميات بريطانية، لكن عندما اقترح الاتحاد الملايوي في سنة 1946م، أراد البريطانيون منح أبناء المهاجرين الهنود والصينيين صفة المواطنة ذاتها التى يتمتع بها الملايويون الأصليون. ومن هنا ازدادت أهمية تعريف الملايوي.

لطالما وفيت وأسرتي بتلك المعايير الرسمية، لكني لست ملايوياً على الورق فحسب، فأنا ملايوي بالشعور والروح. وأنا أربط نفسي بالمطلق بكل ما يتصل بالملايويين ومشاكلهم، وبماضيهم وحاضرهم، وبإنجازاتهم وإخفاقاتهم. أنا لا أقوم بذلك بدافع عاطفي أو من دون قراءة نقدية، ولكن أقوم بذلك بشمولية وتفكير عميق. وقد انتقدت الملايويين في عدد من المناسبات لاعتمادهم الطرق السهلة، وانعدام رغبتهم عموماً في تطوير أنفسهم وميلهم إلى الاتكال على الآخرين. وقد واجهت الأوهام المسلية التى يلجؤون إليها عندما يتملكهم خوف من التحديات التى يواجهونها كأفرياد وكشعب. حتى إن لي كتباً عن هذا الموضوع، ولطالما كانت لدى أسبابي للتعبير عن خيبة أملي بشكل

متكرر. وغالباً ما كان إحباطي يثير غضبهم، لكن انتقاداتي نابعة من رؤية استراتيجية أيضاً، أردت منها استفزاز الملايوي العادي ليطور نفسه، ويقف متأهباً مطمئناً ومقتدراً، عوضاً عن الاتكاء على العكازات مثل برامج رفع المظالم. وما زلت أعتقد، كما كنت عندما طرحت هذا التحدي، بأنه يلزم إحداث تغيير في نظام القيم الملايوي؛ فليس فلي استطاعة أحد إنكار الدور الذي أداء الملايويون في الوصول بماليزيا إلى ما هي عليه اليوم بسبب سجيتهم الطيبة والكريمة. وأياً يكن مستوى افتقارهم إلى الخبرة والمهارة، أحسب أن أهم نقاط قوتهم هي رغبتهم وقدرتهم على العمل مع الآخرين.

كانت قدرتهم على القبول بالآخرين عظيمة إلى حد أنهم أصبحوا أو كادوا أن يتحولوا إلى أقلية في بلدهم في أواخر عشرينيات ومطلع ثلاثينيات القرن الماضي. ولولا حادثة تاريخية أوقفت حركة الهجرة إلى البلاد، بل حملت عدداً من الأجانب الذين أقاموا بالبلاد مدة طويلة على العودة إلى الهند والصين، وأعني الركود الكبير في ثلاثينيات القرن الماض، وربما كان الملايويون سيفقدون ملايا إلى الأبد. وبفعل أحداث سأتطرق إليها في مواضع أخرى من هذا الكتاب، تغير الوضع كلياً بحلول أواخر أربعينيات القرن الماضي، فالحرب لطخت بالعار سمعة البريطانيين وزعمهم حق حكم البلاد وأضاءت شعلة جديدة شحذت عزيمة الملايويين. وعندما عاد البريطانيون بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، سعوا إلى فرض الاتحاد الملايوي الذي لا تقر شروط المواطنة فيه بأن الملايويين هم الشعب الذى سكن أرض ملايا على مر التاريخ. وأدى ذلك إلى ظهور قوة جديدة في المشهد السياسي لم يقدر أحد على

إنكارها- عملاق نائم هو القومية الملايوية، بشخص المنظمة الملايوية الوطنية المتحدة- أمنوا.

رضي ملايويو شبه الجزيرة عن طيب نفس بوفود المهاجرين غير الملايويين وبمطالبهم مدة طويلة. واليوم، وبعد نحو 450 سنة من الاستعمار، رفض الملايويون ذلك الواقع لكن ليس بدافع الأنانية، فبعد أن ضمنوا الاعتراف بمكانتهم التاريخية، أثبتوا قدرتهم على العمل مع الآخرين على بناء أمة مزدهرة ومتنامية في أقل من 50 سنة. ربما يتميز غيرهم بمواهب خاصة في التجارة والمشاريع المهنية، لكننا أظهرنا نحن الملايويين استعدادنا الفطري للانسجام الاجتماعي والإدارة العامة، وكان ذلك أساس نجاح دولتنا.

عانت بلاد كثيرة خضعت للاستعمار الأوروبي الإثنى صراعات تحرر طويلة وعنيفة، لكن الظاهر أن الملايويين قبلوا بالاستعمار والهيمنة الأجنبية برباطة جأس. لكن ذلك لم يخل من بعض المقاومة والانتفاضات، ولا سيما في بيراك حيث اغتيل الحاكم البريطاني جاي دبليو دبليو بيرش في باسير سالاك على نهر بيراك. وفي ملقا، حارب الرئيس الإقليمي داتوك نانينغ البريطانيين لفرضهم ضريبة على مقاطعته. وفي باهانغ وترينغانو، اندلعت ثورات محدودة قادها رؤساء المناطق، وي ولاية كلانتان، قاد توك جانغوت الكبير، وهو زعيم قروي من باسير بوتيه، تمرداً على البريطانيين في سنة 1915م ولما يكد يمضى وقت طويل على سيطرتهم على الولاية وعلى مقدراتها المالية. تصيد البريطانيون القادة في جميع هذه الحالات وقتلوا بعضهم. وفي سراواك، اغتال موالون لبروكي من الملايويين الحاكم البريطاني.

على أن هذه المقاومة، على بطولتها، كانت متقطعة ومحلية دائماً. فلم ينظم الملايويون كفاحاً منسقاً ومتواصلاً لاستعادة استقلالهم من الإمبرياليين بالقوة، بل بدوا دائماً مستعدين للتعاون مع أسيادهم المستعمرين برحابة صدر، إلى أن سعى البريطانيون لانتزاع وطنهم ملايا من خلال اقتراح الاتحاد الملايوي، تعهد الملايويون إلى ذلك الحين بالولاء لحكام الولايات التى يقيمون فيها. ومع أنهم عرفوا في مرحلة ما أنهم جميعاً من طينة أو من عرق واحد، لم يعمل الملايويون سكان شبه الجزيرة كمجموعة واحدة؛ وكان ولاؤهم لبعضهم ينتهي عند حدود ولاياتهم؛ ولذلك سقطت الولايات الملايوية الواحدة تلو الأخرى في يد البريطانيين. نحن نتكلم اليوم عن الأمم كما لو أنها وجدت بشكل طبيعي من قديم الزمان، إلا أن عدداً من الأمم العظيمة بدأت كإمارات صغيرة ليست بعيدة الشبه عن الولايات الملايوية، وعلى سبيل المثال، كانت اليابان والصين وإيطاليا وألمانيا مقسمة إلى دويلات وصهر باقي الدويلات بالقوة في بوتقة واحدة. وفي هذا الصدد، يرى كثيرون في غوزيبي غاريبالدي (Giuseppe Garibaldi) الذى بنى أمة إيطالية موحدة مثالاً بارزاً.

إن مرونة الملايويين وقابليتهم للتكيف سمحت لهم بالازدهار في عالم شهد بكل أسف زوال أعداد كثيرة من الشعوب الأصلية. فالشعوب المحلية في دول الأمريكيتين والكاريبي، وسكان استراليا الأصليون، والمايوريس في نيوزيلندا كادت تختفي تحت وطأة هجمات الأوروبيين الإثنيين؛ إذ صودرت أراضيهم وأصبحت بلاداً أوروبية إثنية. لكن الملايويين الضعفاء والكسالى والحمقي بحسب رأى كثير من النقاد، بقوا

موجودين على الرغم من الاستعمار والغازات وتهديدات الغزاة بفضل قوة لحملهم وخضوعهم الطويل كتابعين إقطاعيين للأمم الآسيوية القوية. وبفضل الصمود على مر ذلك التاريخ الطويل من التعامل مع قوى أقوى منا، استطعنا نحن الملايويين البروز في الوقت المناسب كشعب قادر على تقرير مصيره بنفسه. وفي هذه الناحية، نحن محل إعجاب صادق في نظر عدد من الدول المستقلة حديثاً، كما إن البوسنيين والعرب اليوم ينظرون إلى الملايويين بعين الاحترام، وينشدون توجيهاتهم غالباً في مجال إدارة التغيير في بلدانهم وتطويرها.

ومن بين سائر الملايويين الإثنيين في المنطقة، ينظر اليوم إلى الملايويين في هذا البلد بأنهم الأكثر نجاحاً، استطاعوا إدارة وتطوير دولة متعددة الأعراق تعاني مشكلات وتحديات متأصلة. إن الأعراق المتعددة في ماليزيا مقسمة بحسب الدين والثقافة واللغة والتباينات في تطورها وثروتها وهذا هو الأهم، لكن الملايويين تطوروا وحققوا نجاحات عظيمة. ومع أنه مضى على الاستقلال خمسون سنة ولا يزال الملايويون يشكلون عامة الطبقة الأفقر في المجتمع، فقد طرأت تطورات كبيرة في البلاد.

وعلى سبيل المثال، قلت أعداد الذين يعيشون في فقر مدقع مقارنة بالأزمنة الماضية، وباتت الوسائل والفرص متاحة للفقراء لتحسين أوضاعهم. وأصبح بعض الملايويين منظمي مشاريع وطنية بارزة وقادة شركات، وقد تحقق ذلك بفضل سياسات حكيمة لا من خلال إشباع رغبة المرء في حيازة ثروات الآخرين لإثراء نفسه. لقد تحققت التنمية الاقتصادية الملايوية بطرق أخلاقية وقانونية لا بطرق عديمة الرحمة.

لم يكن تحقيق ذلك ممكناً لولا استتباب السلم الأهلي والاستقرار الاجتماعي، وبفضل المهارات السياسية والإدارية الملايوية بدرجة كبيرة، أمكنت المحافظة على البلاد آمنة ومستقرة وسرعت تطورها. ونادراً ما يتساءل الناس عن جذور هذه الموهبة التى يظهرها الملايويون على نحو لافت في السلك الحكومي على أن بعض الذين لا يسلمون بهذه الموهبة يشيرون إلى أنها تركة بريطانية- نتيجة للنموذج والدروس التى تعلمناها من سلطات الاستعمار في مجال الإدارة العامة، وأنا أرى أن لذلك سبباً أقوى، إنه تقليد سياسي يرجع إلى السلطات الملايوية السابقة على الاستعمار.

هناك اليوم حضور ملايوي في كل مكان في العالم، وحتى في الفضاء مؤخراً. وقد وسع الملايويون مهاراتهم إلى حد أنهم باتوا ينقبون عن النفط وينتجونه، ويشقون الطرقات ويبنون منشآت توليد الطاقة، ويديرون شركات وصناعات متعددة الجنسيات، بما في ذلك التى تتطلب مهارات هندسية معقدة وفيها محتوى عالي التقنية في أنحاء العالم كافة. وهم يسافرون إلى الخارج ويحظون بالاعتراف كمتعاقدين مقتدرين، ومتعهدي بناء وتجار. وباتت الشركات الأجنبية الآن توظف مدراء تنفيذيين ملايويين لشغل مناصب رفيعة.

تسلق الملايويون جبل إفرست، وخاضوا بحار العالم منفردين، وقطعوا القنال الإنكليزية سباحة، وعبروا قارة أنتركتيكا منفردين مشياً وسبحوا في الفضاء. وبالنظر إلى كون أرضنا حارة ورطبة، فإن أثر هذه الإنجازات مضاعف؛ أى إنه بعد انتهاز الفرصة واتخاذ الموقف الصحيح، أثبت الملايويون جدارتهم المرة تلو المرة. إن أساس هذه

الإنجازات، والحس الملايوي الجديد بالثقة بالنفس، راجع سياساتنا العملية الوطنية الجازمة التى طبقناها منذ سنة 1971م، وهي السياسات التى أدائها بانتظام عدد من الأوروبيين الإثنيين، سواء أكانوا رجال دولة أم صحافيين. ولا يزال هؤلاء يذمونني حتى بعد سنين من تقاعدي لتطبيقي هذه البرامج، فليكن، لكن إنجازاتهم لا ينكرها كل من يتحلى بالتفكير الواضح والعقل المنصف.

يظهر أن التاريخ ينسى بسهولة، فإلى جانب جالية ضخمة من المهاجرين الصينيين والهنود الذين ترك أمر التعامل معهم للملايويين، غادر البريطانيون البلاد وهي في حال فقر شديد. كان دخل الفرد في البلاد في سنة 1957م، وهي سنة الاستقلال، أدنى من 350 دولاراً أمريكياً، وكان أكثر من 70 في المئة من السكان يعيشون تحت خط الفقر في عهد الاستعمار البريطاني. وكانت نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة متدنية للغاية ولم يتجاوز عدد حاملي الشهادات الجامعية 100 شخص في مجمل أنحاء البلاد. أريد من الطرقات التى شقها البريطانيون خدمة المناطق المنتجة للمطاط ومناجم القصدير التى يمتلكها البريطانيون فقط، وتعمدوا إبقاء الموانئ الملايوية متخلفة لحماية ميناء الاستعمار البريطاني في سنغافورة. كما دمرت ملقا وبطئ نمو بينانغ لدعم التنمية الاقتصادية في سنغافورة، ولا شك في أنها تحتل موقعاً استراتيجياً عند رأش شبه الجزيرة وسط 13.000 جزيرة خلابة، لكن وكما تظهر تنمية الموانئ في شبه الجزيرة بعد الاستقلال، لم يكن هناك حاجة إلى أن يكون التركيز على تنمية ميناء سنغافورة شاملاً. وكان في مقدور الموانئ الملايوية دعم بعض الأنشطة التجارية

في أيام الاستعمار وعوضاً عن ذلك، جعلت ملايا دولة معتمدة بالكامل على صادرات المطاط والقصدير عبر ميناء سنغافورة. كما إن جل سيل العملات الأجنبية التى جنتها هذه الصناعات صب في بريطانيا. ولم تتطرق ما تسمى اصحافة الحرة لدى الأوروبيين الإثنيين إلى هذه الحقائق المجرد الثابتة.

وفي تناقض صارخ مع تلك الحال، زاد دخل الفرد في ماليزيا اليوم على 7.000 دولار أمريكي (أو ما يوازى 14.000 دولار بحسب تعادل القوة الشرائية). وتدنت نسبة السكان الذين يعيشون تحت خط الفقر عن 5 في المئة (منهم 1 في المئة فقط يعيشون في فقر مدقع). وتجاوزت نسبة المتعلمين 90 في المئة وهناك مئات الآلاف من خريجي الجامعات، وهناك شبكة من الطرق السريعة الحديثة والطرق المسفلتة التى تصل إلى أقاصي القرى النائية وتربط بين أجزاء البلاد كافة.

الحق يقال إن بذور نجاحاتنا كانت موجودة أصلاً، ذلك أن توليفة من مهارات المحليين التجارية وقدرتهم على التسامح جعلت شبه جزيرة ملايا مكاناً تجارياً ناجحاً وشعبياً قبل عدة مئات من السنين، وتقع شبه الجزيرة عند مفترق طرق بين الصين واليابان في الشرق، وبين الهند وشبه الجزيرة العربية وأوروبا في الغرب. أبحر التجار من هذه البلدان والمناطق كافة على مدى قرون ميممين شبه الجزيرة لممارسة أعمالهم التجارية. وحظ كثير منهم رحاله في ملقا واستقر بعضهم فيها، وتزوج بفتيات من السكان المحليين. لم تكن النساء يصطحبن التجار في تلك الأيام، فينبغي ألا نفاجأ لكون الدماء التى تجرى في عروق معظم الملايويين خليطاً من أصول صينية وهندية وعربية وحتى أوروبية، لكن

الدين والقيم الثقافية والتقاليد التى يتبناها هؤلاء الناس كافة ملايوية على نحو مميز.

الأوروبيون هم الذين أثاروا هوساً بنقاوة الدم المزعومة وليس الملايويين، لقد أظهروا ذلك الهوس المميز في الفصل العرقي الذى فرضوه على المجتمعات الاستعمارية التى حكموها وعلى أنفسهم في ديارهم الأوروبية، إلا أنه يمكن تكوين عرق أو جماعة من الناس على أساس غير الدم؛ إذ يمكن تكوينها على أساس الثقافة والتاريخ، كما هي الحال مع الهوية الملايوية. كان تكوين هذه الجماعات، على أساس الأصول العرقية باستخدام الدم معياراً، أمراً ممكناً في الأزمنة السابقة لقدرة الناس على الانعزال، لكن الناس اليوم كثيرو التنقل، وبالتالي يصعب جعل الإثنية المعيار الوحيد للعرق، حتى إن في عروق الإنكليز المعزولين في جزيرتهم دماء يهودية وأوروبية وهو ما تعكسه أسماؤهم، وهذا الخليط مرشح للزيادة بحيث لن تعود إثنية المرء أو هويته الرسمية العامة مؤشراً دقيقاً على عرقه.

وعلى سبيل المثال، فإن مواطناً هندياً من حيث الإثنية في المملكة المتحدة يعتبر اليوم بريطانياً وليس إنكليزياً، لكن إلى متى يمكن أن يستمر هذا الوضع فيما لا يزال الرجال الإنكليز ينجبون أطفالاً من زوجات هنديات أو أفريقيات أو العكس؟ وربما يلزم وضع تعريف قانوني في يوم من الأيام لتعريف الإنكليزي، وربما لن يكون شبيهاً بالإنكليز حينئذ تماماً كما أن الملايويين اليوم لا يحملون غالباً ملامح الملايويين الأصليين، والدم المختلط أو سلالته لا تجعل المرء إنكليزياً أو ملايوياً من الدرجة الثانية.

ينتمى الملايويون إلى الشعوب السمراء اللون التى تسكن جميع أنحاء جنوب آسيا تقريباً، بما في ذلك الأرخبيل الشاسع الذى عرف ذات يوم باسم أرخبيل ملايا. وهم ينقسمون اليوم إلى ثلاثة فروع رئيسة متحدرة من الشعب الملايوي إثنيا، وأعني الإندونيسيين، والفيليبينيين، وملايويي شبه الجزيرة وولايتي صباح وسراواك البورنيويتين الشماليتين، فضلاً عن بروناي، وهذا التقسيم سياسي محض تعود جذوره إلى تاريخ الاستعمار الأوروبي للمنطقة، ولا يستند بحال إلى أى فوارق إثنية أصيلة. وعلى سبيل المثال، يقول الفيليبينيون بملء أفواههم إن بطلهم القومي خوسيه يرزال (Jose Rizat) ملايوي.

إن ملايويي ماليزيا سمر البشرة، متوسطو القامة متناسقو الهيئة، أنوفهم مسطحة وواسعة غالباً، وعيونهم سوداء مفتوحة، وشعورهم سوداء ناعمة أو متموجة، وهم ليسوا كثيفي الشعر غالباً، ولون بشرة نسائهم فاتح عادة، وفتياتهم جميلات على نحو مذهل إلى حد أن المرء، ولاسيما إذا كان ملايوياً مثلى، يساوره حس عميق بالاعتزاز عندما يراهم. كما إن الأمر يتعدى وسامة المظهر؛ إذ إن الملايويين شعب مثقف، ومهذب جداً وملتزم بالشكليات ولديه حس مرهف بالفنون. وهم شديد والتمسك بتقاليدهم، وإن كان معظمها غير مكتوب، وهم يعيشون، قبل كل شئ، بحسب الأمثال والأقوال المأثورة التى يتعلمها كل طفل ملايوي وتوفر بمجموعها دليلاً غير رسمي لأصول التعاملات الاجتماعية وأساساً وطيداً للبداهة والحكمة السياسة. والتمسك بالتقاليد أو العادات المحفوظة في هذه الأمثال والأقوال علامة على التنشئة الحسنة.

يشيع في ملايا آلاف من هذه الأقوال والأمثال، وربما فاقت ما هو

متداول في أي لغة أخرى ويبدو بالفعل أنها تؤثر في مواقف الملايويين وتصوغ سلوكهم حتى في يومنا هذاز ومن دواعي الأسف أن هذه الأقوال متناقضة غالباً؛ ففي أي وضع، يمكن الملايوي أن يجد في العادة قولاً مأثوراً يملي عليه تصرفه أو يسوغ له ما ينوي فعله، لكن في وسعه كذلك استقاء الحكمة من قول مأثور آخر يجيز له فعل نقيض الفعل الأول تماماً. لذلك، يمتع الملايوي بالولاء لأميره أو حاكمه بحسب القول المأثور "ينبغي للملايوي ألا يخون أميره"، لكن قولاً آخر يجيز له محاربة حاكمه إذا كان ظالماً، بناء على القول المأثور "الحاكم العادل مطاع، والحاكم الظالم يعصي".

الملايويون أكثر تحملاً بدرجة كبيرة لمظالم حكامهم وزلاتهم من الأعراق الأخرى، وتاريخ ملايا ليس فيه كثير من الثورات وحالات التمرد. ومع أن عدداً من الأسر الحاكمة اختفت غداة الاستقلال، عن طريق العنف أحياناً في الهند وإندونيسيا، وبخاصة في جزيرة سومطرة، فقد حافظت الأسر الحاكمة التسع كلها على وجودها في شبه الجزيرة ويقال إنها تشكل نصف الأسر الملكية الحاكمة في العالم.

يختلف نظام القيم لدى ملايويي شبه الجزيرة بشكل ملحوظ غالباً عن نظم القيم لدى الملايويين الإثنيين الآخرين في الأرخبيل؛ فملايويو شبه الجزيرة أميل إلى الهدوء والتساهل، وهم لا يتميزون بالعنف، ويكرهون الأعمال التى تتطلب جهداً بدنياً وغير مولعين بطبيعتهم بالمنافسات. وبالمقابل، الملايويون الإثنيون الآخرون في الأرخبيل عمال مجتهدون بطبيعتهم وربما يتسمون بالعنف والمنافسة الشديدة أحياناً.

إن نظام الآداب الملايوي معقد ويتآلف من مجموعة دقيقة من

القواعد، وقد نشئت على أن أكون مهذباً، وأن ألزم الصمت وأطلب مشورة شيوخي ورؤسائي. ويتجلى احترام المسنين والألقاب بقوة في استخدام ألفاظ التشريف، وفي طرق أخرى. وفي الحديث الملايوي كثير من ألقاب التشريف التى تخطر ببالي بسهولة، ولا يمكنني بالطبع مخاطبة الناس، وخصوصاً الأمراء من دونها، وأنا ألجأ إلى اللغة الإنكليزية كثيراً لأريح نفسي من عبء التبجيل، وحتى المداهنة، في اللغة الملايوية. كما يتوافر في اللغة الملايوية مفردات كثيرة ومتنوعة لمخاطبة مختلف الأفراد؛ فالتعبير عن قريبك من صديق مختلف تماماً عن التعبير عن قريبك من والدتك أو خالتك.

إن لغة الجسد أكثر أدباً وتلمحياً من اللغة المحكية، وهذا انعكاس شديد الوضوح لنظام الآداب الملايوي، فعندما تمشى وتتخطى شخصاً أو أشخاصاً مسنين، تنحني إلى الأمام قليلاً وتخفض ذراعك اليمنى كما لو أنك تريد منع القدم من أن تلامس من دون قصد الشخص الذى تمشي أمامه، وركل شخص أو لمسه بالقدم عمل في غاية الوقاحة، والإشارة بالقدم إلى أي شخص من المحرمات.

الأجانب لا يستطيعون في العادة استيعاب هذه السلوكيات الدقيقة المتدرجة؛ ففي سنة 1985م، ذكرت مجلة فار إيسترن إيكونوميك رفيو (Far Eastern Economic Review) أن تونكو عبد الرحمن رفض محاولتي تقبيل يده، وفسرت تلك الحادثة بأن تونكو أعرض عني بفظاظة. في آداب المعاشرة الملايوية، يقتل الشخص من المرتبة الدنيا يد من هو أسمى منه مرتبة، وخصوصاً إذا كان من الأشراف مثل تونكو، لكن إذا شعر هذا الشريف بأن الشخص الآخر ذو شأن، فسوف يسحب

يده قبل أن يتسنى لذلك الشخص تقبيلها، وفي ذلك أمارة على حسن التنشئة وعلى الاعتراف بمنزلة الشخص الآخر، وعندما سحب تونكو يده قبل أن يمكنني تقبيلها، كان ذلك اعترافاً منه بأني لست أقل شأناً منه، ولم يكن شخصاً وقحاً كما لم يرد الإغراض عني، وفي الواقع، تحلى بالأدب الرفيع بحسب أصول المعاشرة الملايوية. إن الإشارات الضمنية مبهمة بالنسبة إلى الأشخاص غير القادرين على استعمالها أو الذين يجهلون طرق استعمالها.

وبقدر ما كنت مغالياً في هذه التصرفات، سرعان ما عرفت أنه لا يمكن التعامل مع غير الملايويين الأجانب، وبخاصة الأوروبيون، بطريقة التعامل مع الملايويين لأن الأجانب لا يتفطنون لدقائق قواعد التشريفات الملايوية. ومن ذلك أن المؤلف جوزيف كونراد (Joseph Conrad) ظن أنه عندما يخاطب الملايويون أوروبيا بكلمة تيوان (وتعني: حرفياً "السيد"، فذلك اعتراف من الملايويين بتفوق الأوروبيين. والحقيقة هي أن كونراد ترجم كلمة "تيوان" بأنها "لورد"، ومن هنا صاغ اسم روايته لورد جيم (Laed jim). لم يكن لورد جيم أحد أحد اللوردات الإنكليز كما ظننت قبل قراءة الكتاب، بل كان تيوان جيم أو السيد جيم ببساطة، وهو اللقب الذى خاطبه به الملايويون الذين التقى بهم.

توقع الملايويون على مدى مدة طويلة أن يفهم الناس أن استخدام هذه الألقاب نابع من الأدب وأنه ينبغي عدم اعتبارها مؤشراً على المنزلة الحقيقة. لذلك، يخاطب جميع الصينيين بلقب توكاي، ويخاطب جميع الهنود بلقث آية ويخاطب جميع العرب والأوروبيين بلقب تيوان، أياً تكن مكانتهم الفردية أو الشخصية في المجتمع. لذلك، قررت في مرحلة

مبكرة حصر تصرفاتي الملايوية شديدة التواضع بالأشخاص الملمين تماماً بأصول التشريفات الملايوية، واعتماد تصرفات الأجانب الأكثر صراحة، وبخاصة الأوروبيون، عندما أتعامل معهم. الأوروبيون يتميزون بالصراحة وعدم المواربة، وتوجيه النقد طبيعي في أسلوب حديثهم، ومن هنا يظهر الميل إلى الانتقاص من الآخرين. وهذا انتهاك لحدود التصرف اللائق في العالم الملايوي، ومن دواعي الأسف أن عدداً من الأوروبيين الإثنيين يتصرفون كما لو أنهم أرقى من الآسيويين وأعلم منهم بوجه عام.

يبدو أن آلاف التعليقات التى كتبت عن ماليزيا في المجلات والصحف الأجنبية تظهر قدراً من الثقة المتعالية بأنهم يستطيعون حكم ماليزيا على نحو أفضل من أى ملايوي. وهم يقدمون بلا انقطاع نصائح لم تطلب منهم، ومن دون خجل في الظاهر لأنهم عندما أخلوا ملايا للملايويين في سنة 1957م، كانت دولة فقيرة ومتخلفة، ويبدو لي أنني أنتقيت من بين سائر الناس للقدح المنتظم. أنا لا أضيع وقتى في العادة في تذكيرهم بعيوبهم وسلوكهم السيئ في الماضي وفي الحاضر، لكن يظهر أنهم يغمضون عيونهم ويصمون آذانهم عندما أفسر لهم سبب إعراضي عن نصائحهم، ويرى كثير منهم أنه ينبغي لنا اعتماد ديمقراطية ليبرالية تحاكي ممارساتهم الوطنية الخاصة، ناسين أن تكويننا الاجتماعي والثقافي والديني والإثني والاقتصادي مختلف تماماً عن تكوينهم.

من وجهة نظرهم، نحن نفضل بعناد أن نتمسك بتقاليدنا الثقافية وقواعدنا الأخلاقية الخاصة وممارسة الديمقراطية بطريقة نرى أنها تناسب دولة متعددة الإثنيات ومعرضة لانعدام الاستقرار لا كنظام مفتوح

للجميع على نحو متهور. وعلى الرغم من تأكيداتهم المتكررة وجوب أن نكون أكثر تقبلا للانتقاد، فهم لا يتقبلون برحابة صدر تذكيرنا إياهم بالمذابح التى ارتكبوها لإقامة دول أوروبية جديدة خارج أوروبا، وعندما أثير هذه المسألة، يكيلون لي إداناتهم كيلاً مضاعفاً.

إنهم يدلون مثلاً بملاحظات جارحة بشأن برنامج رفع المظالم الماليزي ويعبرون عن امتعاضهم من إيثارنا الإيجابي الملايويين والسكان المحليين الآخرين على الصينيين والهنود. والظاهر أنهم لا يعون سطحية تحليلهم وانعدام أهليتهم لتوجيه مثل هذه الانتقادات؛ فعندما حكم البريطانيون ملايا، احتفظوا لأنفسهم بحقوق حصرية في الوظائف الإدارية وخصصوا مساحات شاسعة من الغابات لاقتلاع أشجارها لزراعة أشجار المطاط والتنقيب عن القصدير. الواضح أنهم خصصوا لأنفسهم مناطق معزولة لمواطنيهم ونسوا أنهم لم يسمحوا حتى للسلاطين، حكام الولايات الملايوية الذين حكموا البلاد بأسمهم، بدخول أنديتهم الحصرية. كان هناك أساس واحد لهذا التمييز القاسي. مفهوم مزعوم خاطئ بتفوق عرقي أصيل، ولم يتغيروا كثيراً منذ ذلك الحين، ربما انسحبوا من ماليزيا، لكنهم لا يزالون يقدمون نصائح غير مرغوبة وينشرون مفاهيمهم وأفكارهم ونظمهم بالقوة.

التاريخ ليس سوى مجموعة ذكريات، والذاكرة انتقائية، وإن الأشخاص أنفسهم الذين يتسرعون في توبيخنا اليوم ينسون أن المشكلات العرقية التى تعانيها ماليزيا سببها طمعهم في نهب ثروات البلاد من دون تحمل أى مسؤولية جدية في تنميتها الاقتصادية أو رفاهية سكانها. سمحوا لأعداد لا تحصى من الصينيين والهنود بدخول الولايات الملايوية

إلى أن صارت نسبة عدد المهاجرين من سكان شبه الجزيرة أكثر من نسبة الملايويين. ولو أن بريطانيا سمحت بدخول المهاجرين الصينيين والهنود إلى أن تبلغ نسبتهم 40 في المئة من السكان الإنكليز، ماذا كان سيحصل للعمال البريطانيين ولنقاباتهم؟ عندئذ لن تعود بريطانيا بلاد الإنكليز والاسكتلنديين والويلزيين. من دون نظام تمييز، سيشغل الصينيون والهنود المجتهدون والمهرة أرقى المناصب في الحكومة، ويديرون المؤسسات المهنية والمتاجر، وسيعمل المواطنون الأصليون سائقين وبستانيين لدى المهاجرين. لن يسمح البريطانيون بالتأكيد بأن يفد إلى بريطانيا ذلك العدد الكبير من المهاجرين الذين سمحوا لهم بدخول ملايا إبان الحكم البريطاني. إنهم منزعجون حتى في الوقت الحالى من الشريحة السكانية الصغيرة المؤلفة من هنود وصينيين ومواطنين غير أوروبيين آخرين في بلادهم، وفي سجلهم من حوادث الشغب العرقية البشعة أكثر مما في سجلنا.

تزعم حكومتهم أنها ليبرالية وغير عرقية، ويمكن أن تجد بين الفينة والفينة ضابطاً آسيوياً يقوم بأعمال مختلفة، أو عضواً في البرلمان أو رئيساً لبلدية، لكن الواضح أنهم يفرضون قيوداً على هجرة الآسويين؛ إذ يلاقي اليهود والأوروبيون بالترحاب، لكن الآسيويين والأفارقة يخضعون لنظام حصص غير معلن. ولن يكون من حق الأوروبيين الإثنيين انتقاد ماليزيا والملايويين وسياساتنا المتعلقة برفع المظالم إلا بعد أن يشرعوا أبواب الهجرة إلى بلدانهم من دون قيود لمئات الملايين من الصينيين والهنود والأفارقة. وعندما يزيد، بالكاد، عدد جميع المهاجرين فقط، عندئذ سنسمع نبرة غناهم، ونرى هل سيواصلون انتقادنا على ما فعلناه

أم سيفعلون مثله؟

شجع البريكانيون الصينيين على الهجرة والانتقال إلى سنغافورة ليوفروا القاعدة الاقتصادية والقوة العاملة للتجارة وللأنشطة التجارية البريطانية. وبحلول سنة 1963م، شكل الصينيون ثلاثة أرباع عدد سكان سنغافورة البالغ 3.5 مليون نسمة، لكن سنغافورة كانت جزءاً من الولايات الملايوية تاريخياً وجغرافياً، وفي أجزاء أخرى من العالم حيث استولى وافدون أو مهاجرون على أراضي السكان الأصليين، خاض أبناء الأرض حروباً مطولة دموية لاستعادة أرض آبائهم. ونحن نرى دليلاً على ذلك في إيرلندا الشمالية وفلسطين وعدد من المستعمرات الأفريقية، لكن ذلك لم يحصل في سنغافورة؛ إذ غمر المهاجرون الصينيون الملايويين المحليين الذين أمسوا أقلية هامشية في دولة ذات أغلبية صينية. والقبول بسنغافورة في اتحاد ماليزي أثار إمكانية أن تحاول سنغافورة غير الملايوية وشديدة العدوانية الهيمنة على ماليزيا، وهذا ما حاول القيام به بالضبط زعيمها لي كوان يو، الذى أصبح الآن المستشار السياسي للوزارة، خلال المدة القصيرة التى كانت فيها سنغافورة جزءاً من ماليزيا (1963-1965م). وفي النهاية، تعين استبعادها. هذه هي الطريقة الملايوية؛ فعوضاً عن العيش بجفاء، طلب الملايويون من السنغافوريين الرحيل بسلام وبكل بساطة.

تجاهل الأوربيون الإثنيون طريقة الملايويين اللبقة نسبياً في التعامل مع الخلافات العرقية، لكن الأوروبيين لم ينسوا بالتأكيد كيفية تعاملهم مع الأمريكيين الأصليين، ومع الشعوب الكاريبية في دول البحر الكاريبي، ومع السكان الأصليين الاستراليين، ومع الهنود. ينبغي لهم

كذلك تذكر أنه في سبيل تحقيق مفاهيم المساواة المفضلة لديهم في الماضي، قتل الآلاف في الثورتين الفرنسية والروسية ولم يتوقف القتل والأعمال الوحشية عندما انتهت الثورتان. ربما تكون الطريقة الماليزية غير منصفة في نظر بعضهم، لكن من المهم أن نشير إلى أننا لم نزهق أرواحاً ولم نصادر ممتلكات واسعة لتنمية بلدنا وتطويره. وبالمقابل، وسعنا الكعكة الاقتصادية ليتسنى للجميع الحصول على حصص أكبر من حصصهم السابقة، ولتكون الحصة العظمي من نصيب الأقل حظاً، بشرط أن يكونوا مستعدين للاجتهاد في طلبها. والنتيجة جلية أمام أعين الجميع، بلد مستقر يحقق نمواً اقتصادياً مطرداً. وحتى في أثناء الأزمة المالية الآسيوية، لم تشهد ماليزيا حوادث عنف عرقية مثل التي شهدتها الدول المجاورة، ولم تنل ماليزيا مقابل ذلك سوى القليل من ثناء منتقديها الأوروبيين. وعندما يشرحون لي مذاهبهم في العدل والمساواة، أذكر الإمبرياليين بأنهم لم يعاملوا من خضعوا لحكمهم الاستعماري كما لو أنهم مساوون لهم ولم ينصفوهم إلا نادراً، لذلك كراهيتهم لي شديدة، فأنا أوصف بالدكتاتور وإذا ذكر اسمي، فإنهم يتبعونه بتهم المحاباة ويشيرون إلى سجن أحد مساعدي.

إنها السلبيات التى يرون ويتخيلون، وليس إنجازاتنا الإيجابية؛ فالتغير الهائل، والتحول الاجتماعي الكبير والمطرد الذى حول مستعمرة سابقة فقيرة إلى ماليزيا التى نراها اليوم لا يستحق تنويهاً مهذباً. وبالكاد ينبس الكتاب والصحافيون والمسؤولون الأوروبيون الإثنيون بكلمة عن الطاقات المتوافرة للملايويين كسياسيين وإداريين قادرين على تطوير دولة بأسرها. وأى إشارة نادرة إلى هذا الإنجاز نسبقها ملاحظات

جارحة حول مراقبة الصحافة، والحكم الاستبدادي، والتدخل السياسي في النظام القضائي.

يكره الملايويون عموماً تجريح الآخرين، وهم يكتمون شعورهم بالإحباط والغضب من إذلال الأجانب لهم لكنني لا أفعل ذلك، وأنا في هذه الناحية قد لا أكون ملايوياً بالكامل؛ فقد تعلمت من الأجانب الصراحة واستخدمتها في تعاملاتي معهم وأنا لم أعد كثير الخجل، بعكس كثير من الملايويين، من الدفاع عن نفسي وعن مصالحي، وإن شئت قلت أنا لست أكثر تهذيباً من أن أصون كرامتي من الجهل والابتذال. لقد تعلمت طرقهم وعليهم أن يدفعوا ثمن استيعابي الدروس التى علموني إياها جيداً.

يبدو أن مفاهيم التفوق العرقي البريطانية تركت أثرها في جميع المناطق التى حكومها ذات مرة. وأذكر أنني عندما سافرت بمفردي بالطائرة من استراليا إلى فيجي، قعدت في مؤخرة الطائرة بوينغ 747 وسط سكان جزر البحر الجنوبي والاستراليين الهنود، ولم أجد راكباً أبيض واحداً في مؤخرة الطائرة، ويستحيل أن يكون قعود جميع البيض في المقدمة صدفة. لكن في رحلة الإياب، كان توزيع المقاعد مختلفاً تماماً، كنت في صحبة أعضاء في لجنة رابطة دول الكومنولث وفيهم بعض البيض. يصعب بالمثل الظن بأن حجز مقاعدنا في المقدمة كان صدفة حيث لم يوجد أحد من سكان جزر البحر الجنوبي. ولئن تم التخلي عن سياسة استراليا البيضاء رسمياً، فإن بقاياها لا تزال موجودة كما تجلى في حادثة كرونولا التى وقعت في كانون الأول/ ديسمبر 2005م عندما هاجم بعض مثيري الشغب البيض رواد شواطئ ملامحهم عربية

في الشريط الساحلي بسيدني.

وفي الطرف المقابل من طيف الانتقادات، عا علي كاتب أسترالي ذات مرة تعنيفي أبناء عرقي الخاص وإغضابهم وشدد على أنه لا يمكن ملايوي أن يفعل ذلك، إنه محق على وجه العموم، لكنني تعلمت أنه كي يسمع المرء صوته على الساحة العالمية، هناك قواعد مختلفة وعليك أن تعمل بمقتضاها. اقتضت مني قواعد تلك اللعبة امتلاك الشجاعة للمجاهرة بآرائي وعدم المبالاة كثيراً بإسعاد الناس، ولو كانوا من أبناء عرقي، عندما أفصح عما يجول في خاطري وأقول ما أعتقد أنه واجب علي قوله. ويتعين على المرء أن يتكلم بصراحة ومن دون مجاملات أحياناً ولو مع أشقائه الملايويين؛ فكي تصل إليهم يتعين عليك إحداث صدمة خفيفة أحياناً للاستحواذ على انتباههم ليس إلا ولم أرد يوماً تهدئتهم من خلال مفهوم القناعة والتواكل؛ فإذا كان المرء يعانق الناس ويقول لهم إنهم بارعون ومقتدرون بينما هم في الحقيقة ليسوا كذلك، فلن يبذلوا جهداً لتطوير أنفسهم والنهوض للتحديات التى تواجههم؛ لأنه لن يتوافر لديهم الدافع ولا الحافز للقيام بذلك. بيد أن توبيخاً صارماً نابعاً من محبة يمكن أن يوفر ذلك الحافز.

لا يمكن المرء القول ببساطة إن الأمور على ما يرام في حين أنها ليست كذلك وأنها أبعد ما تكون عن المثالية. كانت "السياسة الاقتصادية الجديدة إلى حد بعيد سياسة ناجحة ومدهشة؛ لأن عدداً من الملايويين أصبحوا اليوم ناجحين في عالم التجارة والمال وفي المهن، ولأن الطبقة الوسطى الملايوية قد توسعت كثيراً. ومع ذلك، عندما يتأمل المرء في العدد الكبيرمن الفرص التى أتيحت لهم، يتبين له أنه يجدر أن

تكون نسبة الملايويين الناجحين في مجتمعنا أكبر اليوم، وهذا ما كان سينطبق عليه الحال لو أنهم كانوا مستعدين لزيادة الاجتهاد في العمل. وأنا شخصياً أخجل من سماع أخبار عن ملايويين لم يسددوا ديونهم، أو خانوا الثقة التى وضعها الناس فهم، أو باعوا تراخيص استيراد منحت لهم، أو رخصاً وعقوداً منحتها الحكومة لهم من خلال "السياسة الاقتصادية الجديدة". والمؤسف أنه في حين عادت هذه السياسة بنفع عظيم على الأشخاص الذين كانوا مستعدين لبذل جهد لتحقيق الآمال التى توفرها هذه السياسة، فقد أوجدت ثقافة تفضيلية معيقة في أوساط كثير من الملايويين الآخرين ممن يتوافر لديهم عدد أقل من القيم والحوافز النافعة؛ أى إنه في الوقت الذى طورت فيه "السياسة الاقتصادية الجديدة" عدداً من الملايويين ذوى القيم الأخلاقية الجيدة، فقد أضعفت عدداً أكبر بكثير بسبب الامتيازات المقترنة بالتمييز الإيجابي. يتملكني خوف على الأجيال القادمة، وقلق من أن يعتقد أبناء الذين أفلحوا بسبب هذه السياسة أنها من المسلمات وبالتالي لن يتعلموا كيفية الاعتماد على الذات ثقافياً واقتصادياً. سأواصل الضغط عليهم، مجازفاً بزيادة نفور الناس مني، وأواصل استنهاضهم، والتودد إليهم بفكرة جعلهم يقفون شامخين.

لدى إيمان راسخ بممارسة القيادة من خلال القدوة، وفي مدونتي الخاصة بالسلوكيات، أشير إلى رفض الصور النمطية للملايوي التقليدي بتطبيق القيم التى أريد من الملايويين تبنيها. وعلى سبيل المثال، غالباً ما كنت أسأل عن المصادر التى أستمد منها طاقتي، التصور الشائع هو أن الملايويين لا يمكنهم العمل بجد. ولتصحيح هذا المفهوم، لم

آخذ طوال السنين الاثنتين والعشرين التى عملت فيها رئيساً للوزراء الإجازة التى تحق لي كاملة. وعندما كنت أعود من زيارات خارجية، أتوجه إلى مكتبي في اليوم نفسه. كانت ساعات عملي أطول من ساعات عمل أغلبية الموظفين الحكوميين والوزراء. لم أمارس لعبة الغولف، ولم أشاهد مباريات مثل مباريات كرة القدم أو البادمنتون إلا نادراً، ولا أركب الخيل إلا مرة واحدة في الأسبوع، والشئ الذى يحركني هو أنني أجد متعة في العمل بكل بساطة وأكثر ما كنت أتطلع إليه عندما عملت وزيراً، ومساعداً لرئيس الوزراء، ورئيساً للوزراء، هو رؤية ثمرات أفكاري وسياساتي وتوجيهاتي وقد تبلورت، ورؤية ما لمحته في مخيلتي وقد أصبح حقيقة.

عندما رأيت أن الطلب قد ازداد على المتدربين الذين خضعوا لبرامج معدة بموجب سياسة "النظر شرقاً"، شعرت برضى بالغ؛ إذ رأيت أن هذا الجيل الجديد من الماليزيين لم يظهر انعدام الثقة بالنفس المعتاد، رأيت مدى الاحترام الذى باتوا يحظون به خارج ماليزيا وتوجب علىي شخصياً العمل بجد لغرس فضيلة العمل الدؤوب في الجميع، وخصوصاً في الملايويين. توجب إفهامهم أن هذه هي الطريقة الوحيدة كي ينجحوا في حياتهم ويطوروا بلادهم. وأنا في عجلة من أمري دائماً لرؤية النتائج، وهو أمر غير معتاد بالنسبة إلى ملايوي ولو أن مجتمعنا بأسره يفعل ذلك، لكان النجاح النتيجة الطبيعية فكلما اجتهدت في العمل، حصلت على النتائج في وقت مبكر. وهناك أسباب كثيرة بالطبع لدافعي القوى؛ فبعد أن درست بتعمق تاريخ ملايا، أقر بمدى إسهام اجتهاد الصينيين والهنود في النجاح المذهل الذى حققته ماليزيا.

يوجد في ذكاء الملايويين التجاري وأخلاقهم في العمل كثير مما يستحوذ على الإعجاب، لكن يبدو أنهم لا يدركون أن السداد العاجل للقروض والجدارة بالتسليف شرطان أساسيان للنمو التجاري. يقترض عدد من الملايويين المال لأغراض تجارية، لكنهم لا يوظفون سوى نصف القرض في مزاولة أنشطة تاجرية حقيقية، ما يضاعف من الناحية الفعلية معدل الفائدة التى تترتب عليهم. وباستثمار نصف رأس المال المقترض، يصعب جني أرباح تكفي لسداد القرض بأكمله. وعندما يحصل ذلك، لا يتبقى لديهم خيار سوى تدوير الزوايا وأداء عمل متدني الجودة ومن ثم يفقدون ثقة عملائهم ومصارفهم والمتعاقدين معهم، وبعد ذلك يضافون إلى القائمة السوداء وتتلطخ سمعة جميع الملايويين بالفرشاة ذاتها. وأذكر أن صاحب محطة وقود التقيت به ذات يوم استثمر أرباحه النقدية في مهنة أخرى، لكنه أخفق في تلك المهنة وعجز عن سداد ثمن مخزون الوقود الذى اشتراه من قبل بالدين، وبعد أن تخلف عن السداد بضع مرات، طلب المورد سداد ثمن إمداداته نقداً فلم يعد لدى صاحب المحطة مال ولم يستطع الحصول على قرض آخر من مصرفه، وفي النهاية، خسر محطة الوقود. عرفت قصته لأنه توسل إلي مباشرة كي أطلب إلى شركة النفط السماح له بالاستمرار في إدارة محطته، وعندما استفسرت عن تفاصيل القضية عرفت أنه لا يسدد ثمن الوقود الذي يشتريه، والظاهر أنه ليس الوحيد الذى فعل ذلك. وبسبب عدد قليل من البيض الفاسد، بات يتعين على أصحاب محطات الوقود الملايويين سداد أثمان ما يشترون سلفاً ونقداً. هذه هي قوى السوق، مجردة وبسيطة.

تلطخت سمعة متعاقدين ملايويين صغار بالطريقة ذاتها بسبب حوادث تضمنت بناء مختبرات حواسيب في مدرسة، أريد من تلك المباني أن تكون بسيطة ومجهزة بتوصيلات كهربائية خاصة بالحواسيب وبدلاً من أن يبني المتعاقد المختبرات بنفسه، باع العقود إلى متعاقدين آخرين، وبدورهم باعوا العقود ذاتها لمجموعة أخرى من المتعاقدين مقابل مال دفع مقدماً. استمرت هذه العملية إلى أن أصبح هامش الربح سلبياً ولم يعد العقد مجدياً، عندئذ سعى المتعاقد الأخير إلى بناء المختبرات مستخدماً مواد قليلة الجودة، ومن دون سداد أجور الموردين مقاولي الباطن الآخرين أحياناً. والنتيجة هي فشل في إكمال المشاريع أو انهيار المبنى حتى قبل البدء باستخدامه. وقد سلطت الصحافة الضوء على هذه المشكلة مراراً وتلطخت سمعة المتعاقدين الملايويين بالجملة لانعدام أخلاقيتهم وعدم تحملهم المسؤولية، ويمكن تعليل سبب حصول هذه الحوادث بكلمة واحدة: الجشع، إنه الرغبة في الإثراء السريع من دون فعل شئ يستحق كسب ثروة.

أثبت التاريخ في هذه الأمثلة أنه معلم حقيقي لكن تلاميذه شاردو الذهن؛ ففي مطلع القرن العشرين، لم يجن الحكام الملايويون العائدات المستحقة لهم لأن جامعي الضرائب الملايويين اختلسوا أغلبية الأموال التى جمعوها، ثم جاء توكاي (سيد) صيني عرض ضمانة بتحصيل عائدات ضريبية أكثر بكثير للحاكم إذا منح حق جمع الضرائب للأسرة الملكية، وكانت تلك ممارسة شائعة في تلك الأيام، وشيئاً فشيئاً أسندت احتكارات صناعة الأفيون والقرنفل وجباية الضرائب وما سوى ذلك إلى الصينيين؛ لأنهم ضمنوا تحصيل عائدات أكبر للحكام. وبمرور الوقت،

قلت الحاجة إلى مدراء ملايويين فضعفت وتوسعت نفوذهم، ولا تزال هذه الدروس في حاجة إلى انتباه حتى في يومنا هذا، وما لم يعمل الملايويون بجد فقد يستيقظون ب ، يوم ليجدوا أن بلادهم لم تعد ملكاً لهم وأنهم محرومون فيها. وما هذا السيناريو منهم ببعيد، فإذا أصبح الملايويون فاسدين، ربما يتم إغراؤهم بالمال لينتخبوا حكومات قد تكون مستعدة لبيع حقوقهم لأصحاب أكبر عطاءات والذين يستبعد أن يكونوا ملايويين.

وبالإدلاء بملاحظات جارحة وتقديم تحليلات نقدية لواقع الملايويين، لتم أرد إهانتهم وإنما ترسيخ عادة الفحص الذاتي التى آمل بأن تؤدى إلى التطوير الذاتي، يعاني الشعب الملايوي عيوباً ونقاط ضعف لافتة، لكنه يتحلي بعدد من السمات التي يمكنه التباهي بها، منها حقيقة أن ماليزيا وصلت إلي ما وصلت إليه اليوم بفضل حسن ترحاب الملايين وكرمهم مع الأشخاص الذين اتخذوا من هذه البلاد وطناً لهم. وإذ هاجر بعض المواطنيين الماليزيين من غير الملايويين، فنحن لا نكن لهم ضغينه، ومازلنا نعتبر الباقين مواطنيين أشقاء مخلصين.

عندما اصبحت رئيساً للوزراء في سنه 1981 م، وكان عدد سكان ماليزيا 13 مليون نسمة، منهم سبعة ملايين ملايوي. واليوم يبلغ عدد سكان 25 مليوناً، أي نحو مثلي عدد السكان في سنة 1981 م، زادت نسبة الملايويين قليلاً لكن إسهاماتهم لا تتناسب مع أعدادهم. استجابوا لمطالبتي إياهم بالاضطلاع بدور أكبر في تنمية بلادهم، لكنهم في حاجة إلي فعل المزيد، إن الناس في الدول المتقدمة يتحدثون بإجلال عن معدل النمو في ماليزيا وأنا فخور بذلك، لكنه فخر مشوب بالأسي،

ويمكننا أداء عمل أفضل. يمكن الملايويون أداء عمل أفضل، وأنا اعرف أن بإمكانهم ذلك، لكن لم يعد في وسعي فعل الكثير بعد تقاعدي سوى مناشدتهم. أدعو الله أن يغير حالهم، لكني أعرف أن الله لا يغير ما بقوم حتى يسعوا بجدية لتغيير أنفسهم.

أنا قلق علي الملايويين وأخاف على مستقبلهم، لكن ذلك لا يغير حقيقة أنني فخور بكوني ملايويا، وأنا لن أرضى بأن أكون شيئا اخر. في الأيام الغابرة، كان الروماني يجاهر باعتزاز أنه مواطن روماني أينما توجه في العالم، ومن جانبي، أردت أن أكون قادراً على الذهاب إلى أي مكان في العالم وأقول باعتزاز مماثل " أنا ملايوي ".

# من الهيام إلى التحرر من الأوهام

كنت فى عداد قلة محظوظة قبلت في المدرسة الإنكليزية الأهلية بولاية قدح فى سنة 1933 م، و من دواعى الأسف أن آلافاً أخرين لم تسنح لهم تلك الفرصة، و لو أنهم تسلحوا بعلم جيد، لاستطاعوا ربما تطوير حياتهم و رفاهية مجتمعهم.

لكنى لم أقبل في المدرسة المتوسطة الإنكليزية بعد إنهاء « الصف الملايوى الخاص » بخلاف معظم الصبية الملايويين. كان الطلاب الملايويون الذين أنهوا الصف الرابع في المدارس الملايوية يلتحقون بصفوف ملايوية خاصة لمدة سنتين فى المدارس الإنكليزية قبل الحرب العالمية الثانية، حيث يدرسون اللغة الإنكليزية و المواد الأخري باللغة نفسها أيضاً. و عوضاً عن ذلك، أرسلنى والدى و أنا في الثامنة إلى المدرسة الملايوية في سيبيرانغ بيراك و أنا في الصف الثانى، و عمل على إلحاقى بالصف الإعدادى الأول في المدرسة الإنكليزية الأهلية. و بالنظر إلى كونه أستاذاً في مدرسة إنكليزية، حسب أن أبناءه سيتلقون علماً أفضل هناك، و قد سار جميع أشقائي على الدرب نفسه، باستثناء أحد إخوتى الذى التحق بمدرسة عربية أولاً قبل التحاقه بالمدرسة الإنكليزية الأهلية.

أغلبية زملائي فى الصف كانوا غير ملايويين، لكنى أقمت صداقات كثيرة معهم، منهم مونوسامى، و أوى إنغ بان، و شقيقه أوى إنغ هوى، و

تان كيات سينغ، و كان والد كيات سينغ تاجر أرز ميسور الحال، وكانت أسرة إنغ بان تؤجر عربات الريكشو. و سادت بينى وبينه منافسة ودية فكان المركز الأول في الصف من نصيبه أو نصيبي، و بما أن معظم زملائي في الصف لا يتكلمون سوى الملايوية العامية،، فقد أرغمت على التحدث معهم باللغة الإنكليزية. لم يكن ذلك سهلاً على لكنى نجحت في ذلك إلى أن أتقنت اللغة قبل أقرانى في الصفوف الملايوية الخاصة. و بما أننى شرعت في القراءة باللغة الإنكليزية في مرحلة مبكرة، فقد حفظت من المفردات ما لم يحفظه الصبية الآخرون. وعندما بلغت الصف السابع، عرفت أننى أستطيع إتقان التعبير عن خواطري بالإنكليزية بمثل مقدرتى على التعبير باللغة الملايوية. حصلت على المركز الأول فى الصف الرابع، ونال أربعة منا، منهم إنغ بان، ترقية مزدوجة إلى الصف السادس، وساد انسجام تام بين جميع المعلمين و التلاميذ الملايويين و الهنود و الصينيين، ولا أعتقد أننا لاحظنا الفوارق الإثنية بيننا حينذاك، و اعتقدنا أن سير الأمور على هذا النحو قضية مفروغ منها.

تساءلت و أنا مراهق عن سبب عدم إتاحة التعليم لعدد أكبر من الأشخاص، وازدادت حيرتى عندما التحقت بالجامعة، لم أجد فى دفعتى غير سبعة ملايويين من أصل نيف و سبعين طالب طب عام و طالب طب أسنان، لذلك عزمت على رؤية عدد الملايويين الذين يبلغون مرحلة التعليم العالى و قد ازداد. كل ما احتاجوا إليه هو إتاحة مزيد من الفرص، وقد أوليت التعليم أولوية قصوى طوال مسيرتى المهنية و اجتهدت لإتاحته لأكبر عدد من الناس و بخاصة الملايويون.

إستفدت كثيرا في تعليمى بالكتب و المجلات التى قرأتها في أثناء

نشأتى، كنت قبل الحرب أمين مكتبة الصف الرابع، و كانت مهمتى كل يوم ثلاثاء بيع مجلات مثل روفر (Rover ) و شامبيون (Champion) و فيلم فان (Film Fun) لصالح المكتبة. و بما أن عطلة نهاية الأسبوع في قدح من الخميس إلى السبت، أتيح لي يومان ونصف اليوم لقراءة أنواع القصص كافة، وحتي التعليقات أسفل الصور والإعلانات، قبل وضع الإصدارات الجديدة في مكتبة الصف. أولعت بقصص الأبطال الخرافيين البريطانيين، مثل روكفيست روغان وماد كاريو والطيارين المقاتلين الأبطال الذين أسقطوا الطائرات الألمانية بسهولة. ثم أولعت بجاك كين تك، ذلك التحري الذي لا يفشل في إلقاء القبض على المجرم أبداً.

رأيت في تلك الشخصيات صورة نمطية للرجل الأبيض أو " أورانغ بوتيه " وأردت أن أحاكيها، ولا سيما في شجاعتها، وفي طريقة تخطيطها لخطواتها ورباطة جأشها في مواجهة الأخطار، وكانوا رجالاً منضبطين صادقين بوعودهم، لم يستسلموا أبداً على الرغم من فظاعة الأخطار التي واجهوها. وحسبت أنني إذا أصبحت مثلهم فقد يساعدني ذلك على أن أكون رجلاً ينهض لمواجهة التحديات، وأردت كذلك تقييم وضعي باتزان، ومعاينة نقاط ضعفي وقوتي بالنسبة إلى خصومي، والتخطيط لاستراتيجياتي بهدوء ووضعها موضع التطبيق.

نشأت من دون أن أبالي بخضوعي لحكم البريطانيين، وعندما درست تاريخ الإمبراطورية البريطانية في المدرسة، كنت ساذجاً بما فيه الكفاية لأشعر بالاعتزاز لكوني جزءاً منها. حتى إني أسهمت بمصروفي في الصندوق الوطني الملايوي الذي أسسته إدارة الاستعمار البريطاني

لدعم المجهود الحربي في الحرب العالمية الثانية. كنت أشتري كل يوم يصادف 11 تشرين الثاني / نوفمبر، وهو يوم الهدنة الذي يرمز إلى انتهاء الحرب العالمية الأولى في سنة 1918 م، زهرة خشخاش صناعية وأثبتها بدبوس على قميصي لمساندة قدامى المحاربين. وكانت زوجات البريطانيين البعيدين عن أرض الوطن واللاتي عشن بمفردهن يأتين إلى المدرسة حاملات صواني مليئة بالأزهار الورقية مع علب قصدير مشقوقة لجمع التبرعات. بدت " السيدات البريطانيات " في عيني مراهق مثلي فائقات الجمال. كنت بحق شاباً مولعاً بالإنكليز، وأعتقد أن أغلبية الناس في ملايا كانوا موالين للإنكليز في تلك الأيام، صدقت التقارير الإخبارية البريطانية لعدم توافر مصدر آخر للمعلومات يمكن الاعتماد عليه. قال لنا أساتذتنا منذ نعومة أظفارنا إن ملايا بلد مسالم للغاية وإن أعراقة المختلفة تعيش معاً من دون غيرة أو حسد أو تاريخ ملئ بصراع عرقي. وفي الحقيقة، قالوا لنا إن بلدنا ليس له تاريخ أصلاً، بهذه العبارة الوحيدة القصيرة التى تنم عن جهل، شطب تاريخ بلادي بأكمله. واوحت بأنه ليس في العالم إمبراطورية ملقية، أو غزو برتغالي، أو استعمار أوروبي. كانت بداية تاريخنا ونهايته حين أصبح البلد بشكل غامض ملايا البريطانية. بما أنه لم يكن لنا ماض يخصنا، لم نتعلم غير تاريخ الإمبراطورية البريطانية. أصبحنا ملمين بحروب الوردتين، وحرب السنين السبع، وملوك إنكلترا وملكاتها، وأوليفر كروموِل، وغزو النورمانديين وحرب المئة سنة في أوربا. ودرسنا تاريخ الإمبراطورية الرومانية والحروب النابليونية، ولم تكن هناك أي إشارة إلى السنين الثمانئمئة التي خضعت فيها إسبانيا للحكم الإسلامي،

باستثناء إشارة غامضة إلى فاتحي الأندلس العرب، كما لم يجرالتطرق إلى خضوع أوربا الشرقية للحكم العثماني. قرأنا عن فظاعات الهنود الحمر الذين كانوا يسلخون فروات الرؤوس، وعن البحار الواقعة أمام الساحل الشمالي لأمريكا اللاتينية، وعن تأسيس أستراليا كمعسكر اعتقال وعن باقي أنحاء الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس. وكان في كل صف خريطة للعالم ظهرت فيها أراضي الإمبراطورية البريطانية باللون الأحمر الزاهي وقد أحاطت بالعالم أجمع.

الأمر الغريب هو أنه عندما كان الملايويون يتحدثون عن الرجل الأبيض، بدا أنهم يشيرون إلى البريطانيين فقط، و كانوا يتحدثون عن الرجل الأبيض و هو يقاتل الألمان كما لو أن الألمان ليسوا بيضاً، و كنا نقف إلى جانب البريطانيين.. و أذكر أنى قرأت عن دراويش قاتلوا الجنرال غوردون " الصينى " في الخرطوم عاصمة السودان، و سررت عندما قرأت أنهم حصدوا بالمدافع الرشاشة من نوع غاتلينغ فى أثناء مهاجمتهم القوات البريطانية، ذلك أن كون السودان للسودانيين و كونهم يقاتولن لتحرير بلدهم من نير الإمبرياليين البريطانيين لا يجعلهم على صواب أو يجعل البريطانيين على خطأ. و بدا طبيعياً بالنسبة إلى أن أقف إلى جانب الأبطال البريطانيين عندما يقاتولن السكان الأصليين و يقتلونهم، و نسيت أننى واحد من هؤلاء السكان الأصليين، فكان السير فرانسيس درايك، و دوق ولينغتون، و اللورد هوراشيو نلسون و المحاربون البريطانيون الآخرون أبطالى أيضاً. قرأت في تلك الأيام عن المعارك التى انتصر فيها البريطانيون على أعدائهم الأوربيين و افتخرت بها، مثل معركة واترلو وترافلغار. و بالعودة بالذاكرة إلى تلك الأيام، يبدو غريباً

أن أعتبر التمسك بالإمبريالية البريطانية و استعمار بلادى عملاً وطنياً، لكنهم حملونا على الاعتقاد بطريقة ما أننا تنتمى إلى الإمبراطورية البريطانية.

لم يكن يوجد كثير من الرجال البيض فى ألور ستار عاصمة ولاية قدح. كان جميع الأشخاص الذين عاشا هناك بريطانيين عزلوا أنفسهم فى إقليم بموازاة شارع ماكسويل فى الجزء الشمالى من ألور ستار، و كانت تلك الأرض ملكاً للحكومة و أفضل أرض سكنية في الولاية. فليس فيها أحد من المحليين، و المنازل منتصبة فوق أراض شاسعة تظللها أشجار الأنغزانا، و تفترشها الأعشاب الغضة والأزهار. كانت عالماً مختلفاً تماماً، منطقة هادئة و نظيفة، بعيدة كل البعد عن المنطقة التى عشت فيها. و من ناحية أخرى، كان منزلنا محوطاً بأكواخ أقيمت على أراض مغتصبة و مساكن خشبية سقوفها مغطاة بالقش، لكن محيطى المتواضع لم يحزنى لاعتقادى أنه أمر طبيعي و أن الجميع يعيشون على هذا النحو. ولم يسمح لى بركوب الدراجة على الطرقات الرئيسية إلا حين وصلت إلى الصف السادس عندما أعطانى والدى الإذن أخيراً بالتوجه إلى المدرسة على الدراجة. و كنت أقود دراجتى مع زملائي في الصف في الأمسيات متوجهين إلى حيث عاش هؤلاء المغتربون، كان السكان الأوربيون يلعبون الغولف، و خلفهم غلمانهم الذين كانوا يحملون مضارب الغولف في أكياس جلدية، و كان ذلك ملعب الغولف الوحيد فى ولاية قدح. و كان يشاهد فى المناسبات بعض الأوربيين و حفنة من أفراد الأسرة الحاكمة لقدح و هم يمتطون الجياد، كما كان يوجد مضمار للسباق تابع لنادى قدح جيمخانا حيث تقام السباقات مرة فى السنة. لم

أحلم يوماً بأن أعيش في تلك المنطقة، لكنى فكرت بذلك في السنين اللاحقة عندما أصبحت طبيباً حكومياً.

نادى قدح هو المكان الذى كان يتجمع فيه الأوربيون في الأمسيات، لاحتساء المشروبات و إقامة حفلات الرقص. كان نادياً حصرياً، لكنه لم يضاه نادى رويل لايك كلوب في كوالالمبور فى حصريته، حيث لم يسمح حتى لسلطان سلانغور بدخوله. قلة هم كبار الموظفين الملايويين الذين نالوا عضوية نادى قدح، وعندما كان تونكو بدلى شاه ابن السلطان عبدالحميد و الوصى على عرش قدح، كان يلعب التنس هناك. كما كان للمسؤولين الملايويين العاملين في السلك الحكومى فى قدح ناديهم الخاص فى الجزء الجنوبي من ألو ستار، بينما كان نادى المسؤولين المرؤوسين قبالة مدرستى، و قد وفرت تلك الأندية وسائل الترفيه للنخب فى تلك الأيام. و مع أن لعبة البادمنتون كانت شعبية، فقد اعتبرت التنس لعبة الصفوة. و كان بعض الموظفين الحكوميين الذين شغلوا مناصب رفيعة جدا يدخنون الأفيون، و فى تقليد للأوربيين، تعاطى بعضهم المسكرات.لم أتتفطن إلى المدى الكامل لدهاء مستعمرينا ومهارتهم إلا عندما بدأنا بصراعنا ضد اقتراح البريطانيين إقامة الاتحاد الملايوي. لم يضطروا إلى القتال لاستعمار الولايات الملايوية، وإنما اكتفوا بعرض رواتب تقاعدية سياسية منتظمة على الحكام وأسرهم، بمقادير فاقت كل ما حصلوا عليه من الضرائب التى كانوا يجبونها. دفعت جميع هذه الرواتب من الضرائب التى جباها البريطانيون محلياً بكفاءة عالية، ولكن المعاهدات التى فرضوها على الولايات الملايوية و التنازلات التى انتزعوها من الحكام الملايويين بدأت بإثارة حفيظة الملايويين الحذقين

لا لأنها كانت دائمة فحسب بل لأنها انطلت على خديعة. فقد أشير إلى السلاطين الملايويين في تلك الاتفاقات ب " الحكام "، بينما سمي كبير المسئوولين البريطانيين " مستشاراً " لكن المعاهدة نصت على وجوب اتباع نصيحة المستشار البريطاني متى أعطاها،والواضح أنه كان يدير حكومة الولاية لا أنه كان يقدم النصح لها، وربما تولى السلطان زمام الحكم، لكن الواضح أنه لم يستطع ممارسته، كان مجرد حاكم صوري.

تتكامل هذه الاذدواجية مع اللغة وقواعد التشريفات الإنكليزية، ففي أثناء قمة رؤساء حكومات دول الكومنولث التى انعقدت في هراري في زيمبابوي في سنة 1991 م، طلب إلى إلقاء كلمة، كوني مضيف قمة رؤساء حكومات دول الكومنولث السابقة، في العشاء الرسمي الذي أقيم على شرف الملكة. بحلول ذلك الوقت، ذاع صيتي بأني صاحب انتقادات لاذعة وآراء صريحة للغاية واستبد بالمسؤولين البريطانيين قلق شديد من إمكانية إن أقول شيئاًربما يجرح شعور الملكة. ودرءا للمخاطر، تكبد مسؤولو القصر فضلاً عن عدد من المسؤولين في أمانة سر الكومنولث عناء إبلاغي أن الملكة إليزابيث الثانية ستلقي كلمة مقتضبة للغاية وأنه يجدر بي بالتالي الإيجاز في كلمتي أيضاً. وهذا بالطبع خلاف التقاليد، ففي اجتماعات الكومنولث السابقة، كانت الخطابات طويلة ومليئة بعبارات الثناء على الملكة وكومنولث الدول البريطانية العظمى. والواضح أن أحداً لم يوعز إلى رؤساء الحكومات الآخرين بإيجاز كلماتهم، كما أن الملكة القت كلمات طويلة جداًفي قمم الكومنولث السابقة.

لكن محاولة إسكاتي لم تغظني، فقد اعتدت هذه المحاولات ولذلك أعددت كلمة مناسبة مختصرة لألقيها في حفل العشاء، ومع ذلك

اختصرتها تاركاً ما أردت قوله من دون تغيير، وفحواه أن ما يقال باللغة الإنكليزية ليس المقصود في العادة. قلت إنه في حين يسمى الشخص الذي يرأس البرلمان " السيد المتحدث "، فهو ممنوع من الكلام. ودور المستشار البريطاني لم يقتصر على تقديم النصائح فيما لم يمارس الحكام الملايويون الحكم، بل في الواقع فعل الطوفان العكس تماماً. وفي الكومنولث (ومعناها الحرفي الثروة المشتركة)، الثروة ليست مشتركة. والواضح أن الملكة استطابت ذلك الكلام وسجلت محطة البي. بي. سي صوتها وهي تضحك بصوت عال. وفي وقت لاحق، عندما احتفل البريطانيون باليوبيل الذهبي للمكلة، بثت محطة بي. بي. سي غير مرة شريط الفيديو لخطابي ولضحك الملكة.

## مقاول فى زمن الحرب

لم تكن تمضى أيام على خضوعى لاختبار كامبريدج للصف النموذجى الثامن الذي يسبق سنة التخرج فى سنة 1941 م حتى هاجمت اليابان ميناء بيرل هاربور فى السابع من كانون الأول / ديسمبر و المناطق الخاضعة لحكم البريطانيين و الهولنديين فى جنوب شرق آسيا في الثامن من ذلك الشهر. بدا الألمان في تلك المرحلة أيضاًأنهم يحققون مكاسب في أوربا بغزو هتلر روسيا في حزيران / يونيو بعد استسلام فرنسا في تموز / يوليو من السنة التي قبلها.

ولأنني كنت أحد الغيورين على الإمبراطورية، لم يساورني شك للحظة واحدة في أن النصر سيكون في نهاية المطاف من نصيب البريطانيين وحلفائهم، فقد تعلمت من دروس التاريخ أنه عندما سعى نابيليون لاحتلال روسيا، هزمه الشتاء الروسي. لم أعرف طبيعة فصل الشتاء، لكنني اقتنعت بأنه سيعيد الكرة ويهزم الألمان.

قرر اليابانيون دخول الحرب بعد أن ألهبتهم النجاحات التي حققتها ألمانيا في أوربا فهاجموا الولايات المتحدة بقصف ميناء بيرل هاربور، أذكر أنني قلت في نفسي إن هجوم اليابانيين على أمريكا عمل طائش. ولم أستطع تخيل إمكانية أن تغزو دولة صغيرة مثل اليابان دولة كبيرة مثا الولايات المتحدة وتحتلها.

وفي التهاية، كل مانجحوا في تحقيقه كان إرغام الولايات المتحدة على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، وتعلمت من الهجوم الياباني

المتهور درساً مصيرياً نفعني كثيراً في السنين اللاحقة عندما دخلت معترك السياسة : إياك أن تضيف إلى معسكر خصومك مزيداً من الأعداء، وإذا توجب عليم مواجهة خصم آخر، فلا تفعل إلا بعد فراغك من خصمك الأول.

لم أتصور إقدام اليابانيين على غزو ملايا، لكن انهيار فرنسا مكنهم من نشر قواتهم فى الهند الصينية الخاضعة لحكم الفرنسيين، وكانت الولايات المتحدة قد فرضت عقوبات نفطيةمن قبل على اليابان التى اتعمدت على المستوردات النفطية بالكامل حتى قبل الحظر، واستبد القلق بالبريطانيين إلى حد أنهم نشروا قاذفات بلينهام وفوج إيست سيرى فى ألوستار.

و ظهرت على الساحة أيضاً قوات غورجا التى حسبت أنها ملايوية لأن عناصرها ارتدت قبعات مستديرة صغيرة مثل القبعات التى كان يرتديها رجال الشرطة الملايويون آنذاك.

شرعت الحكومة بتحضيرات الدفاع المدنى والتدابير الاحتياطية من الغارات الجوية التى شملت وضع أقمشة سوداء فوق النوافذ، وإطفاء أنوار الشوارع، وإطلاق صفارات الإنذار للتحذير من الغارات الجوية. التحقت بوحدة النيران المساعدة وكنت فخوراً بارتدائي الزى الخاكى ووضعى فأساً تدلت من حزامى.

دربنا على استعمال خراطيم المياه وإخلاء المصابين بواسطة الحبال من خلال النوافذ – لم يكن فى الأمر مأثرة عظيمة لأن ارتفاع المبانى في ألور ستار لم يزد على طابقين آنذاك، واستخدمت القنابل الحارقة لتعليمنا كيفية مكافحة النيران . وفى إحدى المرات، ألقيت واحدة من

تلك القنابل من منصة مراقبة مؤقتة وضعت على سقف المبني الحكومى الرئيس، لكنها لم تنفجر وعندما أمرنى أحد الأشخاص بالتقاطها وإعادتها إلىلا المنصة، نفذت الأمر حرفياً وأنا غير مدرك بالكامل لإمكانية انفجار القنبلة فى يدى، وعندما أدركت فى وقت لاحق الخطر الذى وضعت نفسي فيه، تصببت عرقاً بكل ما فى الكلمة من معنى.

فى ذلك الوقت تقريباً، بدأت القوات البريطانية بالظهور بأعداد غفيرة فى ألو ستار، ولم يسبق أن وجد هذا العدد الكبير من الرجال البيض فى البلدة، كانوا يترددون إلى المقاهى المحلية، ويحتسون الجعة ويصيحون بعبارات تحط من شأن اليابانيين، وكانت الدعاية البريطانية قوية للغاية في ملايا وجاهرت صحيفتا سترايتس تايمز (Straits Times )، وسترايتس إيكو (Straits Echo ) في بينانغ، وراديو ملايا بقدرة بريطانيا على دحر الألمان في آخر الأمر، كما صور التراجع السريع من دنكرك بأنه انسحاب تكتيكي ونصر عظيم، وحظيت معركة بريطانيا التي أسقط فيها سلاح الجو الملكي عشرات المقاتلات من طائرات ميسر شميت وقاذفات جونكر الألمانية بتغطية مسهبة.

سادت علاقات ودية وثانوية بين ملايا واليابان قبل دخولها الحرب، وكان ألور ستار عدد من المحلات اليابانية التي تبيع الألعاب، وكان أحدها كاي شيبا في شارع راجا. وبوصف صاحب هذا المتجر زعيم الجالية اليابانية المحلية الصغيرة، كان السيد شيبا يدعى دائماًلحضور الاحتفال الذي يقام في ذكرى ميلاد السلطان، لكن جميع اليابانيين اعتقلوا غداة اندلاع الحرب.

وقيل إن مصوراً يابانياً في ألور ستار، يدعى السيد مياموتو التقط

صوراً فوتوغرافية لمطار ألور ستار حيث كانت القاذفات بلينهايم جاثمة. وعندما نزل اليابانيون في سونغخلا في تايلاند، وفي كوتا بارو بكلانتان في 8 كانون الأول / ديسمبر 1941 م، لم تظهر في الأجواء ولو طائرة حربية بريطانية واحدة. والظاهر أن تلك القاذفات سحبت لاستخدامها في مسارح قتالية أخرى، وأسقطت في شمال قدح طائرة تابعة لنادي الطيران كانت تراقب التحركات اليابانية.

تقدمت القوات اليابانية بسرعة و تجاوزت بسهولة ما يسمى خط جيترا المؤلف من سلسلة من مرابض مدفعية وخنادق دفاعية بالقرب من الطرقات شمالي ألور ستار. وكان في مقدور الناس في البلدة سماع أصوات المدافع بعيد اجتياز القوات اليابانية الحدود بين سيام وقدح. لكني عندما ذهبت إلى وسط البلدة بعدما احتل اليابانيون ألو ستار، لم أجد سوى بضعة محلات دمرها القصف المدفعي – لقد أعفى انسحاب القوات البريطانية السريع بلدة ألور ستار من دمار واسع النطاق. كانت أسرة والدى لا تزال فى المنزل فى سيبرينغ بيراك عندما أظهرت طلقات المدافع تقدم اليابانيين.

لذلك قررنا المغادرة والتوجه إلى منزل شقيقتى فى شارع كوتا تاناه الذى يبعد نحو كيلومتر واحد. عندما أعود بالذاكرة إلى تلك اللحظات، أجد أن التدابير التى اتخذناها لحماية أنفسنا كانت مضحكة للغاية، وشعرنا أن الابتعاد مسافة كيلومتر واحد سيكون حاسماً ويبقينا سالمين. وفى هذه الأثناء، كان المقيمون هناك قد انتقلوا مسافة كيلومتر واحد أيضاً، وتلك كانت إجراءات مفعمة بالأمل أكثر منها استراتيجيات. ولدى سماعنا دوى انفجار قوى، اعتقدنا أن جسر (كوبري) وان محمد سامان

وهو بنيان قديم جميل يمتد فوق نهر قدح، قد نسف. ذلك أننا رأينا فى وقت سابق جنوداً بريطانيين يلغمونه استعداداً لنسفه، ولم يكن يبعد عنا أكثر من كيلومترين، وقد عثرنا لاحقاً على شظايا خرسانية تطايرت منه على سطح منزل أحد الجيران فى سيبرينغ بيراك، ومن حسن حظ أصحابه أنهم أخلوه قبل ذلك.

انهمر المطر وغرقت الطريق الترابية القريبة من منزل شقيقتى بالأوحال السميكة، راقبنا بقلق وخوف القوات البريطانية المنهكة وهى تمشي متثاقلة فى الأوحال وتحت المطر فراراً من اليابانيين الزاحفين. صدمت لرؤية الرجل الأبيض مهزوماً وعلى ي آسيويين، وسمعنا عن متلكئين تركوا بطريقة أو بأخرى.

وعلى سبيل المثال، اختبا جندى بريطانى فى المسرح الملكى في ألو ستار، بينما وجد آخر فى مكان قريب من المحكمة الابتدائية على مسافة قصيرة من جسر وان محمد سامان قبل تفجيره، لم يتكبد اليابانيون مشقة أسر الجنديين وطعنوهما بالحراب فى الحال.

أتذكر هذين الجنديين دائماً، ولا سيما الجندى الذى عثر عليه بالقرب من الجسر القديم، هنا كان الشاب تومى بعيداً عن منزله آلاف الكيلومترات، ماهى آخر خواطره عندما أسقط على الأرض وصوب جندى يابانى حريته نحوه ؟ وما زلت أشعر حتى الساعة بخوفه وألمه عندما اخترقت الحرية جسده، قال الناس لاحقاً إنهم سمعوه وهو يصرخ قبل أن يسود صمت مفاجئ. دفعت جثته بالأقدام إلى النه، وعندما ظهرت فى وقت لاحق كنت ما أزال رؤية دمه وقد صعب على تخيل مقتله بعيداً عن وطنه وأسرته، تخيلت أنى مت وأنا فى مثل سنه ومدى

إحساسه بالخوف فى اللحظات التى سبقت موته المؤلم. ولا تزال الحروب الوحشية التى لا موجب لها والتى شهدتها منذ ذلك الحين تعيدنى بالذاكرة إلى ذلك اليوم، إلى ذلك الجندى المذعور الذى لا رفيق له، وهى لا تزيدنى إلا بغضاً للحرب.

بعد أيام من طرد اليابانيين للبريطانيين، بدأ سكان ألوستار بالخروج من منازلهم ومخابئهم. هجر وسط البلدة، وفر أصحاب المحلات الصينييون خشية أن يستهدفهم الغزاة وبدأت عمليات النهب بعد وقت وجيز. استعمل الناس الفؤوس لتحطيم واجهات المحلات، وبقيت البضائع المنهوبة تسمى تشاب كاباك أو "ماركة الفأس" مدة من الزمن. عدنا إلى منزلنا فى سيبيرانغ بيراك بعد مضى أسبوع على رحيل البريطانيين، ومع أننا أخليناه على عجل، فقد وجدناه كما تركناه، باستثناء تعفن الطعام الذى فى الأطباق.

سمعنا عن فظاعات ارتكبها جنود يابانيون فى حق السكان المحليين فى مناطق أخري. أعدم كثير من الملايويين، وبخاصة الصينيون، وخشينا أن يغتصبوا نساءنا ويقتلوا رجالنا، لذلك، سارعت فتيات كثيرات إلى قص شعورهن كما يفعل الصبيان واالختباء فوق سقوف منازلهن الواهية. لكن الواضح أن اليابانيين كانوا منشغلين بالقتال ولم تقع فى الأغلب الفظائع التى كنا نخشاها، لكننا عشنا طوال الاحتلال فى خوف من كيمبيتاى، أى الشرطة العسكرية اليابانية.

كانت تحتجز الأشخاص الذين اشتبه فى مساعدتهم العدو، أو فى كونهم جواسيس، أو في مشاركتهم في حركة الحرب الفدائية ضد اليابانيين، علماً أن بعض من اعتقلوا كانوا قبل الاحتلال يساعدون

الصين في حربها مع اليابانيين. الطريقة المفضلة لدى الشرطة العسكرية اليابانية في التعذيب كانت ضخ الماء عنوة بوساطة مضخة عالية الضغط في فم المعتقل، فتتمدد معدتة، ثم يضرب السجين على معدته لتفريغها من الماء، وبعد بضع مرات، يعترف المعتقل بألتاكيد إذا لم يكن قد مات. على أن عدد الأشخاص الذين قتلوا في أثناء الاحتلال الياباني ضئيل نسبياً، بلْ إن اليابانيين جندوا ملايويين في قوة شبه عسكرية اسمها هيهون .

تبختر الضباط الملابويون الشباب ببزاتهم التي اشتملت على سيوف منحنية مثل سيوف الضباط اليابانيين، وأصبح صديقة مقربة لأحد هؤلاء المجندين ويدعي أزهري طيب الذي أصبح لاحقا عضوا في مجلس ولاية قدح ثم عضوا في البرلمان بعد الاستقلال. وعلمت لاحقا أن تان سري أزهري لم ينضم إلى قوة الهيهو للقتال إلى جانب اليابانيين، بل كان وطنية وقومية ملايوية وكان في عداد أول من خاض الصراع لنيل الاستقلال، والواقع أن الوظائف كانت نادرة، والتحاقه بالقوة شبه العسكرية على أن في استطا عنه تأمين طعامه.

التحق آخرون بالهيهو لبغضهم البريطانيين، وقد فوجئت كثيرا عندما عرفت أن كثيرا من الملايويين أكنوا هذا البغض، منهم على سبيل المثال رابطة الشبيبة الملايوية، التي أسسها معلمون تدربوا في كلية تدريب المعلمين الملا بوين في تانجونغ ماليم في ولاية بيراك. سمعت أنهم عاونوا الغزو الياباني فعلبة بوضع قوانم خشبية على شكل أسهم تشير إلى المنشآت العسكرية البريطانية، وكان هناك تعاون بين الهيهو الإندونيسيين والملابويين، ومن خلاله كونوا الجيش الإندونيسي

للتحري، وخطط المتطرفون في الرابطة مع أصدقائهم في جاوة وسومطرة لتشكيل إندونيسيا رايا التي كانت ستضم شبه جزيرة ملايا، وقام سوكارنو، الناشط البارز من أجل استقلال إندونيسيا، بزيارة ملايا في ظل الاحتلال الياباني للاجتماع بقادة الرابطة. لكن الشكوك في هذه الحركة الاستقلالية الوليدة ساورت أكثر الملايويين، وتمنوا انتصار الحلفاء في الحرب على كل من المحور الألماني والإيطالي والياباني. رحبوا كذلك بمشاركة الأمريكيين ورأوا فيهم محررين.

في الواقع، كان أكثر الملايويين شديدي الإعجاب بالولايات المتحدة، وأنا نفسي كنت أفزع من الأمريكيين الذين لم أرهم إلا على شاشات السينما قبل الحرب كانوا أشخاصة عظيمي القامة يحاربون الهنود في أفلام رعاة البقر وينتصرون عليهم دائمة. كنت أصق لرؤية الهنود وهم يصرخون ويسقطون عن جيادهم بعد إطلاق الرصاص عليهم مثل قناني البولينغ الخشبية ويموتون، ولم تعد هذه الأفلام مستساغة اليوم. وتبدلت الأدوار وكذلك مواقف منتجي الأفلام ومشاهديها، ولم يعد مستغربة في نظر الغربيين تصوير الأمريكيين الأصليين والزنوج كأبطال، كما قل ميلنا هذه الأيام إلى الهتاف للأمريكيين وهم يطاردون أعداءهم ويقتلونهم في العالم أجمع بعد الغزو الياباني، شلت حكومة قدح، وأصبح جمبع أشقائي وأصهاري الذين كانوا يعملون لدى حكومة الولاية عاطلين عن العمل، ومع أن دولار المضيق بقي قيد التداول، فقد استنفدنا في وقت وجيز كل المال الذي كان في حوزتنا.

توجب القيام بشيء وبسرعة، لذلك قرر أشقاني بيع ثمار الموز في الشارع، ولم نكن نملك منجرة ولذلك فرشنا الخضر على الطريق في

شارع بيكان ملايا وعرضنا الموز للبيع، وزادت ندرة الطعام على الرغم من جهودا وبدأنا بحذف الوجبات، ولم يمض وقت طويل حتي افتقرنا.

تألف طعامنا اليومي من الأرز والقريدس المتبل بالكاري واللوبياء الطويلة، وعشنا قريبا من الشاطئ ولذلك كان القريدس وفيرة ورخيمة. ومع ذلك، كنت أكل الأرز المتبل بالكاري واللوبياء أولا، وأترك القريدس للقوات الأخيرة، واعتدت طوال سنين بعد ذلك تناول طبقي المفضل آخرة وقل المتوافر من اللحوم والدجاج، وفقد الشاي والبن، والأهم من ذلك كله فقدان السكر، ومن حسن الحظ أن الأرز كان متوافرة بكثرة في قدح، حتى إنه في المرحلة الأولى للاحتلال الياباني، قاضت كميات الأرز لتعذر نقله إلى مناطق ملايوية أخرى.

ومع ذلك، كان طعامنا فقير وعاني عدد من الأشخاص مرض البري بيري الذي جعل الأجساد تنتفخ، وظهرت على أجساد آخرين جروح متقيحة، وأصيب بعض بالحمى وقضى نحبه. وخشي والداني أصابتنا بالحمى لعدم توافر الدواء اللازم، علما بأن علاجه الوحيد كان وضع كمادات مبلولة بالماء البارد، أو الاستحمام بمياه ساخنة بعد غليها مع أوراق عشبية وفي هذه الأثناء، أرغم اليابانيون عمال السكك الحديدية الملابوية والمدنيين الآخرين على الانضمام إلى قوة عاملة بنت ما اشتهر بالاسم القبيح سكة الموت في بورما لنقل الجنود والأسلحة والمعدات الحربية الأخرى إلى الجبهة الهندية.

وتعين على المجندين العيش والعمل في أدغال تعج بالبعوض ولا يتوافر فيها غير القليل من الطعام، أو الماء النظيف، أو المكان اللائق للنوم. لذلك، قضى كثير من الملايويين نحبهم في أثناء العمل على بناء

السكة الحديدية تلك. وعندما وضعت الحرب أوزارها، عاد الناجون من بورما سيرا على الأقدام، وأقام عندنا بضعة أيام عدد قليل من الأقارب والأصدقاء ممن عملوا في بناء السكة الحديدية قبل أن يواصلوا مسيرتهم إلى منازلهم سيرا على الأقدام. عانوا الهزال والمرض، وانتشرت الجروح المتفتحة على سائر أجسادهم.

ومن نعم الله أنهم ما إن نعموا ببضعة أيام تمتعوا فيها بطعام مغذ ونوم مريح حتى بدؤوا بالتعافي من أمراضهم بما أن المدارس أغلقت أبوابها في الأيام الأولى للاحتلال، فقد لزمت منزلي، فتشت المنزل وعثرت على كتب من مكتبة القارئ العائدة لوالدي وكنت قد قرأتها سابقا، لكني قرأتها من جديد بما أنه لم يكن لدي عمل آخر أفعله، ووجدت في وقت لاحق بعض المجلات المهنية الأمريكية التي رماها أحدهم، ربما خوفا من اعتراض اليابانيين عليها، واعتقادا مني بأن الجنود سيكونون مشغولين بأمور أهم، أخذت كل تلك المجلات إلى المنزل وقرأت كل صفحة فيها من أولها إلى آخرها. قرأت بنهم كل ما وقعت عليه بداي باستثناء كتاب ضخم عثرت عليه عنوانه اليهودي التائه (The WonderingJew).

يتحدث الكتاب عن المصائب التي نزلت بكل مجتمع بنطبق عليه عنوان الكتاب، لكنه كان مم، وطويلا جدا، إلى حد أنني لم أستطع إكماله على الرغم من عزمي على ذلك، ويبقى الكتاب الوحيد الذي لم أتمكن طوال حياتي من الانتهاء من مطالعته خضعت قدم لإدارة ما اعتقد أنه ضابط عسكري يا باني رفيع لقبه تشو كائغ كاكا. توجب على سكان أنور ستار التجمع في غزة كل شهر أمام محكمة باهانغ في

حقا فبالة المحكمة القديمة ليتسنى لتشو كانغ كاكا إلقاء كلمة حماسية طويلة باللغة اليابانية يخاطب بها الحشود. ومع أنني ملم باللغة اليابانية بعض الشيء، لم أفقه من كلامه شيئا سوى إشارته إلى إي بي كوكيو أي أمريكا وبريطانيا. عرفت أن اليابانيين يريدون منا أن نكره البريطانيين والأمريكيين، لكني لا أعتقد أنهم استطاعوا التأثير في الناس.

على الرغم من مخاوفنا السابقة وندرة الطعام، ثم نكن الحياة قاسية بالنسبة إلينا تحت حكم اليابانيين كما كانت بالنسبة إلى بعضهم، المشكلة الأساسية هي أن الإحساس بالانقطاع عن العالم أصابني بالاكتئاب. ولا أقصد بذلك القول إنني كنت كثير السفر، ولكن تعذر علي الاطلاع على الأخبار التي اعتدت قراءتها بانتظام في الصحف المحلية. ولقد افتقدت بالفعل المجلات التي وجدت متعة كبيرة في قراءتها في مكتبة المدرسة.

حاولت متابعة مجريات الحرب من خلال الصحيفة الصغيرة سيونان شيمبون (syonan Shimbun) التي كانت تصدر في سنغافورة باللغة الإنكليزية). في البداية، وفي أثناء تقدم اليابانيين على الجبهات كافة، بدا أن أحدا لا يستطيع إيقافهم. احتلوا بابوا غينيا الجديدة والظاهر أنهم عزموا على غزو أستراليا، وتوغلوا في بورما إلى أن بلغوا في النهاية إمنال عاصمة مانيبور، وبذلك فتحت الطريق أمامهم وباتت الهند في متناول أيديهم ثارت ماسة كثير من الهنود في ملايا من إمكانية القتال إلى جانب اليابانيين التحرير بلادهم، ولم يسع البريطانيون إلى تجنيد الهنود في القوة الفدائية المناوئة لليابانيين لعدم ثقتهم بولائهم، وأنضم عدد من الهنود الملايويين في النهاية إلى الجيش الوطني الهندي الذي

شگله سو بهاس شاندرا بوسي" ور اس بيهاري بوسي لانتزاع استقلال الهند بقوة السلاح بالتنسيق مع اليابانيين.

كما أضحت عامة جزر المحيط الهادئ تحت الاحتلال الياباني بحلول ذلك الوقت، سمحت سيام بدخول الجيش الياباني بعد أن قررت حكومتها الوقوف في صف اليابانيين؛ لذلك ثم تقع أضرار بسبب الحرب في سبام. وفي الوقت عينه تقريبا قررت سيام اتخاذ الاسم تايلاند وتعني أرض الأحرار، ومكافأة لها على مساندتها، قرر اليابانيون نقل الولايات الملايوية الشمالية الأربع إليها وهي قدح وبيُرليس وكلانتان ويرينغانو. لم يشعر تونكو بادلي شاه، سلطان قدح، بكثير من الأسى على ذلك، فقد تلقى علومه في بانكوك تحت وصاية الملك السيامي، وعندما أصبح النقل ساري المفعول، اتصل هاتفية برئيس الوزراء السيامي. لا أحد يعرف على التحديد ما قاله في أثناء تلك المحادثة.

لكن لم تبرز معارضة صريحة للتايلانديين عندما تسلموا مقاليد تلك الولايات من اليابانيين. كان الملايويون لا يزالون يسلمون بإمكانية عيشهم دائما تحت حكم أجنبي وبعد وقت وجيز، رابت يزات الخدمة العسكرية والمدنية التايلاندية في أنور ستار لأول مرة، كانت مصنوعة من الحرير بما أنه القماش الوحيد المُتَاح في الحرب، إرتدى الجنود بزات خضراء بينما ارتدى الموظفون المدنيون بنطلونات سوداء بوسترات بيضاء وبعد نيل الاستقلال، أعتمد تونكو عبد الرحمن اللباس الرسمي ذاته، وأضاف وزراء وحكام بينانغ إلى زيهم قبعة مصنوعة من الفئين تعلوها ريش نعام شبيهة بالقبعات التي كان يرتديها الحُكام البريطانيون. وبدت أشكالهم مثيرة للسخرية إلى حد أنهم استعاضوا عن غطاء الرأس

هذا بالسونغكوك.

امتعضت من طريقة نقل اليابانيين المتعجرفة سلطة قدح إلى التايلانديين، وبدا لي أن قدح والولايات الشمالية الأخرى ليست سوى عقارات يمكن نقلها مثل الممتلكات الشخصية. ولم يكن لنا نحن الملايويين رأي في ما حصل لبلادنا، ولم تكن لنا أي قيمة تُذكر، عندئذ تفطنت إلى هويتي وتبلورت لديَّ كراهية الحكم الأجنبي، وأردت أن يكون الملايويون موضع احترام.

وفي أثناء الاحتلال السيامي لولاية قدح، عاش الملايويون على خوف من أن تُختطف بناتهم من قبل الجنود السياميين، ولا يزال الملايويون إلى اليوم شعبا شديد التمسك بالخرافات، فقد اعتقدوا في الأزمنة الغابرة أن السياميين يملكون قوى سحرية خارقة.

وسرت أحاديث بأن فتاتين أو ثلاث فتيات ملايويات هجرن أسرهن وتحولن في الظاهر إلى الديانة البوذية، ومع أن أحدا لم يستطع التثبت من هذه القصص، فقد أشاعت قلق وخوف شديدة، ولو وضعنا هذه القصص جانبا، لم يؤثر الحكم التايلاندي في حياتنا في أثناء الحرب، بل إنهم سمحوا في الواقع لمجلس ولاية قدح باستئناف نشاطه وإدارة دفة الولاية.

على أنه وقعت حادثة واحدة أغضبتني كثير؛ إذ أصر التايلانديون عند إنزال علمهم كل مساء وعزف نشيدهم الوطني على أن يقف الجميع بلا حراك كعلامة على احترام رموز الدولة التايلاندية، وبينما كنت أمشي في إحدى الأمسيات بجوار مركز شرطة ألور ستار. سمعت عزف النشيد التايلاندي ولذلك تسمرت في مكاني. كان في الشارع عدد من الجنود

التايلانديين يحرسون، فالتفتوا لمراقبة العلم التايلاندي وهو ينزل ببطء على سطح مركز الشرطة، ثم ظهر رجل مسن على دراجة وواصل سيره ببطء لأنه لم يسمع النشيد على ما يبدو أو لم يلاحظ وقوف مَنْ في الشارع في مكانه. وما إن انتهى عزف النشيد حتى جرى جندي تايلاندي خلف العجوز وسدد إلى صدغه لكمة قوية، فسقط مع دراجته وتمدد بلا حراك في الشارع.

يتعين عليَّ الاعتراف بأني كنت جبانا ؛ لأني وقفت في الشارع وضعفت مما حصل ولم أحرك ساكنا. وبدا كما لو أن الجندي التايلاندي يُريد لكم الرجل مرة أخرى، لكنه صاح بالتايلاندية عوضا عن ذلك واستدار ومشى متبختر، لا أذكر ماذا حصل بعد ذلك.

وفي النهاية، هب بعض الأشخاص لمساعدة العجوز على النهوض، لكني بقيت واقفاً جامداً في ما كانت أنواع الأفكار كافة تجول في خاطري. والشيء الغريب أنني لم استشط غضبا من ذلك الجندي، وإنما امتعضت لقدرة الأجانب على ضرب شعبنا وعدم قيامنا بشيء حيال ذلك. كنا شعب لا حقوق له، ويمكن ركله بكل ما في الكلمة من معنى، ولا تزال تلك الحادثة مطبوعة على نحو لا يُمحى في ذهني، ولا أستطيع إلى يومنا هذا حكاية هذه القصة من دون أن تتأجج مشاعري، ومع ذلك، لم أبدأ بالتفكير في الاستقلال؛ إذ كانت فكرة دخيلة وغريبة جدا، وتمنيت ببساطة أن ينهزم اليابانيون وأن يرحل التايلانديون عن قدح أو سايبوري كما كانوا يسمونها، تمنيت أن يرجع البريطانيون ويستأنفوا حمايتنا، ونسيت حينذاك أن البريطانيين أبعد ما يكونون عن حمايتنا وأنهم في الواقع تخلوا عنا.

مع عدم وجود شيء يشغلني، أقنعني بعض بعد مدة بالالتحاق بالمدرسة اليابانية نيبون غاكر وأنا في السابعة عشرة، أدارت المدرسة عجوز يابانية متزوجة بأوروبي، وكان زوجها معتقلا وكان لديها ابنة جميلة اسمها نورا وقع في غرامها جميع الفتيان. وأذكر أن طالباً كبيراً من مدرسة معهد محمود الشرعي، واسمه سيد عباس الحبشي، عُين گو ميشو، أو عريف الصف، وأصبح فوكوشو أي الرقم اثنين.

حاولت أن أدرس اليابانية لكني لم أتيم بها، واعتقد أن البريطانيين سيعودون في النهاية ولن تعود اللغة اليابانية علي حينئذ بأي فائدة، كم كنت مخطئاً. وبعد الحرب، ما من مرة زرت فيها اليابان إلا وتأسفت على عدم قدرتي على التحدث باليابانية. كانت ستعتبر رصيداً لي، وبخاصة عندما كنت في الحكومة وتوجب عليّ التعامل مع رجال الأعمال والمسؤولين الحكوميين اليابانيين.

الشيء الذي أعجبني في المدرسة اليابانية كان (راديو تايشو)، أو التمارين التي نتدرب من خلالها على عزف الموسيقى واتباع التعليمات التي تذاع عبر الراديو، وفي الصف، كان الأستاذ يتوقف عن التدريس في أوقات معينة أيضا لأداء التمارين التنفسية التي ساعدتنا على البقاء يقظين ومصغين، كما تضمنت التمارين الجري مسافات طويلة في تشكيل عسكري. ستشعر بتعب أقل عندما تقرع أقدام كثيرة إيقاعا معيناً. كنت أركض بشجاعة في مقدمة المجموعة، من غير أن أتمكن من البقاء في الطليعة في العادة.

لم أكن قويا من الناحية البدنية يوما، وأنا لا أتمتع، ولم أتمتع يوما، بالبنية العضلية التي أعجبتني في الصبية الآخرين. لكني أتمتع بقوة

الاحتمال، وإذا كنت تقوم بعمل تحب القيام به، فلن تتعب منه أبدا.

ويمرور الأيام، وبخاصة بعد الاستقلال وبعد أن أصبحت وزيراً، ترسخ إيماني بالمساهمة الإيجابية في الانضباط الذي علمه لي والدي أولا، وقراه التدريب في المدرسة اليابانية.

أعتقد أن في وسع كل إنسان فعل شيء ما إذا كان منضبطاً في قيامه بعمله على الوجه اللائق، الانضباط يعني سيطرة المرء على رغباته الأساسية أو تغلبه عليها، مثل الغش أو الكسل، ليتسنى تحقيق النتائج المناسبة أو الأهداف المنشودة. وقد كان للانضباط دور كبير في حياتي مساهماً بجميع النجاحات التي ربما حققتها تركت المدرسة اليابانية لأكسب لقمة عيشي ببيع الأرز والكاري مع أصدقائي في مطعم في مبنى حكومي؛ حيث تمركزت الشرطة العسكرية اليابانية، وفي أحد الأيام، أمرونا بالمغادرة وألقوا طاولاتنا وكراسينا في مصرف خرساني قريب حتى قبل أن يتسنى لنا الوقت لتفريغها من محتواها. ثم أقمنا كوخاً في بيكان رابو، السوق الأسبوعية في ألور ستار، لبيع ماء الزنجبيل والحلوى الملايوية كان لدي ثلاثة شركاء أصبح أحدهم مهندساً، والثاني أمين سر المنظمة الملايوية الوطنية المتحدة (أنتو) مدة من الزمن، والتحق الثالث بالسلك الحكومي في قدح وهو متقاعد الآن. ثم بعنا الكوخ في وقت لاحق وبدأت ببيع الموز والفواكه الأخرى في بيكان رابو، كما أشتغلت في قلي فطائر الموز وبيعها، فضلا عن بيع الحطب وسلال القصب ومنتجات خيزران الراتان.

وكنت أنتقل بالدراجة إلى غورون التي تبعد نحو 33 كم عن البلدة لشراء منتجات القصب من رجل صيني كان يصنعها بنفسه، وعندما

حصل شقيقي مهدي على بعض ثمار التمر الهندي المجففة من تايلاند، ساعدته على بيعها في متجر تمويني يملكه أحد المسلمين الهنود. أعتقد أني أبليت بلاء حسنا في تجارتي الصغيرة. ولا شك في أنني كنت أفضل حالا من أشقائي الذين بقوا يحاولون العمل لدى الحكومة

كما أقمت صداقة مع هندي شمالي مسلم كان يبيع الأحجار الكريمة، بما في ذلك بعض قطع الألماس الصغيرة، وضع سعرة على إحداها فالتقطها لأمعن نظري فيها، عرفت القليل عن الألماس لكني لاحظت أن هذه القطعة لا تعكس الضوء جيدا، جازفت في تخميني وقلت هناك خطب ما في هذه القطعة.،عندئذ أقر بارتباك بأن فيها عيبا، فشعرت بفخر شديد مع أنني لم أتفطن إلى حقيقة ذلك العيب. زاد احترامه لي بعد ذلك، وعلمني كيف أغش قليلا عندما أقيس القماش بعصا طولها ياردة، والفكرة هي بدس قطعة القماش بين أصابعك كي تبدا بالقياس بعد مسافة قصيرة من نقطة البداية، بشرط أن تقوم بذلك بخفة. تعلمت أيضا كيفية استعمال ميزان صيني أسمه كاني، وكيف أضغط على القضيب الأفقي المرقم بالخنصر لزيادة الوزن.

ربما تبدو التجارة التي اشتغلت فيها صغيرة وغير ذات أهمية الآن، لكني تعلمت الأساسيات. ولاحقا عندما كتبت المعضلة الملابوية المرشد إلى التجارة الناجحة، اقترحت استخدام آلات ذات صينيتين لوزن البضاعة مقابل أثقال محددة الوزن ؛ إذ لا يمكنك الغش باستعمال هذه الموازين، فوزن الثقل مكتوب علية ويمكنك التحقق من هذه الأثقال بسرعة بمقارنتها ببعضها على الميزان، ولا يمكن مفتش الأوزان الحكومي التغاضي عن أي تلاعب في هذه الموازين. هناك كثير من الأمور الأخرى

التي تعلمتها من العمل في تجارة صغيرة في أثناء الاحتلال الياباني وانتفعت منها كثيرا حين توليت مسؤوليات متزايدة في حياتي، بما في ذلك إدارة الحكومة وشركاتها الكثيرة.

لم يتوافر في أثناء الاحتلال الياباني إعانات ولا دعم حكومي من أي نوع، فإذا لم تجتهد في عملك لكسب لقمة عيشك فسوف تتضور جوعا بالمعنى الحرفي للكلمة. كافحت كثيرة وكذلك فعل أصدقائي، وحرصت على ألا أكون مديناً بشيء لأحد، كرهت الاستدانة ولا زلت أكرهها فالدين يحرمني من النوم وغداة انتهاء الحرب، كنت قد أدخرت ما يكفي من العملة اليابانية.

بحلول سنة 1943م، اتضح أن الحرب لا تسير كما يشتهي اليابانيون وإذ تباطأ اندفاعهم إلى أن توقف في النهاية، توقفت مسيرتهم في بابوا غينيا الجديدة وفي جزر المحيط الهادئ النائية وفي بورما بالقرب من الحدود الهندية. وشنت قوات الحلفاء هجوما معاكسة، لكن دارت معارك وحشية تشبث اليابانيين بالأرض على شدة القصف والخسائر المرتفعة. أنهم يؤثرون الموت على الانسحاب، ولذلك لم يكن أحتلال مواقعهم ممكنة إلا بعد فناء قواتهم بالكامل تقريبا.

ومن حسن الحظ أن ملايا كانت بعيدة جداً عن جبهات القتال ولذلك بقيت آمنة نسبيا، بقيت أعمل في تجارة الموز في پيكان رابو، لكني لاحظت أن أعمار الجنود الذين يترددون باستمرار كانت تقل شيئا فشيئا، وباتوا أميل إلى التصرف كمراهقين مرحين منهم إلى التصرف كجنود. ولم يكن في وسعهم الانتظار لتناول الموز الرخيص فكانوا يؤثرون الجيد منه، وكانوا يأكلونه بين الحين والآخر. وبلتهمونه بلمح البصر.

تابعنا مجريات الحرب عبر التقارير التي نشرتها صحيفة سيونان شيمبون، ومن غير المفاجئ أنها انحازت إلى مصلحة اليابانيين، لكنها لم تستطع إخفاء حقيقة أنهم ما عادوا يستطيعون إحراز أي تقدم، كما حصلنا على الأخبار من بعض الأشخاص الذين كانوا يستمعون إلى المحطات الإذاعية التابعة للحلفاء، كانت عملية خطرة، لكن المستمعين جازفوا وأذاعوا أي أخبار تناهت إلى أسماعهم، علمنا بشأن تقهقر الألمان في روسيا وأوروبا الشرقية.

وتمكنت من الحصول على خريطة لهذا الجزء من العالم من أطلس مدرسي قديم فاستطعت متابعة تقهقر الألمان، وعرفت أن المحور الألماني الإيطالي يتهاوى وأنه سيخسر الحرب؛ فالإيطاليون خسروا شمال أفريقيا، والمارشال إرفين رو مل وفيلقه الأفريقي الذي تسلم مسارح القتال من الإيطاليين، لم يستطع الصمود أمام هجمات الحلفاء

مع تقدم الحلفاء على مسرح المحيط الهادي. حلقت قاذفات فوق أنور ستار وفوق أجزاء أخرى من ملايا وأسقطت منشورات أذاعت نبأ تقهقر اليابانيين وهزيمة البحرية اليابانية في معركه ميدواي، بدا جليا أن الحكم الياباني لن يستمر طويلا، شعرت أنه لم يكن هناك مسوغ لتعلم اللغة اليابانية، ثم جاء يوم عندما هرع شقيقي مشهور إلى المنزل وأنا أستحم وقال لي بصوت عال إن قنبلة ضخمة قد أسقطت على هيروشيما، سمع الخبر من شخص احتفظ بمذياع خلسة، وكنت قد قرأت عن القنبلة الذرية في عدة مجلات فاستنتجت على الفور أنه لا بد من أنه أسقطت واحدة من هذه القنابل على هيروشيما وأخرى على نجازاكي بعد ذلك.

كل ما فكرت فيه هو طريقة استسلام اليابانيين. ذلك أنه لن تتسنى لهم فرصة لتطبيق سياسة الأرض المحروقة في أثناء تقهقرهم في ملايا كما هددوا. نجونا من ذا التدبير، وهذا ما كان يعنيني، لم أعرف شيئا عن تأثيرات الغبار الإشعاعي الذري وقتئذا.

بل لم يعرف أحد عنها شيئاً. وحتى الولايات المتحدة أفترضت أن المرء سيكون في مأمن مادام أنه على مسافة بعيدة ولم يتعرض لتأثير الانفجار بشكل مباشر ولم تكتشف تأثيرات الغبار الإشعاعي الذي على المدى البعيد إلا في مرحلة متأخرة جدا عندما عانى الذين تعرضوا للإشعاع في هيروشيما ونغازاكي أمراض الإشعاع وأصيبوا بأنواع مختلفة من مرض السرطان.

هل كانت الولايات المتحدة ستحجم عن استعمال الأسلحة النووية لو أنها عرفت مدى طاقتها التدميرية؟ وهل استخدمت القنابل النووية لأن العدو ياباني وليس أوروبيا؟ كان قصف الحلفاء الشامل للمدن الألمانية مثل دريزدن مدمراً بلا شك، لكني لا أعتقد أن الأوروبيين فكروا في إيصال جنس من أجناسهم إلى ذلك المصير الفظيع.

لكن القنبلتين الذريتين أرغمتا اليابانيين على الاستسلام. لم يصدق القادة الميدانيون اليابانيون، الذين لم يعرفوا مدى الدمار الذي ألحقته القنبلتان، أن بلادهم يمكن أن تستسلم. أرادوا مواصلة القتال، ولذلك اضطر إمبراطور اليابان إلى إرسال الكونت نيروشي، أحد المسؤولين في البلاط الإمبراطوري، لنقل قرار الاستسلام إلى القادة اليابانيين في جنوب شرق أسيا، لكن الجنود اليابانيين آثروا الانتحار الجماعي في عدد من الأماكن على تحمل ذل الهزيمة.

سُررت كثيرة لانتهاء الاحتلال الياباني؛ لأن ذلك عنى أنه صار في استطاعتي العودة إلى المدرسة، وبما أنني لم أستطع الانتظار، دخلت مبنى المدرسة عنوة وأشعت الخراب فيها بتوقيع اسمي بقطعة من الفحم على جميع جدران قاعة الاجتماعات.

شعرت أنني مثل زورو وأنا أكتب الحرفين الأولين لاسمي في كل مكان، كان ذلك عملا صبيانياً. وعندما فتحت المدرسة أبوابها أخيرا، وبخني أحد أساتذتي ويدعى السيد ليم شين شي بقسوة وأمرني بإزالة آثار فعلتي، لكن ذلك لم يخمد إثارتي، ولا سيما أنني عرفت بعد وقت وجيز أن أوراق امتحان كامبريدج للسنة التي تسبق التخرج. والذي خضعت له قبيل نشوب الحرب، قد وصلت إلى إنكلترا، أما وقد انتهت الحرب، فقد أذيعت نتائج الامتحان وعرفت انني في عداد الناجحين.

لقد عايشت حرب، حرب عالمية، وعايشت جيشين أجنبيين احتلا بلادي. كانت تجربة غريبة وفريدة تركت في أثارا عميقة بددت كثيرا من تصوراتي للأشياء وعددا من معتقداتي، فالرجل الأبيض لم يكن عصباً على الهزيمة بقدر ما كنت أتصور، ولم يكن ذكيا بقدر ما كنت أعتقد، كان بالإمكان التفوق عليه في الذكاء وقهره.

سرى في أعماق نفسي إحساس جديد، وأصبحت أكثر تفطنا إلى جذوري وإلى انتمائي الملايوي، صرت أمتعض من الدوس على كرامة شعبي ووطني وإذلاله. رأيت كيف احتلت الدول التابعة للدول القوية على مر التاريخ واستعمرت ونقلت من بلد إلى آخر متى شاء المستعمر، ورأيت أيضا كيف أنه لم يكن للملايويين كشعب اعتبار، وأن أراضيهم مجرد عقارات تتم المتاجرة بها بالمعنى الحرفي للكلمة أو منحها خدمات

أصداها أجانب إلى جانب آخرين، بل كيف طرد الملايويين وعوملوا بلا شفقة لعدم رضوخهم للآخرين لم تتبلور هذه المشاعر المتنوعة في لحظة واحدة أو تتضح على الفور، ولكن تطورت ببطء، من دون تسلل أو ترتيب، لكنها أسهمت في دفعي إلى معترك السياسة بالتزام راسخ.

## لحظات اليقظة

قُرأ نبأ استسلام اليابانيين في الصحف بعد نيف وأسبوع على حصوله، وكرمز على استلام اليابانيين، سلم الجنرال نو مويو كي با ماشينا نمر ملايا، سيف الساموراي للأدميرال اللورد لويس ما وثباتن على درج دار العدل في سنغافورة في 13 أيلول/سبتمبر. وحرص البريطانيون، على الإسهاب في عرض هزيمة اليابانيين ومنحها تغطية واسعة وتجمع عدد كبير من الصينيين المحليين لمشاهدة أحتفال في ميدان مقابل دار العدل، وكانت أحاسيسهم واضحة: لقد خسر اليابانيون البغيضون وهذا جزاؤهم، كان ذلك يعني أن الصين، ولبست ملايا فقط، تحررت من اليابانيين ومن ناحية أخرى، بدا الملايويون غير متأثرين بالاستسلام، أي إنهم اكتفوا بالنظر إلى المشهد العظيم المهيب. لا أذكر أنني أحتفلت بالمناسبة، ولا أظهر أصدقائي والناس الآخرون غبطتهم في ألور ستار، ويصح أن يقال إن بلادنا تحررت من احتلال اليابانيين، لكن ذلك في نظر الملايويون ليس سوى تغيير أخر للأسياد المستعمرين. سررنا لانتهاء الحرب، وهذا كل ما في الأمر، ووقعنا من جديد تحت حكم البريطانيين.

كل ما كنت أستطيع التفكير فيه هو العودة إلى المدرسة، أصبحت في التاسعة عشرة يومئذ واشتقت إلى رفقة أصدقائي وزملائي في المدرسة الذين عاد كثير منهم إلى قُراهم في أثناء الحرب، منهم صديقي الحميم

عزيز زين الذي كان يقيم بالقرب من منزلي؛ إذ أصيب بحمى وهو في السادسة عشرة ومات، لم يكن العلاج الطبي متاحاً في ظل الاحتلال الياباني.

ما إن أعادت المدرسة فتح أبوابها حتى عدت إلى الصف التاسع، أذكر أننا تجمعنا في الصف في اليوم الأول، لم يرتدي أكثرنا لباس المدرسة، وهو عبارة عن بنطلون قصير أسود وقميص أبيض. وعندما تسنى لنا الحصول على لباسنا الرسمي لاحقاً، لم تستطع أسرتي تحمل تكلفة شراء قمصان قطنية لي، ولذلك ارتديت قمصاناً قصيرة الأكمام عوضاً عنها، وبقيت على هذه الحال طوال الوقت المتبقي من العام الدراسي.

أذكر جيداً مدرس الصف واسمه السيد زين رشيد، كان رجلاً رائعاً يتكلم الانكليزية متتبعاً أدق تفاصيلها، كما عاد جميع أساتذتنا القدامى أيضاً، ما عدا السيد أم. فيا موثو، مدرس الجغرافيا الذي قضى في الحرب.

عين السيد جاي. أف. أوغستين، أكبر الأساتذة سناً، ناظر المدرسة مؤقتاً. كان من الفيليبين ولديه أسرة كبيرة كافية لتشكل فريقاً لكرة القدم. كما درس السيد أوغستين اللغة الإنكليزية، وكان يمنحني على عملي علامات عالية دائماً، وهو الذي جعلني رئيس «جمعية الأدب والمناقشة» ومحرر مجلة المدرسة «دار الأمان». أول مقالة افتتاحية كتبتها في المجلة كانت تعليقاً على الحرب واليابانيين افتتحتها بمقدمة فخمة بدايتها «جرت مياه كثيرة أسفل الجسر» لأظهر مدى إتقاني للغة الإنكليزية، لكن السيد أوغستين رأى أنها عبارات منمقة، ربما لأنني

أصررت على استعمال كلمات طنانة، ولذلك توجب عليّ تنقيحها.

بقي ناظر المدرسة لبضعة شهور فحسب وخلفه شاب إنكليزي هو السيد جي. إي. ماريسون. مع أنه كان في أواخر العشرينيات من عمره، فقد اعتبر الأرفع من بين سائر الأساتذة الملايويين، وكان عالماً باللغات استطاع تعلم اللغة التاميلية بسرعة مذهلة بالتحدث إلى الباعة في المطعم، ثم أصبح كاهناً بعد سنين قليلة وحضرت سيامته في كاتدرائية سان أندرو في سنغافورة وأنا طالب في كلية الطب.

لم أشارك في الألعاب الرياضية كثيراً لأني لم أبرع فيها، فحتى في لعبة كرة القدم عليك أن تعرف كيف تمرر الكرة إلى لاعب آخر، لكنني مارست لعبة الرجبي، فهي لا تتطلب مهارة ولكن تتطلب استعداداً للتعرض للإصابة، لا أعتقد أنني كنت لاعباً ماهراً، لكن كان في استطاعتي التقاط الكرة بيدي والجري، استمتعت بالتدافع وتكاتف اللاعبين. كنت عضواً في فريق كلية الطب أيضاً ولاعب احتياط في فريق الزرق في سنغافورة، مع أنه لم تسنح لي فرصة للعب.

لم تكن الكتب المدرسية متاحة انتهاء الحرب، فتوجب علينا تقاسم الملاحظات وأي كتب قديمة في حوزتنا، دمر اليابانيون مختبر العلوم أيضاً، ولذلك لم تبدأ المدرسة بتدريس مواد العلوم، وكل ما عرفته منها إنما تعلمته قبل الاحتلال الياباني، وقد شكل ذلك عائقاً أمامي في مرحلة لاحقة عندما درست الطب، لكن عدم القدرة على دراسة العلوم لم تشكل لي مشكلة حينئذ، فلم أكن أعرف أنني سألتحق بكلية الطب، بل إنني لم أتصور أنني سأصل إلى مرحلة التعليم العالي بأي تخصص كان.

الرياضيات هي المادة الدراسية المفضلة لدي، ويزعجني كثيراً أن

أرى أبنائي وأحفادي يعتمدون على الآلات الحاسبة ولا يجرون حسابات ذهنية، كان والدي شديد التدقيق في مادة الرياضيات وكان يدرسني وشقيقي إياها في المنزل. إن المهارات الحسابية ضرورة مطلقة في الحياة، وبخاصة في عالم المال والأعمال. ظننت أن نشأة الصبي الصيني خلف منضدة محله التجاري حيث يحسب باقي النقود تجعله أمهر من غيره في الرياضيات، بينما لا يحتاج الصبي الملايوي الواقف أمام المنضدة إلى إجراء أي عملية حسابية بعد شرائه حاجته. وربما كانت حجتي تبسيط المسألة، لكن حساب باقي النقود بشكل متكرر لا بد من أن يجعل الصيني العادي أمهر في الرياضيات من نظيره الملايوي. وأنا شخصياً لم أكن أحسب ما تبقى لي من نقود بعد شرائي حاجاتي من المحلات المحلية.

عندما كنت شاباً يافعاً، اعتدت سماع صاحب متجر صيني خلف منزلي وهو يهز معداده تفاؤلاً بالحظ السعيد عندما يفتح محله كل صباح، وقال لي أحد الأشخاص إذا كنت أول من يدخل متجر الصيني في الصباح، تستطيع تحديد أي سعر لمشترياتك لأنه يتشاءم من رفضه إتمام أول صفقة له في نهاره. قمت بالمحاولة وحددت ثمناً بخساً لشيء لا أذكر ما هو، فرفض صاحب المتجر بالطبع، واليوم بطل استعمال المعداد وأنا متأكد من أن أصحاب المتاجر الصينيين لا يهزون آلاتهم الحاسبة، لكني بقيت ملتزماً بالطريقة التجريبية المتمثلة في تجربة الأشياء والتحقق من صحة ما قيل لي.

بالعودة إلى المدرسة، عدنا إلى دراسة تاريخ الإمبراطورية البريطانية، ولم يكن المنهاج الدراسي الامتحان كامبريدج لما قبل التخرج قد تغي،

لكننا لم نناقش هزيمة البريطانيين على يد اليابانيين في الحرب. فالمفترض أن التاريخ يحدثك عن الماضي لا عن الحاضر، وهذا كان موقف الأستاذ على أي حال، وما زلت أرى مادة التاريخ ساحرة، ففيها كثير من الدروس لنستخلصها ونطبقها في زماننا.

لم أكن أتذكر تواريخ الأحداث التاريخية جيداً وما زلت؛ فأنا لم أشأ حشو ذهني بكثير من الأشياء، والتواريخ من بين الأشياء التي أخترت نسيانها، ومن دواعي الأسف أنني أنسى أسماء الأشخاص أيضاً، وهذا عيب في رجل سياسي ولا يمكن التسامح معه، لكنني كنت بارع في التاريخ في أيام المدرسة وحصلت على تقدير «ممتاز» في امتحان كامبريدج لسنة ما قبل التخرج. كما كنت بارعاً في مادتي الجغرافيا والرياضيات لانكبابي على خرائط البلدات والمدن الأوروبية في أثناء الحرب حيث دارت رحى المعارك الطاحنة.

ومع كوني اعتبرت طالباً جيداً، لم يحبني أساتذتي، ربما لأنني كنت «ماكراً»، كما يقولون. لم أكن طالباً مطيعاً، والطاعة هي كل ما ينظرون إليه عند اختيار الطالب ليكون رئيس الصف أو الطالب المثالي، ولم أعتبر طالباً مثالياً إلا قبيل تخرجي. وقد نصح لي الأستاذ ليم الذي وبخني من قبل لتخريبي الصف، بقبول المركز لأنه سيقوي حظوظي في نيل وظيفة أو الحصول على منحة دراسية.

مع العودة إلى روتين الصفوف المدرسية والدراسة، بقيت ذكريات الحرب تراودني، توقعنا جميعاً انتصار البريطانيين وانتظرت بشوق عودتهم إلى ملايا، لكن عودة هذه الذكريات ترافقت مع تحرر متزايد من الوهم المتعلق بالرجل الأبيض، فهو ليس المخلوق الذي لا يقهر كما

كنت أعتقد، وتأسفت لعدم معاقبتهم تايلاند لسماحها للقوات اليابانية بالنزول على شواطئها والزحف نحو المضيق البري كرا لغزو ملايا.

كما كانت هناك مسألة الولايات الملايوية التي اعتبرت محميات بريطانية قبل الحرب، كانت قدح في عدد آخر الولايات الملايوية التي قبلت بالحماية البريطانية في سنة 1909م. وهي أبرمت أيضاً تلك المعاهدات الخرقاء التي سلمت إدارة الولاية البريطانيين طالما بقيت «الشمس والقمر والنجوم» كما جاء في نظر المعاهدة، ولا يظهر أن الملايوبين اهتموا بدوام سريان هذه الاتفاقيات لأنهم لم يتصوروا مستقبلاً مختلفاً، تقبلوا بسرور بقاء الحكم البريطاني إلى الأبد وعدم التحرر منه.

الواضح أن البريطانيين فشلوا في حماية الولايات الملايوية وحكامها من الاحتلال الياباني. كان من المفترض أن يؤدي هذا الفشل إلى إبطال تلك المعاهدات، أو الدفع نحو إعادة التفاوض على بند بقاء البريطانيين إلى الأبد، لكن عندما عاد البريطانيون، تصرف الملايويون كما لو أن المعاهدات لم تزل سارية. خشي الحكام الملايويون. وبخاصة الذين ارتقوا العرش في أثناء الاحتلال الياباني، عدم اعتراف البريطانيين بشرعيتهم. وبما أنهم كانوا أبعد ما يكون عن التشكيك في بناء حقوق لبريطانيين في ملايا، بدوا شديدي التوق إلى الخضوع للحكم البريطاني طالما بقيت مناصبهم مضمونة.

قدم البريطانيون الذين تفطنوا إلى هذه الحقيقة اعترافاً مشروطاً بالموافقة على إبرام المعاهدات الجديدة في لندن في أثناء الحرب. كانت تلك معاهدات ماك مايكل سيئة الذكر التي دمجت الولايات الملايوية،

فضلاً عن مستعمرتي التاج (أي: إنهما مستعمرتان لا تتمتعان باستقلال ذاتي) بينانغ وملقا، في مستعمرة وحدة سميت الاتحاد الملايوي، منذ ذلك الحين فصاعدا، ستصبح من مستعمرات التاج عوضاً عن بقائها محميات بريطانية. وستقتصر مهام الحكام الملايويين على الإشراف على المسائل المتصلة بالعادات الملايوية والإسلام؛ وستفقد الولايات التي يتولى الحكام زمامها (عوضاً عن تولي حكمه) هويتها التاريخية وحقيقتها السياسية. وبموجب المعاهدات الجديدة أيضاً، ستضعن مراكز الحكام أنفسهم بدرجة كبيرة.

على أنه على الرغم من الإكراه البريطاني، رضوا بهذا الإذلال الذي طال كافة الملايويين وطالهم بوجه خاص. والواضح أن البريطانيين اعتبروا انتصارهم في الحرب فرصة وحقاً لتوطيد أركان إمبراطوريتهم. وفي النهاية، تشرشل هو القائل إنه لم ينتخب كي يشرف على تفكيك الإمبراطورية.

ربما كان الأهم من كل ما تقدم أن الاتحاد الملايوي سينشي دولة ملايوية وحدوية، ويؤسس كذلك المواطنة وحدوية أو متجانسة داخله للملابويين ولغير الملايويين على حد سواء. إن منح حقوق مواطنة متساوية للمهاجرين الصينيين والهنود سيعرض حقوق الملايويين في الأرض والفرص للخطر، وستتسع الفجوة في الثروة في ملايا تاركة الملايويين أفقر المجموعات في بلادهم.

كان رفاقي الذين عاشرتهم في المدرسة مهتمين بالسياسة ومحاربه الاقتراح البريطاني الأخير، كيف يمكن أن أتلهى عن دروسي بسبب هذه التطورات؟ بعد سلسلة من المناقشات في منزلي، اقتنع مجموعة شكلتها

بأنه ليس من حق البريطانيين فرض الاتحاد الملايوي من دون استشارتنا.
ومع أن بعض أعضاء المجموعة انسحبوا للتركيز على دراستهم، أرادت الأكثرية فعل شيء للاحتجاج على الاقتراح، منهم عزيز أحمد الذي نال لاحقاً شهادة مهندس ميكانيكي في المملكة المتحدة، وذو الكفل هاشم الذي أصبح لاحقاً الأمين العام للمنظمة الملايوية الوطنية المتحدة (أمنو)، وعثمان أبو بكر الذي لقبناه ب«الحصان» لأسنانه الناتئة.

في مطلع سنة 1946م، ضغط البريطانيون لإنفاذ اتفاقيات الاتحاد الملايوي. اعتقد أن للوقت أهمية قصوى، وأنه لا بد من فعل شيء، قبل أفراد المجموعة بي قائداً، وأحسب أن سبب ذلك اضطلاعي بدور أبرز بالبداية وإلحاحي على المجموعة بالتحرك. فلطالما احتقرت الأشخاص الذين يؤثرون الحديث بينما هم في وضع يتيح لهم العمل، كنت أسخر من شقيقي الأكبر مشهور الذي كان يتحدث دائماً عن رغبته في تربية الماعز أو الدجاج من غير أن يفعل شيئاً، ثم سألت نفسي ماذا عني؟ هذه قضية أتحمس لها، ماذا سأفعل بشأنها؟

تميز جيل والدي بحس قوي من الولاء للحكام، ومع أننا لم نناقش هذه المسألة على العموم مع كبار السن، كنا نتلمس إحساسهم بالولاء للملك، اعتقد الملايويون أن السياسة ليست من شأن العامة رعايا الحكام. وكانت امتيازاً للمثقفين في قصورهم، وليست للأشخاص العاديين في قراهم، وكان جيلي أول جيل أنكر القبول بحظر الخوض في السياسة، وإذ اعترفنا بدور الحكام، فقد حررتنا المعاهدات التي أبرموها مع البريطانيين من أوهامنا.

طالعت مجموعتنا الصحف بنهم بحثاً عن أي معلومة متصلة بالاتحاد

الملايوي، كما كانت الأنباء تصل إلى ملايا عبر الطلاب الملايويين الذين يتلقون علومهم في المملكة المتحدة. من هؤلاء طالب في كلية الحقوق معارض للاقتراح يدعى إسماعيل محمد علي الذي انقطعت به السبل في إنكلترا بسبب الحرب، كتبت إليه طالباً دعمه معارضة الطلاب الملايويين الاتحاد الملايوي. لم أكن أعرفه شخصياً، لكني قرأت عن الملايويين المحتجين في لندن والمقالة الصحافية التي تحدثت عنه. لم يرد على رسالتي، لكني التقيت به وتعرفت إليه بعد ذلك بسنين عندما أصبح عديلي ثم أول حاكم ملايوي لبنك نيجارا.

اتحدت الجماعة الطلابية التي شكلتها في كلية السلطان عبد الحميد مع طلاب «معهد محمود» الشرعي في مرحلة لاحقة، وهو أهم معهد أهلي يدرس العلوم الشرعية واللغة العربية. عرفنا أن الأساتذة والطلاب متوجسون من الاتحاد الملايوي مثلنا. وكان الناظر الشيخ عبد الحليم خريج جامعة الأزهر الشريف في القاهرة شديد العداء للبريطانيين. كما راسلت عدداً من الجماعات الملايوية الأخرى، منها جماعة في تانغكاك في ولاية جوهور والتي كانت ناشطة للغاية في معارضة الاتحاد الملايوي. وراسل الصحافة أيضاً، وبخاصة سترايتس تايمز (Straits Times) التي عاودت الصدور بعد الحرب. انتقدت في إحدى رسائلي استخدام اللغة الإنكليزية في مناسبات معينة وحاجج بأنه ينبغي اعتماد اللغة الملايوية عوضاً عنها، لكني تلقيت رداً بالغ القسوة من أحد القراء الذي اتهمني بمحاولة فرض اللغة الملايوية على الجميع.

بدا الطلاب غير الملايويين غير مبالين بما يجري، فلم يتفاعل الصينيون والهنود إيجابياً ولا سلبياً مع الإتحاد الملايوي. ففي النهاية،

سيصب الاتحاد في مصلحتهم لأن هدفه هو منحهم جميع الجنسية، وإن لم يكن جميعهم تواقاً إلى نيل الجنسية الملايوية. فقد دأب الصينيون على رفع الأعلام الصينية في احتفالات الصين وعرفوا أنفسهم بأنهم موالون للكيومينتانغ أي الحزب الوطني الشعبي الصيني. وفي هذه الأثناء، كان صينيو مستعمرات المضيق شديدي الولاء للبريطانيين إلى حد أنهم اعتبروا أنفسهم صينيي الملك. أرادوا في مرحلة معينة بقاء بينانغ حيث استقر كثير منهم خارج فدرالية ملايا لتبقى مستعمرة بريطانية.

ركز الهنود في الأساس على الأحداث التي وقعت في الهند، كانوا قد شكلوا في ظل الاحتلال الياباني الجيش الوطني الهندي للرجال وفوج جهانسي للسيدات، وأرادوا القتال إلى جانب اليابانيين على الحدود بين

بورما والهند، حتى إن كفاح الهند لنيل الاستقلال ازداد شراسة فور انتهاء الحرب؛ لذلك لم يشكل الاتحاد الملايوي أول اهتماماتهم السياسية.

مع فتور احترامي للبريطانيين وحبي لهم، ازداد نشاطي السياسي، وتذكرت من دراستي تاريخ المستعمرات الأمريكية في المدرسة حزب الشاي في بوسطن وشعار "لا ضرائب من دون تمثيل". وتكون لدي إيمان راسخ بأنه ينبغي التشاور مع الملايويين، وعلى وجه الخصوص سكان شبه جزيرة ملايا التي أبرم البريطانيون معها معاهدات، بشأن الخطط الخاصة بالولايات الملايوية. ولم تكن فكرة الاستقلال قد تبلورت في ذهني بعد، وفي الحقيقة، عندما فاتحني تونكو بفكرة الاستقلال أول مرة، اعتقدت أننا لسنا مهيئين بعد، اعتقدت أن البريطانيين لا

يزالون مؤهلين لحكمنا، وجل ما أردته منهم هو احترام مكانة الملايويين وحقوقهم.

إذا أضحي الاتحاد الملايوي أمراً واقع، سيعني ذلك أن أراضي الملايوتين ستصبح مستوطنة دونية خاضعة لحكم الاستعمار البريطاني، وتصبح الجنسية من حق كل من فيها. وبما أن مشروع الاتحاد خلا من بند يشترط التنازل عن الجنسيات السابقة، سيمتلك الصينيون والهنود وغيرهم جنسيتين من الناحية الفعلية، بينما لن نتمتع نحن الملايويين سوى بجنسية واحدة هي جنسية الاتحاد الملايوي. وسرت أقاويل أصلاً آنذاك تحدثت عن وجوب إعطاء جزء من فلسطين للصهاينة ليقيموا عليه دولة إسرائيل، وجزع من إمكانية أن يعاني الملايويون مصيراً مماثلاً لمصير الفلسطينيين - التهميش ثم الخنق وحتى الطرد من أراضيهم في النهاية.

كان الملايويون وقتئذ أفقر المجموعات السكانية في شبه الجزيرة، ولم يكن فيهم سوى حفنة من خريجي الجامعات وعدد قليل جداً من المتعلمين، كانوا في معظمهم مزارعي أرز، أو صيادي أسماك أو عمالاً. ونادراً ما كان يوجد متجر ملايوي في البلدات وفي أغلبية المناطق الريفية التي خدمتها المتاجر الصينية أو الهندية التي وفرت مختلف أنواع البضائع. كما عمل عدد ضئيل من الملايويين في السلك المدني في الولايات الملايوية غير المتحدة وفي بعض الولايات الملايوية المتحدة، لكن لم يكن لهم وجود من الناحية العملية في مستوطنات المضيق، وهي بينانغ وملقا وسنغافورة، كما هيمن الهنود والتاميليون السلانيون على الخدمات المكتبية وعلى السكك الحديدية الملايوية.

عرف تركيبة الحكم البريطاني في ملايا لأنني درستها في المدرسة لكني رأيت بأم عيني ما حصل للملايويين، فسكان بينانغ احتقروا سكان قدح كونهم شعباً ريفياً، وقد ذهلنا عندما ذهبنا إلى بلدات مثل بينانغ ورأينا المباني المؤلفة من أربعة طوابق هناك، لكن ملايويي بينانغ كانوا أدنى منزلة من الناحية الاقتصادية من ملايويي قدح؛ حيث كان جميع الموظفين الحكوميين ملايويين، لكن في بينانغ، لم يكن يوجد غير طبيب ملايوي واحد وعندها زرت أقاربي فيها، رأيت أن أعمامي يعيشون في - ما يمكن اعتباره في موطني - أحياء فقيرة، ومع أن بعضهم عمل لدى الحكومة، فقد كانت وظائفهم متدنية الأجر.

استطاع أحكام الملايويون في الولايات الملايوية المتحدة إدخال بعض الملايويين في السلكين المدني والإداري الملايويين. واستطاع بعض زعماء المقاطعات التقليديين تأجير أراضيهم التي تحتوي على القصدير للبريطانيين أو للصينيين، لكن إذا كان هؤلاء ميسوري الحال نسبياً، فقد عاشت أغلبية الملايويين الآخرين فقراء، وإن لم يكونوا مزارعي أرز وصيادي أسماك، فهم أجراء وهم عمال مكتبيون وسائقون لدى الأوروبيين والتوكايات الصينيين، وقلة منهم امتلكوا مزارع مطاط صغيرة.

لكن سيطرة البريطانيين كانت أضعف بكثير في الولايات الملايوية غير المتحدة، فكانت اللغة الملايوية اللغة الإدارية وأغلبية الموظفين الحكوميين كانوا ملايويين؛ ذلك أن العمل كموظف حكومي براتب منتظم معاش تقاعدي كان الطموح الأكبر لكل ملايوي، بينما كانت الأعمال المهنية محتقرة بوجه عام.

لا يوجد في الولايات الملايوية غير المتحدة ثروات طبيعية من القصدير مثل التي في الولايات الملايوية المتحدة، وكانت ولايات فقيرة إذا استثنينا جوهور. وبالإضافة إلى كون الملايويين في الولايات غير المتحدة أكثر عدداً من نظرائهم في الولايات الملايوية المتحدة، كانوا أفقر منهم أيضاً. وعلى العموم، كان الحكام أنفسهم معدمين، وربما بسبب ذلك أبدوا استعداداً لتأجير أجزاء من ولاياتهم أو التنازل عنها لقاء تأمين مدخول.

باعتراف البريطانيين بمطالب أخر بعرش جوهور، كسبوا قطعة أرض إستراتيجية وثمينة هي سنغافورة، وحدهم البريطانيون الذين كان لديهم فرق مسح في تلك الأيام، طالبوا بحقوق في الجزر الواقعة في مضيق جوهور أو سيلات تيبراو. ولذلك، ضمن دول مجاورة عدداً من الجزر التابعة للولايات الملايوية تعدم معرفة الحكام الملايويين المدى الكامل لولاياتهم وحدودها. وفي أواخر القرن العشرين ومستهل القرن الحادي والعشرين، عادت هذه المشكلة تؤرق ماليزيا في النزاع على بولاو باتو بوتيه، أو بيدرا برانكا التي منحتها محكمة العدل الدولية لسنغافورة في أيار/ مايو.

كانت سنغافورة غالية في نظر البريطانيين إلى حد أنهم أستثنوها من الاتحاد الملايو المقترح. ومع تطور سنغافورة، تحول الملايويون هناك إلى أقلية صغيرة، بل أصبحوا أفقر من ملايويي شبه الجزيرة. كان عدد الملايويين الذين حصلوا على تعليم مدرسي عال يعدون بالأصابع في سنغافورة، وعندما كنت أدرس الطب هناك، لم أجد غير عدد قليل من القرى الملايوية في سنغافورة. إحدى هذه القرى غيلام التي شيد فيها

سلطان جوهور المخلوع الإستانا أو القصر، لكن الحكومة السنغافورية وضعت يدها على الإستانا ولم يعد لجميع القرى الملايوية وجود الآن.

وسواء في المستوطنات، أم في الولايات الملايوية المتحدة، أو في الولايات الملايوية غير المتحدة، كان الملايويون أفقر المجتمعات وأكثرها تخلفاً، كما كانوا متأخرين في التعليم كذلك. ولو أستثنينا ولايتي قدح وجوهور، لم يلتحق عدد كبير من الأطفال الملايويين بالمدارس الإنكليزية الأهلية، ووضعها المزري لا يعزى بالكامل إلى البريطانيين أو الحكام الملايويين، حتى إن الملايوبين أنفسهم لم يحاولوا التأقلم مع الأوضاع المتغيرة في بلادهم، وإذ رفضوا العمل في الاقتصاد الحديث، جلب البريطانيون عما هنوداً تحت التدريب وحمالين صينيين. ومع توسع القطاع الاقتصادي الحديث، قدم المزيد من صغار رجال الأعمال الصينيين والهنود والأشخاص الذين لديهم ما يؤهلهم ليكونوا موظفين مكتبيين وتقنيين مبتدئين. وجاء بعدهم أطباء وتقنيون أفضل تدريباً، وبات الملايويون يعتبرون أن هذه الوظائف حكر على المهاجرين الهنود والصينيين.

لم يكن الحكام الملايويون في وضع يمكنهم من مساعدة رعاياهم الملايويين لتقلص سلطاتهم. وكما حصل سابقاً، تولى هؤلاء الحكام زمام الأمور من غير أن يمارسوا الحكم، لكن اقتصرت ولايتهم الآن على

الكائيين، ومسئولي العادات الذين خدموهم شخصية بإشراف الأستانا أو البالاي (قاعة استقبال زوار الملك). لم يكن الحكام غير رموز صورية لأعراف الملايويين وتقاليدهم ورؤساء للمسلمين من رعاياهم.

كان لكل من بينانغ وملقا عضو ملايري واحد في مجالس بلدية

المستعمرات في سنغافورة. ورأى الملايويون أن هذا هو أكبر تمثيل يمكنهم الحصول عليه في مجالس الولايات وفي المجالس التشريعية المتحدة بعد تشكل الاتحاد الملايوي. وفي ما يتعلق باللغة الملايوية فستكون هي لغة المجتمع اللغة الملايوي فقط، وستكون الإنكليزية اللغة الرسمية وبالتالي يزال رمز رئيس لأصول شبه الجزيرة وخصائصها الملايوية. عرفت أغلبية الملايويين حق المعرفة أن الصينيين الأكثر حركية ومقدرة سيهيمنون على البلاد في الاتحاد الملايوي. أي إنه بالإضافة إلى سيطرتهم على القطاع المهني سيسيطرون على المعترك السياسي في غضون وقت وجيز أيضاً. وتصوروا أنه سيشغل مناصب السلك الحكومي أشخاص مؤهلون ومقتدرون، وهم من الصينيين والهنود على التحديد، ولن يبقى للملايويين سوى المناصب المتدنية.

ربما تكون هذه وجهة نظر شديدة التشاؤم أو كثيرة الشكوك، ورفض عدد من الملايويين الإقرار بإمكانية حصول ذلك. لكن حتى لو كان المستقبل أفضل، سيظل الملايويون في وضع متدن للغاية بالنسبة إلى غير الملايويين الذين سيحصلون على حقوق وامتيازات مواطنة شاملة ومتساوية في ظل الاتحاد الملايوي.

لم يتسن لنا الحصول على النص الكامل لاقتراح الاتحاد الملايوي، وتوجب علينا استقاء أغلبية معلوماتنا من الصحف، بيد أن ما قرأته أفزعني. لقد نشأت على الافتخار بكوني ملايوية واعتقدت أنني ورثت أرض وثقافة يمكن أن أنسبهما إلى نفسي، وإلى يومنا هذا هناك كثير من الأشخاص في العالم لا يملكون أرضاً. لكن طالما كانت بلاد الملايا أرض الملايويين بقدر ما إن إنكلترا أرض الإنكليز واسكتلندا

أرض الاسكتلنديين. لم ترق لي فكرة انتزاع أرض أجدادي مني، وهي أرضي قبل كل شيء، كما لم ترق لي مشاهدة أرض شعبي وقد أضحت ملكاً لشعب آخر. وفزعت من إمكانية أن يصبح أشقائي الملايويون خدام للأخرين لأن المواطنة المتساوية لا تعني شيئا آخر. يكمن خلف المساواة الشكلية مواطنة مجحفة ودنيئة لجميع الملاويين.

وكما تحدثت بإسهاب لاحقاً في كتابي المعضلة الملايوية The Malay Dilemma خشيت عجز رفاقي الملايويين عن منافسة أبناء الأعراق الأخرى في البلاد، فقد افتقروا إلى المهارات والى التعليم اللازم وهم مذعنون لثقافة الاتكال أصلاً منذ أيام الاستعمار، تحاشوا الأعمال الصعبة وبحثوا دائماً عن الأعمال المريحة. وهذا سيصب في غير صالحهم في وضع يتنافسون فيه مع آخرين أكثر تحفزاً وقدرة، على أن من يستحق اللوم ليسوا فقط المزارعين الملايويين؛ لأن المشكلات بدأت من قمة الهرم.

تنازل حكامهم عن أراضيهم البريطانيين بمنتهى السهولة لأنهم وعدوا بالمال السهل والحياة الرغدة. فلماذا العمل إذا كان البريطانيون سيعطونك راتباً لقاء عدم قيامك بعمل؟ كان المعاش التقاعدي السياسي، أو البدلات، رشوة عرضها البريطانيون على السلطان، وعلى أسرته، وعلى أحفاده لقاء تنازلهم عن حكم ولاياتهم، لم يقتل ولو جندي بريطاني واحد كي يمكن استعمار الولايات الملايوية بسرعة وفاعلية، أي إن البلاد انتزعت من الداخل، وعندما استميلت الأسر الحاكمة نظير تنازلها عن استقلالها، أصبح استقلال المجتمع الملايوي بأسره في مهب الريح. في السابق، كانت الطبيعة سخية مع الملايويين؛ إذ ضمنت

لهم وفرة من دون عناء كبير. أما الآن، باتت الحماية البريطانية وتواطؤ الحكام مما اللذين أعاقة الملايويين بتجريد أغلبيتهم من الحافز الذي يدفعهم إلى النجاح بنشاط.

عاش الملايويون كشعب حقبة الاستعمار من دون أن يواجهوا تحديات قاسية، وبعد أن استبد بهم الوهن بسبب إضعافهم ثقتهم بأنفسهم بأيديهم، بات توقع منهم في حال أقلية الاتحاد الملايوي التنافس مع شعب يفضل عليهم بكثير من المزايا : شعب كادح ومثقف وماهر، شعب يملك أصلاً ثروة أكبر من ثروة الشعب الملايوي، وإذا سمح لتلك العملية بأن تستمر، ستكون نتائج الاتحاد الملاويوي كارثية على الملايوتين.

لم يوجد حينئذ منظمة تمثل ملايويي شبه الجزيرة ككل، اعتبر الملايويون أنفسهم رعايا الولايات الملايوية المتنوعة وحكامها. لم يكن لديهم حاكم أعنى حينئذ، ولم يتصوروا أنهم ينتمون إلى أمة واحدة.

شرعت في تنظيم رفاقي الطلاب من دون أن أعي الأبعاد الشاسعة للمهمة كي ننشط في حملة مناوئة للاتحاد الملايوي. ومع أن عدداً من الأشخاص، بما في ذلك أساتذتنا، كانوا على علم بمناقشاتنا ولقاءاتنا السياسية، لم يتوقعوا ما معارضة إقامة الاتحاد السلايوي بهذا القدر من النشاط، لكنهم لم يحاولوا صدنا أيضاً.

ماذا في استطاعة مجموعة صغيرة من تلاميذ مدرسة أن تقوم به في وجه إدارة عسكرية بريطانية جبارة؟ قرر عدد قليل منا إطلاق حملة دعائية مناوئة للاتحاد الملايوي في ألورستار وفي البلدات المجاورة. جمعنا كل ما توافر لدينا من مبالغ نقدية ضئيلة واشترينا لفافات ورقية ضخمة من دور الطباعة وعمل نحو عشرة منا في إعداد الملصقات،

استغرق القيام بهذه المهمة عدة أيام في منزلي ومنزل عزيز أحمد. سعينا في البداية لرسم الخطوط الرئيسة للحروف بالقلم الرصاص وملء الحيز بين الخطوط بالحبر الصيني، لكنها كانت عملية بطيئة. عندئذ، تحت عزيز الحروف الاستهلالية السميكة من حبات البطاطس. واستخدمنا أختامة بدائية وحبرا صينية في طباعة الشعارين المفضلين لدينا «ألا نريد مواطنة متساوية» و«لا للاتحاد الملايوي».

وفي اليوم الذي بتنا فيه مستعدين لوضع ملصقاتنا، قسمنا أنفسنا إلى مجموعات توجهت إلى مناطق مختلفة. وخوفا من اعتقالنا واصطحابنا إلى مراكز الشرطة للاستجواب، انتظرنا إلى أن حل الظلام ثم انطلقنا، كان التعتيم لا يزال سارياً والتغذية الكهربائية ضعيفة.

سررت لتمكننا من فعل شيء إزاء الوضع في نهاية المطاف، كانت تلك أول مرة نخرج فيها عن طاعة المؤسسة وقد شررنا بذلك. سارت الأنشطة الليلية على أحسن ما يرام، ولم يفقد سوى اثنين أو ثلاثة صبية قدرتهم على تمالك أعصابهم ممن كلفوا بوضع ملصقات في جيترا. وضع بعضهم ملصقات على جدران مستودع وزارة الأشغال العامة قبالة منزلي، لم نتفطن آنذاك إلى رجل نائم على الرصيف الإسمنتي الملاصق للمبنى. لابد من أننا أيقظناه لأنه عندما حضرت الشرطة في اليوم التالي لطرح الأسئلة، قال إنه رأى بعض الأشخاص بالقرب من المكان الذي نام فيه، ونحمد الله أن تعتيم الأنوار منعه من التعرف إلى أي واحد منا.

كان والدي من الأشخاص القلائل الذين عرفوا ما نقوم به، لكنه لم يحاول منعي، ولم تتدخل أمي وإذا كنت تعرف شيئاً، فهي لم تفصح عن

ذلك. وعندما سألتها عن كيفية صنع اللصاق اللازم لملصقاتنا، بينت لي كيفية إعداد لاصق منزلي باستخدام طحين التبيوكا والماء الساخن، ولم تطرح أسئلة.

انعكست أنشطتنا السياسية على دراساتنا سلباً لكن المستغرب أن والدي لم يعترض على ذلك، بل إن موقفه كان معاكسة لما توقعته تماما. بدا داعماً، ولأول مرة في علاقتنا تباحثنا في الأوضاع السياسية رجلاً لرجل، وما زلت أذكر بدقة مفاتحته إياي بالموضوع، جلس على درجات شرفتنا في أحد الأيام فيما اتكأ على الدرابزين، سألني عن رأيي في الاتحاد الملايوي. ترددت في بادئ الأمر، لكنني أحسست بمزيد من ارتياح مع مواصلتنا الحديث. وكم تفاجأ عندما علمت أنه ليس أقل مقتاً للاتحاد الملايوي مني، تابع كل حدث جديد من خلال سترايتس إكو (Straits Echo) وسترايتس تايمز (Straits Times)). حتى إنني أزددت دهشة عندما أراد مناقشة هذه الموضوعات الخطيرة معي وأنا مجرد صبي. أدركت في تلك اللحظة أن علاقتنا تغيرت، وأنه لم يعد يعتبرني مجرد طفل، لقد زاد إقرار والدي الثقة التي أحسست بها مع أولى خطواتي في معترك السياسة.

اعتمد والدي على معاشه التقاعدي الضئيل اعتماد كاملاً في إعالتنا، واحتاج في أثناء الاحتلال الياباني إلى بيع قطعتي أرض، كانت إحداهما بستان فواكه، وقد أزعجني ذلك كثيراً لأنني عرفت أهمية الاحتفاظ بملكية الأرض. باعها وقد خطط لأمر وهو امتلاك رأسمال يستثمره في عربة أجرة تجرها دراجة، ثم أجرها للشقيق الأصغر لبائع ساتاي (لحوم مشوية) كان يقيم في كوخ خشبي على عقار مغصوب خلف

منزلنا. لكن هذا الصبي كان ينتحل الأعذار دائماً لعدم دفع الإيجار، وفي النهاية لم يجن والدي من هذا المشروع فلساً واحداً. لا أعرف كيف استدع سد حاجاتنا؛ لأننا كنا نتناول طعاماً يكفينا وكان يعطيني خمسة سنتات كمصروف جيب عندما عدت إلى المدرسة، وهذا هو المال الذي استعملته في شراء الورق لملصقاتنا.

كانت حملتنا مقنعة للغاية على الرغم من هذه الموارد المتواضعة إلى حد أن الشرطة اعتقدت أنها من صنيع منظمة تخريبية استعانت بمطبعة.

مزقت الشرطة الملصقات في اليوم التالي واستجوبت المطابع كافة في ألور ستار. أنكر أصحابها بصدق أي مشاركة لهم في العملية، لكن من حسن الحظ أنهم لم يسألوا إن كانوا باعوا لفافات من الورق الأبيض لشخص ما، وكان زوج أختي يعمل كاتباً في قسم الشرطة، ولذلك عرفنا أن الملصقات حيرت الشرطة وأقلقت بالها.

هل كل فرد في مجموعتنا من رد الفعل على حملتنا الصغيرة، اعتقدت الشرطة أن من يقف وراء الأوراق البيضاء الكبيرة حركة لها شأن تريد أن تتحدي البريطانيين. ولم يخطر ببالهم أن منظمي لحملة تلاميذ مدرسة. لم يخطر ذلك ببال أحد مع أنه أصبح موضوعاً ساخناً في المقاهي. كانت معرفة الناس العامة بالسياسة محدودة، لكنهم عرفوا أن الاتحاد الملايوي لن ينفع الملايويين وسروا لأن شخصاً ما يقوم بعمل لمعارضته، ولذلك تمتعنا بدعم شعبي واسع.

انتشر خبر الملصقات في مختلف أنحاء ملايا وبذلت محاولات أخرى لوضع ملصقات مناوئة للاتحاد الملايوي. وفي سياق ذلك، كلفت

الحكومة الملكية السيد هارولد ماك مايكل بتأمين موافقة جميع حكام ملايا على الاتحاد الملايوي، وعندما قدم إلى ألور ستار للحصول على موافقة سلطان قدح على اقتراح الاتحاد الملايوي، وضعنا مزيداً من الملصقات، قبالة مقر إقامة المستشار البريطاني حيث كان يقيم، وقد أنزعج من ذلك كثيراً، ذلك أن البريطانيين لم يعتادوا مواجهة معارضة في ملايا.

من الناحية القانونية، رأى كثير من الناس، بما في ذلك الملايويون، أن الاتحاد الملايوي صفقة مفروغ منها ما إن يتم توقيع معاهدات ماك مايكل. كان موظفو السلك المدني وأغلبية الملايويين البارزين على استعداداً للموافقة على منح بلادهم منزلة مستعمرة كاملة. لكن المشاعر على الأرض عارضت بقوة تسليم الولايات الملايوية للبريطانيين، حتى إن ملايويي مستعمرات بينانغ وملقا وسنغافورة عارضوا ذلك.

أضحى استياء الملايويين أكثر وضوحاً، وباتت التجمعات الضخمة تعقد في كل مكان للاحتجاج على الاتحاد الملايوي، كما نظمت مسيرات في الشوارع. وفي ألور ستار، كانت المسيرات تأخذ طابعاً بشعاً أحياناً لأن بعض مزارعي الأرز أحضروا مناجلهم معهم. ومع أني عرفت بعض القادة الذين شاركوا في تلك المسيرات، اكتفيت بمشاهدة مسيراتهم الاعتراضية ولم أنضم إليها.

تحدثت الصحف الملايوية عن هذه المظاهرات الاحتجاجية، وكذلك سترايتس تايمز وسترايتس إكو. وباتت الملصقات التي تندد بالمواطنة المتساوية والاتحاد الملايوي تشاهد في كل مكان.

كانت تلك مرحلة مهمة بالنسبة إلي، وكما كثير من الملايويين

الآخرين، أستجمعت محاولة فرض الاتحاد الملايوي أحاسيس السخط المتنامية في أعماقي على البريطانيين وأيقظت شعوري السياسي، لكني كنت لا أزال تلميذ مدرسة. كنت في حاجة إلى مصداقية تجعل الناس ينصتون إلى آرائي، اعتقدت أن إحدى الطرق المضمونة لاكتساب تلك المصداقية هي بالحصول على تعليم جامعي. لم أفكر في دراسة تخصص معين بذلت جهوداً خارقة في الدراسة لأتأقل، وعندما اجتزت امتحانات القبول، قررت التقدم بطلب منحة لدراسة الحقوق. وعوضا عن ذلك، حصلت على منحة لدراسة الطب.

# مشكلاتي الصحية

**يقول مهاتير محمد:**

أحسست بوخزه ألم في صدري أول مرة قبل نحو شهر من النوبة القلبية التي تعرضت لها في سنة 1989م، لكني تجاهلته. كنت في جنتينغ هايلاند؛ حيث حضرت لقاء خريجي كلية الطب في جامعة الملك إدوارد السابع وحضر اللقاء عدد من زملائي وأولادهم وأمضى الجميع وقت مسلياً. كنت أراقبهم عندما جذبني الشباب إلى قاعة الرقص، وفي أثناء الرقص بدأت أشعر بضيق في التنفس وبألم في صدري، لكنهم توقفوا حين جلست. وفي اليوم التالي، ذهبت لركوب الخيل وأحسست بضيق في التنفس وبالألم نفسه مجدداً، لم أشأ الاعتراف لنفسي بأنها ربما تكون نوبة قلبية ولذلك لم أخبر أحدة وأملت أن تزول أعراضها ببساطة، فحتى عندما تكون طبيبة وتعرف العلامات والأعراض، فأنت لن ترغب في الاعتراف بأنك ربما تعاني مشكلة.

لم أكن أجري فحوصات طبية شاملة في تلك الأيام، لكني أذكر أنني خضعت لفحص طبي مكتف في لندن بناء على نصيحة طبيب بعد أن عانيت مشكلة بسيطة في ارتفاع ضغط الدم. كانت التجربة مزعجة حقاً لأن الفحص استغرق مدة طويلة وكنت مرغمة على وضع ماكينة" تخطيط كهربائية القلب" بارزة عند خصري. وكان على حضور مأدبة عشاء فيما الماكينة مثبتة على جسدي وبدا كما لو أنني أحمل سلاحاً.

وبعد شهر على حفلة جنتينغ، تناولت العشاء في مطعم تايلاندي في "المول" مع حاسمه وزوج مارينا للاحتفال بعيد ميلاد خزاني مع أنه لم يكن حاضراً، كان المفترض حضور أربعة أشخاص لكن مارينا لم تحضر، ولذلك بقيت أنا وحاسمه وديدير زوج مارينا آنذاك فقط. طلبنا طعاماً لأربعة أشخاص لكن آل بي الأمر إلى تناول حصة مارينا ربما بسبب الحرمان الذي عانيناه في زمن الحرب، كرهت إهدار الطعام، وعندما وصلنا إلى المنزل، بدأت أحس بألم في صدري وباحتباس أنفاسي لكن الأعراض أبت أن تزول هذه المرة. حاولت التمدد والقعود تكن الألم بقي شديدة كما كان، اتصلت حاسمه بصديق أخصائي في مستشفي كوالالمبور العام، وهو زميلي في الدراسة الدكتور جيمي ايبين، وصفت له على الهاتف الأعراض التي أشكو منها فحضر على الفور. شخص الأزمة بأنها نوبة قلبية أو احتشاء قلبي، لكنه اضطر إلى العودة إلى منزله لإحضار ماكينة تخطيط كهربائية القلب قابلة للنقل، وعندما أكدت شكوكه، نقلت إلى المستشفى على الفور، ومع أنني أحسست بتحسن كافي كي أتنقل مشياً، أصروا على أن أستخدم كرسي للمقعدين.

كان يجدر بي الاستنتاج بأنها نوبة قلبية لأن أعراضها معهودة، كما أن معاناتي آلام في الصدر وضيق في التنفس بعد الإجهاد الذي سببه الرقص وركوب الخيل ملازم للنوبة القلبية أيضا من الأمور التي تعجل حدوث النوبات القلبية القلق، والرحلات الطويلة والإكثار من تناول الطعام في الوجبة الواحدة، وأنا أكلت طعاماً كثيراً في تلك الليلة. لم يكن يجدر بي تجاهل الألم عندما أحسست به أول مرة وكان الأحرى أن أعترف لنفسي بأنني كنت أعاني نوبة قلبية.

قلت إلى مستشفى كوالالمبور العام في ليلة 17 كانون الثاني / يناير 1989م، وهناك، أكدت لي داتو الدكتورة ربيعة زمبهاري أنني عانيت نوبة قلبية وأعطتني حقنة لتخفيف الألم، وطلبت إلى حاسمة إبلاغ أسرتنا. ما جعلنا ندرك خطورة الوضع. واتصل أيضاً بنون غفار بابا، مساعد رئيس الوزراء آنذاك، وأيقظته من نومه لتخبره بما يحصل.

بعد إكمال الفحوصات المعتادة، قرر الأطباء أنني في حاجة إلى إجراء صورة وعائية. وصدف أن الدكتور سايمون ستيرتزر، وهو مختص في أمراض القلب من كاليفورنيا، كان في المنطقة فطلب إليه الحضور لمتابعة الإجراءات، فخلص هو والدكتورة ربيعة إلى أنني عانيت احتشاء قلبية وأنني في حاجة إلى مجازة تأجية، وخيراني بين السفر إلى الولايات المتحدة لإجراء العملية أو إجرائها في كوالالمبور، لكني قررت بلا تردد إجراء العملية هنا؛ إذ كان على الوثوق بأطبائنا الماليزيين وعرفت أنه إذا لم أجعل من نفسي قدوة في ذلك، لن يثق أحد بخدماتنا الطبية. في السابق، كانت جميع شخصياتنا المهمة تسافر إلى الخارج، لكني عرفت أن داتوك الدكتور روزاني وأثوث أجرى من قبل هذه العمليات بنجاح في مستشفى كوالالمبور العام، وكان قد ترك السلك الحكومي للعمل في مركز سوبانغ جايا الطبي، لكن كان هناك أخصائيون آخرون في أمراض القلب في المستشفى العام، منهم تان سري يحبي أو انغ. وعرفت أن الدكتور يحيى ذو خبرة واسعة وقررت ائتمانه على حياتي.

وكوني طبيباً، عرفت المخاطر التي تكتنف العملية وعرفت أنني قد لا أعيش بعدها لأنها لم تكن إجراء شائعة في ذلك الوقت، ولا يزال الناس يخشون السماح للأطباء بفتح صدورهم والتلاعب بقلوبهم، لكنني

قلت في نفسي إذا كنت سأموت، سيكون ذلك قدري - سأسلم أمري إلى الله ثم إلى مهارة الجراح. ربما يبدو كلامي عاطفياً الآن لأن أشخاص كثيرين أجروا جراحات قلبية ناجـ . لكن عندما تقبلت إمكانية الموت، أحسست بارتياح شديد أقمت في المستشفى أربعة أيام قبل إجراء الصورة الوعائية التي أكدت أنني في حاجة إلى إجراء العملية. وعاد الدكتور ستيرتزر وعرض على إجراء المجازة التاجية في كاليفورنيا مع أنه قال إن الدكتور يحيى بمثل كفاءة أي جراح قلب في الولايات المتحدة. وعندما خلوت بحاسمة، طلبت إليها الاتصال بالدكتور يحيى، وعندما دخل الغرفة، قلت له ببساطة إني أريد منه إجراء العملية، حتى إني عرفت والده جيداً. إن الدكتور أوانغ طبيب ناجح للغاية وكان عضواً في البرلمان حين كنت عضواً برلمانيا أيضاً بين عامي 1964 و1969م، وعندما عانيت النوبة القلبية كان قد أصبح حاكم ولاية بينانغ.

حال دخولي المستشفى دون حضوري الاجتماع الوزاري الأسبوعي يوم الأربعاء، وحذرني الأطباء من استقبال الزوار، وقررت حاسمة تنفيذ أوامرهم بنفسها. وقدم كثير من الناس وأصروا على رؤيتي لكن حاسمه كانت في منتهى الحزم، ولم تسمح سوى لبضعة منهم باختلاس النظر فيما كنت مخدرة في السرير عقب إعطائي مسكنات، وتزامن ذلك مع إجراء انتخابات فرعية وسرت شائعات بأن حالتي حرجة حتى إن بعضاً تحدث عن وفاتي.

بقيت حاسمه بجانبي طوال الوقت ولم تغادر المستشفى أبد، وعرضت علي الدكتورة ربيعة إعطاء حاسمه مسكناً في ليلتي الأولى، لكنها عزمت على السهر حرصاً على عدم مجيء أحد يزعجني.

وعشية إجراء العملية، تلقي مكالمة هاتفية من لي كوان يو عند الساعة العاشرة مساء تقريباً؛ إذ استبد به القلق كثيراً وتحدث إلى حاسمه كوني تلقيت عقاقير لتحضيري للعملية الجراحية وسأل أن تقنعني بأرجاء العملية لأن لديه فريقاً طبياً جاهزاً للتوجه إلى كوالالمبور جواً ومعه جراح قلب مشهور اسمه الدكتور فكتور تشانغ، وهو سنغافوري مقيم في أستراليا ليتولى إجراء العملية. قال إن الدكتور تشانغ يملك خبرة واسعة؛ إذ إنه أجرى أكثر من ألف من هذه العمليات، وعندما سأل عن اسم الجراح، أجابت حاسمة إنه الدكتور يحيى، وهو طبيب لم يسمع به تشانغ من قبل فشكرت له صنيعه ووعدته بالاتصال به حال انتهاء العملية. عرفت حاسمة أنني عندما أقرر أمرة فأنا لا أعدل عنه أبدا كما إنها كانت مطمئنة تماماً إلى قدرة الدكتور يحيى على إجراء العملية. والظاهر أن لي كوان لم يكتف بمناشدة حاسمة، بل اتصل بتون دائم زين الدين ليسأله التوسط لديها، وعلى الرغم من اختلافاتنا الكثيرة التي امتدت سنين، قدرت لكوان اهتمامه.

كان أبنائي الثلاثة خارج العاصمة آنذاك وكانت مارينا في سنغافورة، وكانت ابنتها إنيزا تنام في سرير نقال في غرفتنا. وفي غمرة استعجال حاسمه لإدخالي إلى المستشفى، أوشكت أن تقفل عليها الباب في الليلة التي عانيت فيها النوبة القلبية، لكنها تذكرت في الوقت المناسب ونقلت السرير أني غرفة الأولاد. وقدمت مارينا، وخزاني الذي كان في مدينة ميري، جواً في اليوم التالي. ومع أن مخرز كان في بوسطن ومبرزان كان في فيلادلفيا. فقد تمكنا من العودة إلى كوالالمبور عشية إجراء العملية، وأدخلوا حاسمه ثم الأولاد يقبلوني الواحد تلو الآخر قبيل إجراء العملية،

تلك كانت المرة الأولى التي تنهار فيها حاسمه.

مشكلتك عندما تكون طبيبة أنك تعرف ماذا سيفعلون بك في أثناء الجراحة، وهم في جراحة القلب يوقفون قلبك ورئتيك ويمررون دمك عبر ماكينة القلب والرئة. لم ترق لي الفكرة ولا سيما أن الإجراءات كانت حديثة نسبياً والمعدات لم تكن معقدة مثلما هي الآن. وسبق أن أجرى تون حسين عون عملية مجازة تأجية لكنه لم يستعد عافيته بعدها، وهناك شخص مهم آخر خضع لمثل هذه العملية وهو داتوك جعفر حسن، الوزير الأول في بيرليس، ا لكنه توفي بعدها لاحقا. لكني طرحت على الدكتور يحيى سؤالاً واحداً، «كيف سيفتحون صدري؟» فأجاب بأنهم سيستخدمون منشاراً كهربائياً، فأجبته: «أشكر لك عظيم الشكر، لم أعد في حاجة إلى معرفة المزيد».

بعد أن مددوني على سرير متحرك ونقلوني إلى غرفة العمليات، أذكر بشيء من الغموض رؤيتي للسقف في أثناء نقلي في الممرات نحو غرفة الانتظار المجاورة لغرفة العمليات. سمعت بعض الكلمات المهدئة من طبيب التخدير وهو يباشر عمله، ثم وضعت على طاولة العمليات وطلب إلي أن أعد من عشرة إلى واحد وعندما أفقت في المرة الثانية، كنت في غرفة الإنعاش؛ وفي هذا الشأن، تعتبر الجراحة الحديثة بمثابة معجزة.

استغرقت العملية نحو ست ساعات، مع أني تصورت أنها لم تستغرق أكثر من ثانيتين، اضطرت أسرتي إلى الجلوس والانتظار في الخارج. وفي أثناء العملية، أخذ الأطباء أوردة من رجلي وأنشئوا خمس مجازات. قام الدكتور يحيى، والدكتور روزالي ومساعدوهما بعمل جيد ولم تحصل مضاعفات. في هذه الأيام، لم تعد هناك حاجة كبيرة إلى

العمليات الجراحية التوسعية، وباتت جراحات الأوعية الدموية تحقق نتائج أفضل، فيما الالتزام بالحمية وممارسة الرياضة بانتظام يمكن أن تقلا حالات تصلب الشرايين التاجية والاحتشاء، ويقول بعض إن إتباع الحمية يمكن أن يمنع التصلب وهو الأمر الذي أحاول القيام به الآن. وعندما استيقظت، لم أفكر سوى في حقيقة أني لا أزال حياً، لكني أذكر الضيق لأني كنت أشعر بألم عندما أحاول تغيير وضعية نومي أو عندما أسعل وكانت هناك أنابيب في جسمي، ومصرف إفرازات الجراحة في بطني وقناع أكسجين على وجهي، وبقيت في المستشفى أسبوعين لكني استغرقت وقتاً أطول مقارنة بالآخرين.

كان الجو موحشاً جداً وغريباً في غرفة العناية الفائقة؛ لأنه ليس فيها نوافذ، وكان من السهل أن يفقد الإنسان الشعور بمرور الوقت، ولم أستطع سوى متابعة الساعات بالاعتماد على نغير نوبات الممرضات. كان الجو مثيراً للكآبة الشديدة كنت في الرابعة والستين وكانت تلك أول مرة أدخل فيها مستشفى وبسبب عملية معقدة. ومع أني عملت في عدة مستشفيات من قبل، فأنا لم أدخل أي منها كمريض وكوني خجولاً، أحسست بالإحراج لكون الممرضات يعتنين بي كانت معالجتي الفيزيائية مرعبة وكانت ترغمني على السعال لتفادي تجمع أي سوائل في رئتي لأن ذلك قد يؤدي إلى الإصابة بذات الرئة أو بالتهاب رئوي. ربما امتعضت من إصرارها آنذاك، لكن حين أصبت بالتهاب خطير عقب جراحتي القلبية في سنة 2007م، صرت أقدر نواياها ودوافعها على نحو أفضل. وفي هذه الأثناء، كان علي إرجاء سفراتي وتجنب ترؤس الوزارة مدة من الزمن.

من الأحداث التي رفعت معنوياتي في تلك المرحلة فوز الجبهة الوطنية في الانتخابات الفرعية في أميانغ في اليوم الذي تلا إجرائي العملية. سمعت جلبة وأنا في غرفة العناية الفائقة واعتقدت في البداية أننا خسرنا الانتخابات، لكن حين قدم أحمد رزالي، شقيق حاسمة، وأشار بإبهامه إلى أعلى، أدركت أن الخبر جيد، لكن المؤسف أن نجل تون غفار الذي شارك في حملته الانتخابية توفي إثر تعرضه لنوبة قلبية قوية في يوم الانتخابات لم تكن غرفة العمليات في المستشفى العام حسنة التجهيز في أثناء إقامتي فيها ؛ إذ افتقرت إلى حيز لمعدات الضرورية، مثل أسطوانات الغاز اللازمة للتخدير، لكن غرف العمليات في المستشفى العام لم تصمم لإجراء عملية جراحة قلبية شديدة التعقيد، وبالكاد استطاع الجراحون وأطباء التخدير القيام بعملهم، أدركت حينها أنهم يعملون ضمن قيود وضغوط شديدة، وهذا ليس منصفاً للأطباء وللمرضى على حد سواء. ومع ذلك، لم تكن الحكومة قد أولت حاجات المستشفي اهتماماً كبيأر حتى ذلك الحين. وبعد أن جادلوا بأنه عوضاً عن توفير تجهيزات كاملة لغرف العمليات في المستشفيات العامة، سيكون إقامة مركز خاص لأمراض القلب خياراً أفضل. وافقت على الاقتراح وقررت أنه يجب على الحكومة تخصيص أموال كافية لهذا الغرض، وهكذا شيد معهد القلب الوطني.

كان بناء هذا المرفق وتجهيزه عملاً سهلاً، لكن تزويده بالموظفين أبرز مشكلة؛ إذ كان المختصون لدينا يتركون مستشفيات الحكومة بشكل جماعي لندني رواتبهم، ومع ذلك، لم يكن في وسعنا زيادة رواتبهم من غير أن يطالب الموظفون الحكوميون الآخرون بزيادة مماثلة. وهذا ببساطة

أمر لا يحتمل؛ لذلك قررنا أن المركز المختص سيبقى ملكاً للحكومة على أن يدار كمؤسسة مستقلة. وبالتالي خصخصنا إدارة المعهد، ما أتاح له إعداد جدوله الخاص للرواتب والمكافآت وما إلى ذلك. ومع أن الشروط الوظيفية لم تكن على قدر جاذبية الشروط الوظيفية في القطاع الخاص، فقد كانت جيدة بما فيه الكفاية للسماح للمختصين الملتزمين بالبقاء وتقليص عدد الذين يتكون السلك الحكومي منهم تقليصاً كبيراً، كما إن أغلبية المرضى الذين يدخلون المعهد كانوا موظفين حكوميين وتكفلت الحكومة بتغطية تكاليف علاجهم شكلت معاناتي نوبة قلبية إجهاداً هائلاً لأسرتي ربما فاق إجهادي؛ لأني سلمت بإمكانية موتي أصلاً. ولا يزال مخزاني إلى يومنا هذا يقلق عندما يقترب تاريخ عيد ميلاده لتزامنه المستغرب مع وقوع عدد من الحوادث المؤسفة، مثل حرب الخليج الأولى، وكسره كاحله، وعمليتي الجراحية.

لكن أيا من أفراد أسرتي، ولا حتى الأطفال. حاول التباحث معي بشأن التقاعد المبكر بعد أن تعافيت من وعكتي لأنهم عرفوا أن هذا الاقتراح أن يزيدني إلا إجهاد، وأنني سأتخذ قراري بنفسي

لم يسبق أن أحسست بضغط كبير وأنا أعمل، لكن الواضح أن وظيفة رئيس الوزراء تستلزم التعرض لإجهاد خفي متواصل. كنت أباشر عملي بطريقتي المعتادة دائما وأعالج المشكلات بهدوء ولا أسمح لنفسي بالانفعال الزائد ولا أستشيط غضباً إلا نادراً. ربما أحس بالإرهاق، لكني أستيقظ في اليوم التالي دائماً بنشاط متجدد واستعداد للعودة إلى العمل. استمتع بوظيفتي وبفرصة القيام بأعمال لا يملك سلطة القيام بها إلا رئيس وزراء، ولا بد من أن التحديات التي واجهتها في عامي

1986 و1987م حين حاول تنكو رزاليغ وتون موسى ميتام الإطاحة بي قد سببت لي إجهاداً كبيراً، وكذلك عملية لالانغ. لكني استطعت التعامل معها ولم أشعر بأي ضغوط مفرطة. وعلى مستوى أعمق، أفترض أنه لا بد من أن حسمي تفاعل بشكل مختلف وعاني إجهاداً أكبر من أتمكن من ملاحظته.

وبعد العملية، طلب إلي أخذ إجازة لمدة ثلاثة شهور قبل اتخاذ أي قرار بشأن مستقبلي. وعقب مغادرتي المستشفى، تشوقت إلى العودة إلى عملي، لكن أسرتي وأطبائي أصروا على أن أخذ إجازة ولذلك سافرت إلى المغرب وإسبانيا. ومع ذلك، استأنفت روتيني المعتاد في أسرع وقت ممكن، مثل التوجه إلى مكتبي، ورؤية فريق عملي وزملائي في الوزارة، والالتقاء بالزوار والاطلاع على ملخصات حول كل ما كان يجري.

في الحقيقة، كان ذهنى مملوءاً بالأفكار المتعلقة بتطور البلاد، وكنت متشوقاً إلى رؤية البدء بتنفيذها ومتابعة سير التنفيذ. عرفت أن مرضي قد يعاودني، لكنه احتمال تعين على القبول به، وطالما بقيت رئيساً للوزراء، تكون صحتي على خير ما يرام. حتى إني ازددت قوة بالتحديات التي كان على مواجهتها وبنجاحي في التعامل معها، ولم تعاودني مشكلاتي القلبية إلا بعد أن تقاعدت.

لم أخف وتيرة عملي عقب تقاعدي، وإلى جانب إلقاء كلمات في شتى أنحاء العالم وفتح مكتب في مؤسسة بيردانا للقيادة في بوتراجايا، عدت إلى ركوب الخيل من جديد. وقمت برحلات سنوية إلى الأرجنتين لركوب الخيل في جبال الأنديز. وعلى مدى ثماني ساعات متواصلة أحيانا. لكن قبيل انتهاء العام 2009م. وبعد رحلة مجهدة إلى المملكة

العربية السعودية واليابان ونيوزيلندا؛ وعدد من الارتباطات المتتالية في كوالالمبور، عانيت نوبة قلبية خفيفة في المساء الذي تلا حفلة أقامها أبنائي في أحد الأعيا....

كنت في المنزل في 6 تشرين الثاني / نوفمبر حين أحسست من جديد بالاختناق المألوف في صدري. اتصلت حاسمة بذاتوك الدكتور ناصر مودا وأخصائي في أمراض القلب وطبيبي الشخصي، ونقلت إلى المعهد الوطني للقلب في ساعات الصباح الأولى. وهناك، علق لي الأطباء مصلاً على الفور، وبعد إجراء تخطيط كهربائية القلب، شخصوا حالتي بأنها نوبة قلبية خفيفة. تعافيت بسرعة، وبحلول اليوم الرابع، جلست في سريري جاهزة الاستئناف عملي، وتعتقد حاسمه دائماً أن طلبي لوح الكتابة علامة جيدة.

وعلى الرغم من تحسن صحتي بسرعة، اتضح أن عن التفكير في إمكانية إجراء عملية قلب أخرى. في أغلبية الحالات، يبقى المرضى في صحة جيدة مدة 10 سنوات، بعد عملية المجازة التاجية، لكن 18 سنة مرت منذ إجراء العملية. وقال أطبائي ينبغي أن أقرر بسرعة إن كنت في حاجة إلى إجراء عملية مجازة تاجية ثانية قبل أن تسوء حالتي الصحية ويصبح إجراؤها أمر بالغ الخطورة. كان علي الاستناد في قراري إلى حقيقة أنني في الثمانينيات من عمري أصلاً وأن شفائي بعد العملية سيكون أصعب بكثير على الأرجح.

وفيما كنت أفكر في قراري، بدأت بنظام تمارين صمم لتنشيط دورتي الدموية، ولذلك بدأت باستعمال ماكينة المشي بحيث كنت أمشي مسافة تصل إلى 10 كم في اليوم أحيان، وهو ما اعتبرته حاسمه تمريناً

مفرطاً. وفي الواقع، عرفت لاحقا أنها طلبت تدريب حصاني على عدم الجري بسرعة عالية.

وعلى الرغم من التمرين، أحسست بثقل في رجلي في أيار/ مايو 2007م ولم أكن أستطيع التنفس حين صعود السلم. في ذلك الشه، حضرت اللقاء السنوي السابع والأربعين في بوكيت ميراه بولاية بيراك وأمضيت عدة أيام برفقة أصدقاء قدامي من كلية الطب، وكنت أتسامر حتى ساعة متأخرة جداً كل ليلة. عدت وحاسمه بالطائرة على الفور إلى لنكاوي بعد انتهاء اللقاء السنوي لقضاء عطلة قصيرة.

وفي أثناء إقامتي في الجزيرة، عانيت أذمة رئوية. كنت متعباً في يوم الوعكة واستيقظت من قيلولتي بعد أن أحسست بضيق في التنفس، استخدمت جهاز للاستنشاق لكنه لم ينفع. وبعد ذلك، تتابعت الأمور بسرعة كبيرة مع امتلاء رئت بالسوائل وإحساسي بصعوبة في التنفس، طلب الدكتور ناصر سيارة إسعاف، لكنه وجد أن انتظار وصولها سيستغرق وقتاً طويلاً؛ لذلك، ساعدني على ركوب السيارة وهرع بي إلى المستشفى وأذكر أني سمعته وهو يلح علي بالصمود مع أنني أحسست بأني أتهاوى وأغيب عن الوعي. وفي الطريق. تجاوزنا سيارة الإسعاف التي كانت متوجهة إلى المنزل لكن الدكتور ناصر، الذي عرف أنه لم تعد تفصلنا مسافة طويلة عن الوصول إلى المستشفى، أمر سائقنا بمواصلة السير. وذكرت لي حاسمه أنها اعتقدت أنها ستخسرني في ذلك اليوم وكي تفسح المجال لي وللدكتور ناصر، جلست في المقعد الأمامي ولم يسعها سوى مد يدها على ركبتي لمواساتي.

وفي المستشفى، أوصلوا الأوكسجين إلى رئتي إلى أن أصبحت حالتي

مستقرة بعد نصف ساعة، واتصل الدكتور ناصر بزملائه في المعهد الوطني للقلب، وقدمت طبيبة التخدير الدكتورة شريفة ثريا سيد محمد طاهر. .بواً، ومعها جميع المعدات التي افتقرت إليها المستشفى التي في لنكاوي في تلك المرحلة، بدا كما لو أن أغلبية الناس في الجزيرة سمعت بالخبر وبدؤوا بالتجمهر في المستشفى. وكي أتجاوز الحشود في اليوم التالي عدنا بالطائرة إلى كوالالمبور، اضطر مدير المستشفى إلى استخدام سيارة إسعاف للتمويه فيما غادرنا المستشفى خلسة من باب خلفي. وعندما وصلنا إلى المطار، كان بعض أبنائنا قد وصلوا للتو على متن رحلة تجارية واضطروا إلى العودة على متن الطائرة نفسها إلى كوالالمبور تبين أن وضعي في الطائرة الخاصة لنقلي إلى العاصمة مهمة معقدة؛ فالسلم لم يتسع للحمالة التي كنت عليها، ولذلك تعين عليهم حملي، فأسند أحدهم رأسي وكتفي فيما أمسك رجل شاي بقدمي. وكي لا ينحني جسمي أصدرت معالجتي الفيزيائية بوي غرد تشي على الزحف في الأسفل إسناد ظهري في أثناء صعود سلم الطائرة، وكنت في حاجة إلى أوكسجين. لكن استخدام خزانات الأوكسجين على ارتفاعات شاهقة عملية خطيرة ولذلك حلقت الطائرة على علو منخفض في رحلة الإياب إلى كوالالمبور.

أحسست بعد هذه النوبة بأنني ضعيف ولست على ما يرام وبدأت بالتفكير ملياً في العمل بنصيحة الأطباء والخضوع لعملية مجازة تاجية ثانية. ستكون العملية الثانية أشد خطورة بطبيعة الحال لأني أصبحت في الثانية والثمانين. ومن ناحية أخرى. إذا لم أخضع للعملية. سأتعرض لنوبة تالية لا محالة. وفي النهاية، مع أنني عرفت أن خضوعي

لعملية ثانية لا يمنحني ضمانات، قررت المخاطرة، وهنا أيضاً، تبين أن كوني طبيبة لا ينفعني في شيء لأني عرفت المضاعفات التي يمكن حدوثها.

فكرت هذه المرة في إجراء العملية في الخارج، لكني خشيت أيضاً أن يؤدي ذلك إلى إضعاف ثقة الناس بأطبائنا. لكننا أحضرنا استشارية من «مايو كلينيك» في الولايات المتحدة، لكن الفريق الطبي كان برئاسة الدكتور يحيى والدكتور روزالي أيضاً.

نقلت إلى المعهد الوطني للقلب وأجريت عملية المجازة التاجية الثانية بعد يومين. ولم يشارك في العملية الثانية من الفريق الطبي الذي أجرى لي العملية الأولى غير الدكتورين يحيى وروزالي. ومن الناحية الفعلية، شارك الجميع في إجراء العملية أيضاً، بما في ذلك الممرضات العاملات في غرفة العمليات، وكان بعضهم قد غادر المعهد للعمل في القطاع الخاص لكنهم عادوا جميعاً للإشراف على عمليتي.

في أثناء فترة النقاهة، بعد العملية بمادة، بقيت أتاني كوابيس وأحلام غريبة بأني كنت ابن سنطان أو كنت أعمل مدربا للخيول. اعتقدت في بعض الأحيان أنني في مكان آخر، في جاكرتا أو تايلاند أو الصين، كان علي بن أتنفس بواسطة ماكينة منعتني من البلع والكلام. وحتى بعد أن أخرجوا الأنبوب من قصبتي الهوائية، أحسست كما لو أنه ما زال هناك ووجدت صعوبة في البلع مدة من الزمن. وبما أنه لم يكن في قدوري الكلام، فقد لجأت إلى الكتابة، لكني وجدت أنني لا أستطيع تذكر الحروف الصحيحة ؛ لذلك، أعطتني أسرتي لوحة مفاتيح لأشير إلى الحروف التي تريدها، لكني كنت أضعف من أن أتمكن حتى من فعل

ذلك. وفي مرحلة معينة، حين تملكني الإحباط، أردت سحب كل الأنابيب من جسمي، لكن حاسمه وبختني قائلة إن أشخاصا كثيرين بذلوا جهودا مضنية لمساعدتي.

أصبت بعدوى عقب بقائي في غرفة العناية الفائقة طوال أسبوعين، عرف الأطباء أنه يتوجب على العودة إليها وقلقوا من عدم موافقتي على إجراء عملية أخرى، لكني قررت المضي قدما آم بأن يساعدني ذلك على الشفاء بسرعة أكبر والخروج من كابوس الحاجة إلى الأنابيب والنوم وهي في رقبتي ويدي وظهري وصدري. انتقلت إلى غرفة العملية على كرسي للمقعدين في أيلول/سبتمبر، لكن على الرغم من سير العملية الجراحية من دون مشكلات، تبين أن معاناتي بعد العملية معقدة. أصبت باكتئاب، وصرت أشعر بأنني تعب إلى حد عدم استطاعتي على المتابعة، ولرفع معنوياتي، سمح لعدد من الزوار برؤيتي، منهم رفاقي في رياضة ركوب الخيل، ومفتي ولاية بيرليس الدكتور محمد عصري زين العابدين، وطبيبي الشخصي السابق داتوك الدكتور زين حسيد. كما حاولت حاسمة تشجيعي فأحضرت لي صورها المفضية وأشارت

إليها وقالت برفق إنها أحضرت بهذا الرجل إلى المستشفى وهي عاقدة العزم على إعادته إلى منزله.

لم تفارقني حاسمه طوال مدى إقامتي في المستشفى إلا نادرة. وفي تلك الحالات، كانت تمضي في المنزل ليلة واحدة خلال شهر رمضان القضاء بعض الوقت مع أسرتنا، لكنها باتت باقي الليالي في المستشفى وقد أرهقها ذلك كثيرة. وفي أحد الأيام، سقطت عن كرسيها من شدة التعب واستيقظت ووجهها على الأرض فتسبب ذلك بحالة ذعر بسيطة

في غرفة العناية الفائقة، لكن حاسمه أصرت على أنها بخير وأنهما تعبة جذا فحسب.

وعلى العموم، أمضيت 49 يوماً في المعهد الوطني للقلب وغادرته في 20 تشرين الأول/ أكتوبر. يتعين على الاعتراف بأنه مرت لحظات أحسس فيها بخطر دنو أجلي. في الحقيقة، خضعت للعملية وأنا أعلم كل الاحتمالات حق العلم، وفي اليوم الذي أدخلت فيه المعهد، أعطيت حاسمه توليفة أرقام حقيبتي المقفلة التي احتفظت فيها بجميع أوراقي الخاصة. ومرت بي أوقات خلال مدة إقامتي الطويلة في المعهد حين بدأت حالتي

تتحسن، مما دفعها إلى التفكير في فتح الحقيبة، لكنها عندما قالت لميرزانى قال إن الوقت لم يحن بعد وأن الأفضل ترك الحقيبة كما كانت.

تمكنت من استعارة أغلبية طاقتي القديمة منذ إجرائي هاتين العمليتين الأخيرتين، نكني أتت بسهولة وبقي وزني تحت الوزن الطبيعي. ولأول مرة، أكافح لأزيد وزني في بلد الجميع فيه عازم دائما على إطعامك حتى التخمة. التخمة.

أكتب هذه السطور وقد مضى على إجرائي العملية الثانية ثلاث سنوات، ومع أنني تعافيت على نحو أبطأ بكثير منه في المرة الأولى، فأنا استرد عافيتي باطراد وأشعر أن أني نشيط تماماً.

عدت إلى ركوب الخيل مجددة منذ أكثر من عام، وأنا أتابع برنامج أسبوعياً. كما أنني أمارس رياضة المشي حين يكون الطقس جيداً، وإلا

أستخدم ماكينة المشي وفي الصباح، أرفع الأثقال، كما أنني سافرت إلى الأرجنتين في شباط / فبراير 2009م وأمضيت عشرة أيام في

ركوب الخيل في السهول صباحا ومساء أنا أعمل يومياً من ثلاثة مكاتب منفصلة من الساعة الثامنة والنصف صباحا حتى السادسة مساء وغالباً ما أقوم بوظائف نيلية. وفي أغلبية أيام عطل نهاية الأسبوع، أغادر منزلي أو أسافر إلى الخارج مرة في الشهر على الأقل لإلقاء كلمات.

ومع أنني أجريت عمليتين جراحيتين، فأنا أتمتع بصحة جيدة عموماً والناس يسألونني دائماً عن سر قوتي وكيف استدعت الظهور في سن أقل من سني الحقيقية وأنا أتحاشى تلك الأسئلة بالإجابة مازحاً بأنه ينبغي للمرء اختار والديه بعناية.

لكن سيل الأسئلة لا ينقطع؛ إذ يظن بعض أنني أخذ حقنا في سويسرا ويخبرون الآخرين بذل. حتى إن سيدة اقتربت مني في سوبر ماركت وسألتني إن كنت أتعاطى دواء كلفني 5,000 رنغيت في اليوم. وذهب عدد من الأشخاص إلى الصيدلية التي أشتري منها حبوب الفيتامين ليشتروا أي شيء أشتريه.

أخيراً، وعد بأن أحكي في مذكراتي كل شيء. لكن ماذا لدي لأقوله؟ يخيب أمل الناس إذا بدأت بالحديث عن الرعاية الصحية أو عن النظافة الشخصية لأنهم يرغبون في حل سريع، لكن لا يوجد مثل هذا الحل إلا أن هناك أمور معينة يمكن أن تساعدنا على أن نبدو في سن أصغر من سننا.

المحافظة على النشاط أمر مهم في المراحل العمرية كافة، لكن أهميته تزداد بعد التقاعد وأنا أحاول التمسك بروتين عملي قدر الإمكان، أنا أنهض من فراشي باكر؛ لأداء صلاة الفجر وبعد الصلاة، أحلق ذقني وأنظف أسناني وأستحم بمياه ساخنة جدا وأمارس تمارين

تنفسية عميقة وتمارين خفيفة لبضع دقائق قبل وجبة الإفطار.

أتناول وجبة إفطار خفيفة ثم أبدأ يومي ببعض الكتابة، أشعر بالضياع إذا لم أكتب شيئًا في الصباح الباكر وأظن أن الكتابة تنشط الدماغ وتساعد في المحافظة على حدة الذهن وأنا لا أجري تمارين مجهدة إلا نادراً وليس في صباح يوم عمل بالتأكيد. وأنا أمشي على ماكينة اتمشى بين الحين والأخر، ولا أمارس رياضة المشي بقدر ما أرغب كما أني لا أمارس لعبة الغولف.

لكني أهوى ركوب الخيل، وقد تعلمته وأنا في سن الستين، وكان الرئيس الباكستاني الجنرال الراحل محمد ضياء الحق قد دعاني لحضور الاستعراض السنوي في اليوم الوطني لباكستان. ذهبنا بالسيارة ثم ركبنا عربة تجرها الأحصنة وعلى جانبيها خيالة الباثان (الباشتون) في زي عسكري كام. تأثرت بما رأيت وقررت شراء حصانين في باكستان، لكن الرئيس ضياء الحق علم برغبتي وقرر إهدائي الحصانين. وهكذا بدأت بتعلم ركوب الخيل في سلا نغور بوو وهي ريدينغ كئوب.

أول شي. تعلمته بشأن ركوب الخيل هو الجلوس مستقيماً ومنصباً عني السرج، هذه الجلسة مهمة لأنها تقيك آلام الظهر. وأعتقد أنها تساعدني على الوقوف قائماً وعدم الوقوف متر هلا أو منحنية حتى بعد بلوغي سن الثمانين: لأن المرء يبدو كبير السن عنادها بحني ظهره.

اعتدت المشي كما لو كنت أمشي على إيقاع لحن عسكري، ومن الطبيعي أن تتباطأ مشية أغلبية الذين بلغوا الثمانين، حتى إنهم يمشون متثاقلين وهم يجرون أقدامهم. ويميل الأشخاص الأصغر سنة إلى مساعدة المسنين حين ينهضون ويقفون ويمشون ويصعدون السلالم.

وفي بعض الأحيان، يطلب المسنون المساعدة، فهم يتمتعون بكونهم محل عناية أبنائهم أو أحفادهم ورعايتهم. لكن إذا سمح المرء للآخرين بمد يد المساعدة، فقد يتطور ذلك إلى عادة ؛ فالأفضل لهم إذا أن يحاولوا تجنب طلب المساعدة والعون أطول مدة ممكنة، كما أن ذلك يضفي عليهم مظهر الشباب، وهذا فعلا جيد للتوتر العضلي (أي للقضاء على التوتر العضلي) والمحافظة على التوازن.

أحاول أيضا النوم ساعات كافية - ست ساعات ليلاً في سرير مريح إذا أمكن ذلك. ثم أخذ قيلولة قصيرة لمدة 15 دقيقة بعد الغداء. وفي هذه القيلولة لا أتمدد في أثناء نومي ولكن أجلس على كرسي مريح ورأسي إلى أعلى. وأنا أفعل الأمر نفسه حين أسافر وحين لا يكون بين يدي عمل أقوم به؛ إذ إن أخذ القيلولة والرأس إلى أعلى أمر مهم لأنك إذا تمددت. ستستيقظ مع شعور بالدوخة ولن تقدر على العمل.

وإلى جانب التمكن من اقتطاع أوقات قصيرة للنوم، ساعدتني خبرتي كطبيب زاول المهنة على العمل ساعات طويلة كرئيس وزراء. فبعد أن أنام طوال مدة سفري جوا، أتوجه مباشرة إلى عملي. ففي النهاية، عندما أزور دولا أجنبية، لا أستريح ولكن أبدأ بالعمل فور وصوتي أو في اليوم التالي على الأكثر لكن الأهم من ذلك كله أن نحافظ على سعادتنا إذا كنا نريد المحافظة على شبابنا، إن سعادة من وقعوا في الغرام واضحة جدا لكن يصعب البقاء سعيد طوال الوقت طبعا، لكنك إذا أحصيت نعم الله عليك كل صباح، ستشعر بالسعادة. ستبرز مشكلات يتوجب حلها، ومصائب تتعين مواجهتها، لكن يوجد شي ما تم يشعرك بالبهجة. وأنا أعتبر استيقاظي حيا نعمة عظيمة حتى في الماضي،

لكني أكثر استحضار أنها الآن كما ترى، ليس لدي وصفة خاصة كي لا تظهر في سني الحقيقي، والأشخاص الذين يتوقعون مني تسمية إكسير الشباب الذي يحفظ شبابي سيخيب أملهم والحقيقة هي أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل.

# تحديات جديدة وحلول جديدة

احتجت إلى بعض الوقت كي أتعافى من عملية المجازة التاجية في سنة 1989م، وإلى السفر إلى الخارج كي أشفى تماما. وفي النهاية، استعدت قوتي وأصبحت جاهزا لمواجهة تحديات سياسية جديدة.

بحلول ذلك الوقت، كان أمنو بارو، الذي سجل اسمه عقب إصدار المحكمة قرارا قضى بعدم قانونية أمنو الأصلي في سنة 1988م، يحقق نجاحات في كسب دعم أغلبية أعضاء أمنو السابقين، وأعيد إنعاش الهيكلية التقسيمية للحزب في البلاد كلها.

بحلول ذلك الوقت، كان أمنو بارو، الذي سجل اسمه عقب إصدار المحكمة قرارا قضى بعدم قانونية أمنو الأصلي في سنة 1988م، يحقق نجاحات في كسب دعم أغلبية أعضاء أمنو السابقين، وأعيد إنعاش الهيكلية التقسيمية للحزب في البلاد كله.

لكن في ولاية صباح، منيت الجبهة الشعبية الموحدة في صباح، أو برجايا، وحلفاؤها في الجبهة الوطنية بخسارة شنيعة في انتخابات سنة 1986م، ولطالما اتسمت السياسة في تلك الولاية بالتعقيد، فمع أن أغلبية سكان الولاية مسلمون وميالون إلى التحالف مع الحكومة الفدرالية، لم يشعر المدزندوسونيون الصينيون بالود لشبه الجزيرة أبدا، نتج من ذلك مشهد سياسي مقسم سياسيا، وزاده كثرة تنتقل السياسيين في صباح من حزب إلى آخر بشكل متكرر، وقد شاع حدوث ذلك إلى

حد أنه غدا سمة مميزة لسياسة ولاية صباح ولا تزال تمثل مشكلة إلى اليوم تحالفت المنظمة الوطنية المتحدة في صباح، بقيادة تون مصطفى هارون شخصية سياسية في صباح مدة طويلة. وبعد أن عين وزيرا أول في سنة 1967م، حكم بيد من حديد واستطاع دائما تقديم 16 مقعدا للجبهة الوطنية في كل انتخابات عامة. لكن بمرور الوقت، أظهر تون مصطفى استخفافا بالحكومة الفدرالية، ولا سيما عقب تنحي تونكو عن رئاسة الوزراء. وبحلول ذلك الحين، كان قد أصبح واسع الثراء ولم يتردد في استخدام ثروته، ويقال إنه في إحدى زياراته إلى كوالالمبور أمر بإعادة طائرته إلى صباح ليجلبوا له آلة الكمان.

لم تكن علاقتي بتون مصطفى جيدة، وبخاصة بعد أن انتقدت تونكو في سنة 1969ن، وفي أثناء لقاء سري، طالب بأن أعتذر إلى تونكو لكني رفضت. وفي النهاية، تلقى تون مصطفى وحزبه هزيمة في سنة 1976م على يد بيرجاسا، وهو الحزب الذي شكله داتوك سيري حارس صالح بدعم من الكدزندوسونيين، بمن فيهم داتوك سيري جوزيف بايرين كيتينغان. أوصل ذلك النصر حارس إلى السلطة وأصبح ثاني رجل يتقلد منصب الوزير الأول في ولاية صباح. جلب كثيرا من التنمية الولاية. بما في ذلك جزيرة لابوان التي أصبحت بموافقته الأرض الفدرالية الثانية فيماليزيا في سنة 1984م أحد الأسباب التي أدت إلى خسارة تون مصطفى مساندة الشعب أنه تحول إلى رجل مستبد. وارتكب حارس الخطأ نفسه وهزم حزبه في النهاية على يد حزب صباح المتحد بقيادة بايرين في انتخابات العام 1985م أقمت علاقة وثيقة مع حارس لكن ساورتني شكوك في بايرين لأني لم ألحظ مؤشرا واضحا على

ولائه للجبهة الوطنية. وما من مرة زرت فيها صباح عندما كان الوزير الأول فيها إلا وأحسست أني في أرض للمعارضة جامعتها الخاصة إذا فاز ائتلافنا فيها، كما اصطحبت بايرين في رحلتي إلى كوريا الجنوبية وتحدثت معه مطولا عن صباح ومستقبلها. وبوصفه الوزير الأول، سجل اعتراضه على موافقة حارس على أن تصبح لابوان أرضا فدرالية لأنه اعتبرها جزءا من ولاية صباح التي ينبغي تقويتها لا إضعافها وتأكيدا لزعمه، عقد ذات مرة اجتماعا وزاريا في بولاو لا يانغ، وهي جزيرة في بحر الصين الجنوبي استعادتها الحكومة الفدرالية، للإشارة إلى أنها أيضا جزء من صباح. كما تناول بإسهاب القضايا العشرين التي زعمت صباح عدم التوصل إلى تسوية بشأنها منذ انضمامها إلى ماليزيا. توقعت أن أعاني مشكلة معه ولذلك تعين علي البحث عن حليف قوي في مكان آخر زرت جميع الولايات بدءا بجوهور لتوطيد نفوذ أمنو والجبهة الوطنية إن فشل تنكو رزاليع حمزة في إزاراحتي أقنع المتطرفين والقادحين في هذه الأثناء بأنه لا يمكن الإطاحة بي بسهولة. وبعد تنفيذ عملية لا لانغ، لم تعد الصحافة والمنظمات غير الحكومية تثير القضايا العرقية مثلما كانت تفعل في الماضي، مع أنه أخلي سبيل أغلبية الموقوفين تقرر إجراء انتخابات عامة بحلول سنة 1990م، ومع أني لم أتوقع تحقيق نتائج طيبة، بقيت عل اعتقادي بأن الجبهة الوطنية ستفوز بأغلبية الثلثين. وفي غمرة تحضيراتنا للانتخابات، توفي اثنان من رؤساء الوزراء السابقين في كانون الأول/ ديسمبر، هما تون حسين عون وتونكو عبد الرحمن. قضى تون حسين نحبه في أمريكا في أثناء خضوعه لعلاج طبي، فيما توفي تونكو في مستشفى كوالالمبور العام.

وبحسب وصية كل منهما، ووري تون حسين الثري في المقبرة الوطنية بجانب المسجد الوطني، فيما دفن تونكو في ضريح قدح ملكي في الانغار شمال شرق ألور ستار.

في هذه الأثناء، بدأ داتوك الدكتور جيفري كيتنغان، شقيق بارين الأصغر، بإثارة ما سمي القضايا العشرين، نال جيفري، متقلب المزاج، شهادة دكتوراه من جامعة هارفاد. وكانت لديه طموحات سياسية كبيرة أيضا، لكنه كان يدعم الطرف الخطأ دائما وكان يقفز من حزب إلى آخر بلا تأنيب ضمير.

عندما بدأ بالحديث عن إمكانية انفصال ولاية صباح عن ماليزيا، اعتقل ووضع قيد الاحتجاز. وساند الجبهة الوطنية عقب إطلاق سراحه، لكنه أحس بخيبة أمل كبيرة حين لم يعين وزيرا في حكومة صباح. وحاليا. يدعم جيفري حزب العدالة الشعبي، وهو الحزب الذي شكله داتوك سيري أنور إبراهيم عقب اعتقاله عندما أجريت انتخابات سنة 1990م، توجهت إلى صباح للمشاركة في الحملة الانتخابية، لكن الأجواء هناك لم تكن جيدة على الرغم من وعدي بناء جامعة الولاية. وعقب عودتي إلى كوالالمبور، وفي أثناء جلوسنا إلى مائدة العشاء في أنغكسابوري (مركز الإذاعة والتلفزيون الوطني)، همس وزير الإعلام تان سري محمد رحمات في أذني قائلا إن بايرين قد سحب حزب صباح المتحد من الجبهة الوطنية. سر تنكو رزاليغ حمزة حين وقف حزب صباح المتحد في جانب ائتلاف المعارضة، كان ذلك مثالا آخر على التقلب السياسي كثير الحدوث في صباح.

سارعت إلى دعوة المجلس الأعلى في أمنو إلى اجتماع تقرر فيه

تشكيل فرع لأمنو في صباح. وكانت سياستنا إلى ذلك الحين تقضي بعدم إضعاف الأحزاب المحلية الموالية للجبهة الوطنية في صباح وسراواك بتأسيس فرع لأمنو فيهما. والآن على انشقاق حزب صباح المتحد، توجب علينا تأكيد حضورنا في صباح للمحافظة على موقع الجبهة الوطنية.

لم تكن المهمة سهلة، لكن تون غفار بابا، مساعد رئيس أمنو، أمضى وقتا طويلا في صباح لتنظيم أقسام حزبنا في جميع الدوائر الانتخابية. وقد جاء الرد جيدا، لكنه لم يرق إلى حد مساعدة الجبهة الوطنية على الفوز بعدد كاف من المقاعد يخولها تشكيل الحكومة في الولاية. على الرغم من تأسيس فروع لأمنو في الولاية بحلول يوم الاقتراع، لم تستطع المشاركة في الانتخابات بسبب انشقاق بايرين، وجاء رد أمنو على ذلك بعد انتهاء مهلة الترشح. وجل ما كان في استطاعة أمنو فعله كان مساندة أوسنو، حزب تون مصطفى. وشارك بيرجاسا، حزب حارس، بثمانية وأربعين مرشحا لكنه لم يفز ولو بمقعد واحد. وتمكن أوسنو من الفوز بأربعة عشر مثعدا فقط من أصل مقاعد الجمعية الثمانية والأربعين في الولاية. ومن ناحية أخرى، حقق حزب صباح المتحد نصرا مبينا، إذ فاز بأربعة عشر مقعدا من مقاعد البرلمان بينما لم تفز الجبهة الوطنية سوى بستة مقاعد، وكان ذلك أسوأ أداء للجبهة الوطنية في صباح

لكن في شبه الجزيرة، أنزلت الجبهة الوطنية هزيمة ساحقة بائتلاف المعارضة بقيادة سمنغات 46 الذي يرأسه تنكو رزاليغ. لكن آمال بابرين بالبقاء في الحكومة الفدرالية تبددت لأنه راهن على الحصان الخاسر. وبانشقاق بأيرين عن الجبهة الوطنية، خسر الفائدة التي كان سيجنيها

يوما ما من الحكومة الفدرالية لتطوير ولاية صباح، ولا سيما تأمين جامعة لولايته.

وبعد أن تبين أن حزب صباح المتحد لم يعد يحظى بتعاون الحكومة الفدرالية، انشق عنه عدد من أعضائه.

وفي شبه الجزيرة أيضا، خسرت الجبهة الوطنية ولاية كلانتا من جديد، وكان تون حسين قد استعاد الولاية في سنة 1978م عندما انقسم حزب باس إلى فصلين وحين اعتقد عدد من الناس أن ذلك علامة على أفول نجم (باس)، لكني رأيت خلاف ذلك وتبين أنني كنت على حق؛ ولم يستطع الفوز بأكثر من مقعد واحد، ما خسرت الجبهة الوطنية جميع المقاعد التي تنافست عليها، فيما فاز باس وسمينغات 46 معا بثمانية وثلاثين مقعدا. وبات يحكم كلانتا الآن ائتلاف فضفاض يضم باس ما ظهرت الانشقاقات. وفي النهاية، حل سمينغات 46 وعاد أعضاؤه وفائده تنكو رزاليغ وانضموا إلى أمنو. لكن الاستياء من سمينغات 46 في أوساط أمنو بقي قويا، فيما آثر بعض أعضاء سمينغات 46 البقاء مساندين للمعارضة.

على الرغم من خسارة الجبهة الوطنية في صباح وكلانتا فإنها نجحت في الحفاظ على أغلبية الثلثين في البرلمان. وبذلك استعادت الحكومة قوتها، ما سمح لنا بالتركيز على التنمية الاقتصادية وعلى المحافظة على معدلات نمو مرتفعة بين العام 1987م والعام 1977م. بدا أن روح الشعار الجديد (يمكن لماليزيا أن تفعل ذلك) ترسخت وواكبت فترة النمو هذه. وأفتتح (سجل مآثر الماليزيين) وسعى الناس الآن لتحقيق مآثر غير عادية لتسجيل أسمائهم فيه. وقد ولدت هذه الروح التنافسية

الجديدة، المقرونة برغبة في إثبات أن في وسع الماليزيين فعل أي شيء، حماسة منقطعة النظير في البلاد. وعلى سبيل المثال، جاب داتوك أزهر منصور بحار العالم منفردا، وتسلق داتوك أم ماجندرين وداتوك أن مهندس قمة إفرست؛ وقطع داتوك عبد الملك القنال الإنكليزية سباحة؛ وقطعت داتين بادوكا شريفة مزلينا سيد عبد القادر مسافة 1, 100 كم عبر إنتركتيكا وصولا إلى القطب الجنوبي. ونظمت لاحقا رحلة استكشافية توجهت إلى القطب الشمالي، وهتف الناس لهؤلاء الماليزيين الشجعان ورأوا أن إنجازاتهم حققت مستوى عالميا إن لم تكن قد سجلت أرقاما عالمية. لكن على الرغم من هذه العزيمة الجديدة، بقيت حقيقة أننا لم نبلغ أهداف السياسة الاقتصادية الجديدة. ومضى بحلول ذلك الوقت أكثر من 20سنة على تنفيذ هذه السياسة، وبدا كما لو أننا لن نقدر على تحقيق هدف تمليك السكان الأصليين 30 في المئة من ثروة الشركات. وفيما عدا العاملين في المهن الحرة، بقيت أغلبية الملايويين والماليزيين الآخرين من السكان الأصليين متخلفين كثيرا عن الأعراق الأخرى.

وفي الواقع، زادت التباينات الاقتصادية بين الملايويين والصينيين بالقيمة المطلقة منذ تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة. وذلك عائد ببساطة إلى كون ثروة البلاد اليوم أكبر بكثير والفارق في الثروة الذي بلغ 28 في المئة بين الملايويين والصينيين في سنة 1970م محسوب على ناتج إجمالي محلي صغير. واليوم، أصبح الناتج المحلي الإجمالي أكبر بمرات عديدة من نظيره آنذاك، وحصة الأربعين في المئة التي يمتلكها الصينيون من الناتج المحلي لإجمالي الجديد الكبير ستكون

أكبر بثير بالقيمة المطلقة من حصة الثلاثين في المئة من الناتج المحلي الإجمالي التي امتلكوها في سنة 1071م، ومع ذلك، بقي الملايويون متخلفين عنهم وزاد التباين بين الطرفين. والصينيون لا يرغبون في تسليط الضوء على هذه الحقيقة أيضا لأن ذلك سيدفع الملايويين إلى مطالبة الحكومة بمزيد من السياسات الفاعلة لتصحيح هذا الخلل في التوازن.

احتجت إلى تمديد العمل بالسياسة الاقتصادية الجديدة، لكن مع وقوف تنكو رزاليغ في صفوف المعارضة وتحقيق حزبه مكاسب كبيرة، يمكن أي خطوة خاطئة إحداث أزمة. والواضح أن أغلبية الملايويين استاءت من الفشل في بلوغ هدف امتلاك 30 في المئة من ثروة الشركات ولم يقبلوا بتحميل أنفسهم أغلية المسؤولية عن ذلك الحكومة على عدم مساعدتها الكافية لهم، لاموا الصينيين، لاموا الجميع إلا أنفسهم وعجزهم عن بلوغ مستويات جديدة في الكفاءة والثقة بالنفس أو حتى محاولة بلوغها.

ويضيف مهاتير محمد قائلاً وبحلول العام 1990م، لم يحرز السكان الأصليون إلا 20 في المئة من ثروة الشركات الوطنية، وتم ذلك بدرجة كبيرة من خلال صناديق حصص الاستثمار المتنوعة التي تديرها الحكومة. ومع أن ملكيتهم من الأسهم زادت من حيث الحجم المطلق، فإن لنمو السريع الذي حققه اقتصاد البلاد عنى أن الثوة التي امتلكها الملايويون لم تتجاوز 20 في المئة، بل إنها تقلصت قليلا في الواقع.

كانت زيادة ثروة الشركات، أو محاولة القيام بذلك، طريقة جربناها، وكانت إتاحة الفرص التعليمية طريقة أخرى. وبسبب العدد الكبير من

المنح الحكومية طرأت زيادة كبيرة على عدد أصحاب الاختصاص في السكان الأصليين، فارتفعت نسبة الأطباء من السكان الأصليين إلى نحو 40 في المئة من مجموع الأطباء، فيما لم تزد عن نحو خمسة في المئة سابقا. وطرأت زيادة كبيرة بالمثل على عدد المهندسين، والمعماريين، والأطباء البيطريين، والمحاسبين، والمحامين، والعاملين في الفنادق، وفي المهن الرئيسة الأخرى من السكان الأصليين. ونجح بعضهم كمطورين، وصناعيين، ومنتجين، وعاملين في قطاع النقل، حتى إن عددا منهم أصبحوا، بانتفاعهم من سياسة الخصخصة التي انتهجتها الحكومة، متعهدين قادرين على منافسة غير الملايويين.

إحدى النواحي التي كاد السكان الأصليون يفشلون فيها فشلا كاملا أعمال تجارة السفرق؛ إذ يبدو أنهم لا يحبون هذا القطاع لأنهم لا يستطيعون الإثراء بسرعة من خلاله، لكن يتعين على الأشخاص الذين يبغون النجاح في القطاع المهني تقبل الحاجة إلى الاجتهاد في العمل، والمثابرة عليه ساعات طويلة، والتحلي بعادات نظامية وإدارة منضبطة للوقت. وعوضا عن استمتاع المرء بجميع لأرباح اليوم، يلزمه القبول بالمتعة المؤجلة والاستعداد لاستثمار بعض أرباحه في تنمية تجارته أملا بالتمتع بعائدات أكبر في وقت لاحق. لكن هنا أيضا، لا يبدو موقف الملايويين بعيدا عن المنطق تماما حين النظر إلى الأمور على المدى القصير. إن المفاتن على المدى القصير تغريهم بعدم امتلاك نظرة بعيدة المدى، وأنا أعتقد أن جذور هذه النظرة ضاربة في عمق الثقافة الملايوية، صحيح أن بعض الملايويين أصبحوا وكلاء لشركة بروتون ومدراء لمحطات وقود، لكن بالكاد نجد، باستثنائهم؛ أي عاملين

بأعمال تجارة المفرق، في المناطق الحضرية. ولا يزال الطابع الصيني مهيمنا بدرجة كبيرة على بلداتنا ومدننا، وحياتنا التجارية وبالتأكيد لقد فشلت السياسة الاقتصادية الجديدة في تغيير الطابع الأساسي للبلدات الماليزية.

من جانبي، كنت أتمنى وقف العمل بهذه السياسة وترك السكان الأصليين في ميدان المنافسة بلا مساعدة؛ إذ إن وقوفهم على أرجلهم هو المطلوب منهم تماما. لكني أخشى أن يفشلوا، والسماح بانكفائهم من جديد سيكون خطرا، والسماح لشبح التباينات الاقتصادية بأن يطل رأسه من جديد سيكون أمرا لا يمكن الصفح عنه، ولا تزال أغلبية الناس شديدة التحسس لأعراقها. وإذا تجدد الوضع الذي كان سائدا قبيل أعمال الشغب التي اندلعت في سنة 1969م، ربما تنطلق شرارة اشتباكات عرقية جديدة بسهولة.

لكن غير الملايويين راقبوا الحكومة عن كثب، وكنت على ثقة بأنهم ستعرضون على تمديدي العمل بالسياسة الاقتصادية الجديدة. وإذا لم أمدد العمل بها، ربما يجعل تنكو رزاليغ والحزب باس والملايويون من المسألة قضية.

أخيرا، قررت الإبقاء على عناصر معينة في السياسة الاقتصادية الجديدة وإضفاء طابع أكثر وطنية وشمولا عليها بصياغة سياسة تنمية وطنية. بموجب سياسة التنمية الوطنية، سنتمسك بإيثار الملايويين في القطاع المهني، لكنهم إن لم يتجاوبوا أو لم يقدروا على الانتفاع من الفرص المتاحة لهم، يصبح من حق غير الملايويين الانتفاع بتلك الفرص. كما أضفينا مزيدا من المرونة على شرط مشاركة السكان

الأصليين بنسبة 30 في المئة، حتى إن صناديق حصص الاستثمار التي تديره الشركة المحددة للاستثمار فتحت أمام الماليزيين من أصول تايلاندية أولا ثم أمام الماليزيين من أصول برتغالية بعد ذلك. وفي النهاية، فتحت صناديق حصص الاستثمار أمام الجميع، وبموجب سياسة التنمية الوطنية، استطاع غير الملايويين الانتفاع أحيانا من خلال مقاولة الباطن، وإقامة شركات مع مواطنين ناجحين من السكان الأصليين، بشراء عقود حكومية من الملايويين في بعض الحالات.

وبموجب هذه السياسة، صار في مقدور المواطنين من غير السكان الأصليين الانتفاع بطريقة مباشرة بتولي المشارع التي لم يقدم الملايويون عطاءات لنيلها.

كما منح طلاب من غير السكان الأصليين عددا أكبر من المنح الدراسية وخصص لهم عدد أكبر من المقاعد في مؤسسات التعليم العالي. إن أهداف سياسة التنمية الوطنية أقل جمودا لأن الحكومة رغبت في التحلي بمرونة في تنفيذه، كما طرحت أفكار جديدة عديدة لزيادة مشاركة السكان الأصليين.

وبحلول ذلك الوقت، أمكن استخدام برنامج الخصخصة بلا قيود لزيادة الفرص المهنية الكبيرة المتاحة للسكان الأصليين من دون إقصاء غير الملايويين.

شجعت الحكومة على منح حقوق امتياز في أعمال تجارة المفرق. وبناء على ذلك، أعطيت حقوق امتياز في المهن الصغيرة كافة، مثل: الفنادق الصغيرة، ومغاسل الثياب، ومحلات الطباعة ومطاعم الوجبات السريعة.

وتعاون غير الملايويين في هذا المخطط، بجعل مؤسساتهم ذات الامتيازات متاحة للملايويين المقتدرين. وزيدت برامج التدريب وتخرج مزيد من العمال المهرة من الملايويين ومن السكان الأصليين.

لم تكن سياسة التنمية الوطنية استمرارا للسياسة الاقتصادية الجديدة تحت اسم آخر- أردنا التشجيع على تعاون ذي مغزى بين الملايويين وغير الملايويين وتوقعنا أن يستثمر الملايويون أموالهم في الأسهم ثم يجتهدوا في العمل في شركائهم غير الملايويين. وهذا ما حصل بدرجة معينة؛ إذ برز عدد من المتعهدين والمقاولين الماليزيين وقاموا بعمل ممتاز، وطوروا قدرة كافية ليكونوا مستقلين، وقد مالت الحكومة بالبداهة إلى منح هذه الشركات المقتدرة العقود. وفي هذه المرة أيضا، وجهت اتهامات بمحاباة المقربين، لكن محاباة غير المقتدرين كانت ستؤدي إلى فشل أكيد وإلى مشكلات مالية، وتبين أن إقناع النقاد بأن الحكومة لا تحابي أحدا مهمة تكاد تكون مستحيلة يستمتع الملايويون كونهم شركاء نائمين لأن يناسب مزاجهم ونمط عيشهم. في الماضي، كان المزارعون الملايويون في القرى يمكنون أصحاب المحلات الصينيين من الحصول على جميع محاصيلهم في مقابل بضائع وسلع تموينية من المحلات الصينية. نادرا أما كان المزارع الملايوي يعرف؛ إذ لم يكن لديه وسيلة ليعرف، إن كانت قيمة ما حصل عليه مساوية لما كانت ستدره محاصيله لو باعها نقدا. لم يحتفظ بسجل لقيمة محاصيله أو البضائع التي حصل عليها سابقا، أو سيحصل عليها لاحقا، من عملية المقايضة. وربما اقترض المال من صاحب المحل أحيانا ولم يكلف نفسه عناء سداده مفترضا ببساطة أن المحصول الذي يعطيه لصاحب المحل سيغطي

كل شيء. لم تكن تلك المقاربة العقلانية اللازمة ليتقدم الملايويون اقتصاديا.

حتى إن ملاك أراضي مناجم القصدير الكبيرة فعلوا الأمر نفسه في الماضي. أعطوا امتيازات التنقيب للصينيين العاملين في التنقيب عن القصدير وكانوا سعداء بالحصول على أي ثمن يختار الصينيون دفعه، ولا يوجد دليل على أنهم تحققوا فعلا من كميات القصدير المستخرجة. وإذا كان خدامهم الملايويون يتحققون من عدد الأكياس التي تحتوي على خام القصدير، يرجح أن الخدام أيضا كانوا يأخذون رشى، لكن الدخل الذي حققه ملاك أراضي مناجم القصدير الكبيرة من الامتيازات التي نحوها الصينيين العاملين في التنقيب عن القصدير كان أكبر بكثير من الدخل الذي كانوا سيحققونه لو نقبوا عن القصدير بأنفسهم. فطرقهم في التنقيب كانت أقل كفاءة لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء تعلم طرق الصينيين في التنقيب وتقليدها وتكييفها لرفع مستوى إنتاجهم. وكانوا سعداء برؤية الصينيين وهم يفعلوا ذلك وتقاضي المال وهم جالسون بلا حراك والنتيجة هي أن العاملين الصينيين في التنقيب عن القصدير جمعوا ثروات طائلة، وافتقر ملاك الأراضي الملايويون بالتدريج مع نضوب موارد القصدير، ولابد من أن الملايويين لاحظوا ذلك، لكنهم لم يسعوا إلى التنقيب في أراضيهم التي هي ملك لهم.

نحن نرى الممارسة ذاتها في أيامنا الحاضرة حين تباع الرخص والعقود وأذونات الاستيراد للصينيين. لم يدخل عالم المال والأعمال فعلا غير عدد قليل من الملايويين الذين جمعوا ثروات أكبر بكثير من الذين باعوا عقودهم ورخصهم وأذوناتهم لقاء مكسب سهل قصير

المدى، والواضح أن أولئك الملايويين أصبحوا واسعي الثراء أيضا، لكن بيعهم رخصهم وعقودهم وغير ذلك، لم يسهموا بشيء في محاولة بلوغ أهداف السياسة الاقتصادية الجديدة ولا في التنمية الاقتصادية في البلاد، كما أن ثروتهم لم تدم طويلا. وقد رأينا ملايويين منحوا امتيازات في الغابات مثلا وأصبحوا من أصحاب الملايين بين عشية وضحاها، لكنهم اليوم معوزون. وأعتاد عدد من الملايويين حياة قائمة على الحصول على دعم اقتصادي متواصل إلى حد أنه حين توقف سيل الأموال لم يتمكنوا من الاتكال على أنفسهم. وعوضا عن اكتساب معلومات عن المهن وتعلم إدارة المال، سخروا طاقاتهم في البحث عن عقود والبحث عنو فرص سهلة قصيرة الأجل.

في الظاهر، يبدو أن الملايويين قوميون إلى حد أنهم يصبحون عنصريين في بعض الأحيان. ويمكن أن يصبحوا شديدي العداء للصينيين ولم يترددوا في اللجوء إلى الوقاحة والبعد عن التعقل حين توجه إليهم انتقادات، ويوقفهم هذا يذكرنا بسلوك العرب في فلسطين؛ فعندما بدا الصهاينة أولا بمحاولة إقامة دولة إسرائيل على تراب فلسطين، لم يمتلك اليهود غير خمس في المئة من الأراضي وكان عدد اليهود ضئيلا بالمثل في فلسطين، لكن فيما تفنن العرب الفلسطينيون في إدانة المخطط الصهيوني، باعوا أراضيهم لليهود عن طيب نفس، وسواء أكانوا وطنيين أم لا، لم يتمكنوا من مقاومة إغراء الأسعار التي عرضت عليهم.

لا أقصد بذلك الإشارة إلى أن مواطنينا الماليزيين الصينيين يشبهون اليهود، وإنما أردت القول إن الملايويين تصرفوا مثلما تصرف عرب

فلسطين، وبصراحة، عندما برر البريطانيون الانسحاب من سنغافورة، كان الواجب إعادتها لتكون جزءا من ماليزيا، لكن الملايويين هناك غدوا أقلية ضئيلة فقيرة ليست لديها أراضي من الناحية الفعلية، ما جعل ضم سنغافورة إلى ماليزيا مستحيلا. ولو ضمن ملايويو سنغافورة وجوهور بقاء أجزاء واسعة من سنغافورة في حوزتهم، وأنهم ضمنوا بقاءهم أغلبية سكان سنغافورة، لكانت سنغافورة اليوم جزءا من ماليزيا بلا شك، لكن بالنسبة إلى ملايويي إقليم ويليزلي، ستكون بينانغ أشبه بسنغافورة.

يحب الملايويون الاعتقاد أو الزعم بأن الصينيين نجحوا في المهن عن طريق الغش، لكن حين يريد الملايوي التوقيع على عقد (لبناء منزل مثلا)، لا منح مقاولا ملايويا العقد، بل يؤثر عليه مقاولا صينيا، الواضح أنه يثق بالصينيين أكثر مما يثق بالملايويين.

وكوني ملايويا، أتردد في شجب أخلاق العمل السيئة لكثير من الملايويين، لكن هذا ما يعيدهم إلى الوراء ويمنعهم من النجاح في عالم المال والأعمال. وأعتقد أني رأيت هذه الأمور بوضوح بخلاف كثير من الملايويين. لدى بعض الأفكار الواضحة بشأن كيفية التغلب على أوجه الضعف هذه، على نحو جزئي وتدريجي إن لم يمكن الغلب عليه بالكامل وفورا. أعتقد أنني أستطيع ترويج هذه الأفكار ببراعة بالاجتماع بالملايويين، كما ذكرت سابقا، والتحدث إليهم بقسوة وصراحة. وسعيت أيضا لجعل نفسي قدوة من خلال عاداتي ومواقفي في العمل، لكنني لا أعتقد أنه كان لي تأثير كبير، ولا أزال قلقا على مستقبل الملايويين. إذا لم يتعلموا كيف يواجهون التحديات في الحاضر وفي المستقبل كشعب، فإن ما سيحصل لهم غني عن البيان. سيهمشون من جديد، كما

فعل بهم في زمن الاستعمار، حيث سيكون بقاؤهم كأفراد أو كأسر بل كشعب محفوفا بمزيد من المخاطر. لا يمكن افتراض بقاء الملايويين واستمرار وجودهم، لكن يتعين السعي له باستمرار. وأنا أسأل نفسي إن كان سيوجد مكان للملايويين دائما في العالم، حتى في بلادهم وأنا أخشى أن تلك الكلمات الشجاعة التي تفصح عن التحدي الملايوي (ينبغي لنا نحن الملايويين ألا نزول عن هذا العالم)- ستؤرقنا في يوم من الأيام. ولطالما كان تلافي حصول ذلك أكبر تحد واجهه جيلي وواجهته طوال حياتي. كما إنه سيكون أكبر تحد للجيل الملايوي التالي ولمن سيأتي بعده إلى أبعد مرحلة في المستقبل يمكننا تصورها. وأنا أسف لأولئك الملايويين الذين يطالبون، بعد أن انتفعوا من جهود رفع المظالم، بوجوب حرمان من سيأتي بعدهم من المنافع ذاتها.

# الرؤيـــة 0202

بقدر ما أقلقني تقدم الملايويين، أردت التأكد أيضا من أن ماليزيا ككل يمكن أن تسير قدما. بحلول أواخر ثمانينيات القرن الماضي، شهدنا معدل نمو بلغ في المتوسط ثمانية في المئة سنويا، وهو معدل جيد على نحو استثنائي. بدا أن سياستنا تؤتي ثمارها وأننا نسير إلى الأمام- لكن إلى أين؟

وجدنا أننا في حاجة إلى وضع هدف نهائي، ولذلك طور تان سري الدكتور نور الدين سوبي، من معهد الدراسات الاستراتيجية والدولية، مخططا تفصيليا مفاهيما رسم مسار تنميتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وأنا أنجذب، كوني طبيبا، إلى القياس البصري للرؤية: يشير الرقم 2020 إلى رؤية بنسبة مئة في المئة في كلتا العينين. وتلك كانت التسمية التي أطلقناها على خطتنا في النهاية- الرؤية -2020 لأنها تضمنت فكرة واضحة عن المكان الذي ننوي الوصول إليه والحال التي ينبغي أن نكون عليها بحلول سنة 2020.

أطلقنا الرؤية 2020 في سنة 1991م وهي خطة تمتد ثلاثين سنة تلحظ ما يلزمنا القيام به لنصبح دولة متقدمة. اعتبرت تسع عشرة دولة في ذلك الوقت بأنها متقدمة تماما، ومنها المملكة المتحدة وكندا وهولندا والسويد واليابان. لكن هل كنا في حاجة إلى سلوك المسارات نفسها التي سلكتها تلك الدول؟ لا شك في أن لكل مسار نقاط قوة، ونقاط ضعف أيضا. هناك كثير من الأمور التي تميز الدول المتقدمة ولا

ترغبها، مثل ماديتها المتطرفة وانحلال قيمتها الأخلاقية، هذه ليست الخصال التي أردنا محاكاتها أو إعادة إنتاجها. وأردنا أن تتطور ماليزيا وتصبح دولة عصرية بحسب نمطنا التاريخي الخاص، مع عدم المساس بفضائلنا وقيمنا الأخلاقية المتميزة، أردنا أن نرسم خط رحلتنا ونصبح دولة متطورة في قالبنا الثقافي الخاص، وبقيت أشدد طوال سنين على إيماننا ببناء مجتمع مفعم بالرعاية والمشاركة، مجتمع كثير الدينامية، لكن بلا جشع. أردنا مجتمعنا له وجه إنساني وقلب إنسان كبير.

لم نجد معيارا ولا مؤشرا واحدا كي نتبعه، فالثروة حين تحسب بناء على دخل الفرد لا تشير في حد ذاتها إلى مستوى تطور البلاد. وعلى سبيل المثال، دخل الفرد مرتفع جدا في الدول المنتجة للنفط، لكن لا يمكن اعتبار سوى قلة منها، إن وجدت، دولا متقدمة. وأغلبيتها مصنفة في عداد الدول النامية، بل إن بعضها دول متخلفة أو تعاني نموا متوقفا. ومع ذلك، يعد دخل الفرد المرتفع سمة أساسية دائما- سمة ضرورية لكنها ليست كافية في حد ذاتها. لاحظنا أن أغلبية الدول المتقدمة صناعية بدرجة كبيرة وتتمتع بمستويات تعليمية مرتفعة، ولا سيما في العلوم والرياضيات، ومشاركتهم الشعبية في الشؤون العامة والحكم واسعة، واقتصاداتهم مبنية على الأعمال الحرة.

إذا كانت ماليزيا تريد أن تصبح دولة متقدمة، يلزمها إظهار أغلبية المزايا القياسية لتلك الدول ولن تكون امتلاك بعضها بالغ الصعوبة لأننا أصلا دولة ديمقراطية فيها قطاع خاص قوي وشعب مثقف. اعتقدنا أنه يتعين زيادة ثروة السكان ليبلغ دخل الفرد السنوي نحو 16,000 دولار أمريكي. ولبلوغ ذلك الهدف، نحن في حاجة إلى نمو بمعدل سبعة في

المئة سنويا على مدى ثلاثين سنة بدءا بالعام 1991م.

قدمت تقرير (الرؤية 2020) في أول اجتماع للمجلس المهني الماليزي يوم 8 شباط/ فبراير 1991م، قلت إنه يتعين أن تتخطى تنميتنا الإطار الاقتصادي وعلينا أن نكون دولة راقية سياسيا ومتقدمة اجتماعيا وثقافيا مع عدم التفريط في قيمتنا الروحية والأخلاقية ويتوجب أن تعكس نوعية حياة الماليزيين مستوى التقدم الذي توقعنا تحقيقه وأن تجاريه ويتعين أن يكون لدى أبناء شعبنا ما يبرر اعتزازهم بكونهم ماليزيين، واعتزازهم ببلدهم وإنجازاته. يتعبن عليهمْ الوقوف شامخين أمام أنظار العالم، على أن يكونوا متواضعين فيما بينهم فيما يتصل بمنزلتهم الاجتماعية والاقتصادية.

احتجنا إلى تحديد العقبات المحتملة كافة من البداية وامتلاك فكرة ما بشأن كيفية تجاوزها. وفي سياق ذلك كله، تعين علينا مراعاة أجندتنا الوطنية الخاصة برفع المظالم بحسب ما هو مذكور في السياسة الاقتصادية الجديدة ومن بعدها سياسة التنمية الوطنية. وبالجملة، حددت تسعة تحديات توجب علينا مواجهتها، ومع أنه ليس فيها تحد جديد، فقد باتت تستلزم عناية مركزة الآن إذا كنا ننوي التقدم نحو تحقيق هدفنا.

**احتجنا، أولا، إلى بناء دولة ماليزية واحدة وموحدة، ويتعين على جميع الماليزيين اعتبار أنفسهم أبناء بلد واحد وأوحد وإن كانوا من أعراق مختلفة؛ فمع أننا مختلفون في أصولنا، فإن مصيرنا واحد وربما نختلف في ولاءاتنا السياسية أيضا، لكن يتعين أن يكون ولاؤنا للأمة وتفانينا في سبيلها ثابتين لا يتزعزعان. وكنا جميعا، بلا تحفظ أو قيد،**

جزءا من شعب ماليزي واحد، شعب متحد لكنه متنوع.

توجب أيضا أن تكون الأمة آمنة نفسيا، وكان علينا أن نعتز بأنفسنا وبإنجازاتنا، وعنى ذلك أنه توجب على مجتمعنا السعي للتفوق باستمرار وألا نقنع بأقل من ذلك. لكن لا بد من أن تكون النوعية التي تسعى إليها مناسبة لنا، لا أن نستعيرها من جهات لها اهتمامات وتطلعات مختلفة عن اهتماماتنا وتطلعاتنا. توجب علينا وضع حد لإذعاننا للغربيين، وبخاصة المستعمرون السابقون، وكان علينا أن ننال استقلالنا بمعناه السياسي وأن تفرض ماليزيا سيادتها. وعلى مستوى الأفراد ومستوى المجتمع، كان علينا أن نحقق استقلالا ذهنيا ونفسيا أيضا، كان علينا النهوض وفقا لشروطنا الخاصة وتأكيد شخصيتنا وقيمتنا، وكي يحترمنا الآخرون، توجب علينا احترام أنفسنا أولا.

في هذه الأثناء، لا بد من أن تكبر سياستنا وتتجاوز الإطار الذي كانت فيه. وتعين أن تكون دولتنا ديمقراطية ناضجة تركز على المجتمع بحق، بناء على روح التوافق وممارسته. عني ذلك أنه يتوجب على الماليزيين الأفراد إلزام أنفسهم بشكل مطلق بالتمسك بمجتمع أخلاقي شريف يحترم القيم الدينية والروحية. كما تعين علينا اختراق الحواجز العرقية التي سببت لنا آلاما وانقسامات كثيرة في الماضي. إذا كنا نريد أن يكون مجتمعنا ناضجا، علينا القبول بأنه من حق الماليزيين على اختلاف عقائدهم ومشاربهم ممارسة شعائرهم وعاداتهم وثقافاتهم، ويتعين على الماليزيين القبول بتلك الفوارق وكذلك بالأساس المشترك لاعترافهم وتوكيدهم وهو معرفة أنهم جميعا ينتمون إلى شيء أكبر من هوياتهم الفردية الموروثة.

كما كان إحراز تقدم في مجال العلم التكنولوجيا حيويا لأننا احتجنا إلى الإقلاع عن كوننا مستهلكين للتكنولوجيا ببساطة. كان علينا البدء بالابتكار والتطوير بالاعتماد على أنفسنا وألا تكون مجرد متلقين أو مستهلكين باليدين؛ لأن ذلك لن يمكننا من إحداث التغييرات الاجتماعية الرئيسية التي نتطلع إليها. وتوجب علينا أن نكون في مصاف الدول الخلاقة الأخرى، وأن نكون قادة في ميدان الاكتشاف العلمي والابتكار التكنولوجي كما توجب علينا شعبا ومجتمعا تجنب عقلية دولة الرفاهية التي تسيطر على الغرب، فاحتجنا بحق إلى احتضان ثقافة رعوية في مجتمعنا على أن تكون مسببة على نظام أسري قوي ومرن. والتشجيع على تقليص الاتكال على الدولة لن يبني مثل هذا المجتمع المتماسك والمعتمد على الذات، كما أننا لن نبنيه بالنزعة الفردية العنيفة والطائشة- استسلم الغرب في وقت واحد لكلا المرضيين وتكبد تكلفة باهظة. تنبع قوة المجتمع الآسيوي من أساسه الأسري القوي الذي يجمع ويوازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية. وفر هذا الأساس سياقا لتربية نشء ركز على الأهداف بجدية مع التمسك بالأخلاق وتحمل المسؤولية.

رأينا الضرر الاجتماعي الذي ألحقته الرأسمالية والشيوعية على حد سواء بالعالم، ونحن لم نرد أن يلحق بنا ما لحق بالعالم، وجل ما أردنا بناء مجتمع عادل يؤمن بالمساواة ومبني على الشراكة في التقدم الاقتصادي؛ فتعين أن يكون تقدمنا تكامليا على الصعيد الاجتماعي، وألا يكون مخلا بالتوازن ومسببا للشرذمة، وأن يكون متسقا مع أجندتنا المتصلة برفع المظالم، وكان علينا أن نتوقف عن الربط بين وظائف معينة وأعراق معينة والقضاء على الفقر المرتبط بالعرق.

أخيرا، احتجنا إلى بناء اقتصاد قوي ومتنوع يتمتع بقدرة تنافسية وديناميه كاملة، وقدرة على تجاوز الأوقات الصعبة وحتى الازدهار فيها، عنى ذلك تشجيع نمو طبقة وسطى قوية بالمعنى الاجتماعي والواسع وليس بالمعني الاقتصادي فقط. احتجنا إلى تجنب التركيز على النمو حصرا. ولا سيما على التنمية الاقتصادية الضيقة ومؤشراتها الأساسية- على حساب الناس، وتنميتهم البشرية وقدرتهم على سد حاجاتهم بأنفسهم.

واصل اقتصاد البلاد نموه في السنين التي أعقبت إطلاق (الرؤية 2020) بمعدلات فاقت السبعة في المئة سنويا؛ أي إن معدلات التنمية تجاوزت الهدف المحدد في (الرؤية 2020)، لكن ذلك لم يدم طويلا بسبب الهجوم على عملتنا الذي أدى إلى ركود اقتصادي في سنة 1997م لكن اقتصادنا انتعش بسرعة واستأنف نموه بمعدلات تراوحت بين الخمسة والستة في المئة. وبما أننا تخطينا هدفنا في السنين الأولى، أملت بأن نحقق نموا إجماليا بمعدل سبعة في المئة وتحقيق طموحنا بأن نصبح دولة متقدمة بحلول سنة 2020م.

كانت تكنولوجيا المعلومات مجالا ركزنا عليه لدعم نمو البلاد، واحتجنا أيضا إلى إنتاج منتجات مبتكرة يمكننا تحديثها بانتظام كي لا تختلف بسبب تخلف التكنولوجيا. وقد استلزم ذلك معارف ومهارات وبحوثا جديدة، وكان يعمل عدد صغير من العلماء والمهندسين الماليزيين ذوي المؤهلات العالية في مؤسسات بحثية في الخارج وتوجب علينا بذل جهد خاص لإعادتهم مع أنهم اعتادوا أنماط العيش في الدول المتقدمة، ولم يكونوا متحمسين للعودة. لم نستطع تقديم حوافز كبيرة لهم من دون

إثارة استياء نظائرهم المحليين، وجهازنا الإداري أشعر هؤلاء الناس بأنهم غير مرحب بهم. وعلى الرغم من نية الحكومة المعلنة بإعادة هؤلاء الماليزيين كي يعملوا في بلادهم، عملت العوائق البيروقراطية على تنفيرهم إلى حد أن قلة قليلة منهم عادت فحسب.

بقي إيثار المواطنين من السكان الأصليين في المنح الدراسية لدراسة تخصصات معينة سياسة حكومية، لكننا لم نجد عددا كبيرا من المؤهلين أو التواقين إلى متابعة الدراسات العلمية. ومن ناحية أخرى، وجد عدد قليل من الطلاب من غير المواطنين الأصليين ممن زادت مؤهلاتهم على المؤهلات المطلوبة لدراسة العلوم والهندسة. وسياستنا القائمة على إيثار المواطنين الأصليين عنت أن هؤلاء الطلاب الصينيين والهنود وجدوا صعوبة في الحصول على منح دراسية، وهو ما شكل مأزقا؛ إذ تعين علينا التمسك بأهداف السياسة الاقتصادية الجديدة لكننا لا نتحمل خسارة خير عقولنا لذلك قررت مواصلة السياسة الاقتصادية الجديدة بحكمة. أنا مؤيدا لمبدأ رفع المظالم، لكن حين لا يكون المواطنون الأصليون متحمسين للدراسة وخدمة البلاد، وجدت أنه من غير المنصف حرمان غير المواطنين الأصليين من المنح التي يحتاجون إليها. يمكننا وضع شروط على المنح التي يحصلون عليها لضمان عودتهم، وبسبب القلق المتزايد بشأن الحصص والنسب الموزعة على الأعراق المختلفة، فشل بعض المسؤولين الحكوميين بكل أسف في رؤية حاجتنا الوطنية إلى القوة البشرية الماهرة أو أنهم تجاهلوها. وتوجب علي التدخل المرة تلو الأخرى والتوصية بتقديم منح دراسية لطلاب من غير المواطنين الأصليين، لكن توصياتي قوبلت

بالإعراض وبعض الأعذار الواهية في عدد من الحالات لعدم إعطاء المنح الدراسية. عندما نصل إلى مصاف الدول المتقدمة، لا نريد أن نرى ملايويين ومواطنين من غير السكان الأصليين لا يتمتعون بحصتهم المستحقة لهم من ثروة بلادهم وفي عيش حياة هانئة، لكن تلك الحصة لن تأتيهم على طبق من فضة، بل يتعين عليهم القيام بعمل دؤوب لنيلها ولطالما اعتقدت بأن الملايويين وسكان البلاد الأصليين الآخرين ليسوا أقل قدرة وذكاء من أبناء المجتمعات الأخرى، لكن الذكاء وحجه لا يكفي. فحتى أوفر الناس ذكاء يحتاج إلى بذل الجهد لحيازة القدرات المطلوبة أيا يكن الميدان الذي يعمل فيه.

عندما زرت منشأة تصنيع المعدات الإلكترونية (وادي السيليكون) في الولايات المتحدة، أصررت على تفقد المنشآت البحثية هناك ووجدت أن عددا من المختبرات يديرها آسيويون- من الهنود والباكستانيين والكوريين الجنوبيين أساسا- قرروا العمل في أمريكا لأنهم ببساطة، ليس في بلادهم أجورا أفضل ويستمتعون بمستوى معيش جيد. وقد أصبحت هذه الملاحظة أساس مبادرتنا (الممر الضخم للوسائط المتعددة)، والتي سأتطرق إليها في الفصل التاسع والأربعين.

عندما تدخل ناحية تشتمل على تكنولوجيا جديدة، يتعين عليك أن تتحلى بالجدية والالتزام وعدم توقع تحقيق عائدات فورية؛ لأنك إذا ركزت على عائدات الاستثمار في البحوث، فلن تستثمر أموالك أصلا لأنه ليس هناك ضمانة بأن يفضي البحث إلى عائد يمكن توقعه، لكن من دون البحث لن نكتشف شيئا جديدا قد يسهم في ثروتنا، ربما تجني كثيرا من الأموال من خط بحثي يجعل الأموال المستثمرة كافة تبدو

تافهة، لكنك لن تعرف ذلك مسبقا. ربما تبدو مسألة حظ، لكن النجاح في الابتكار التكنولوجي وتطبيقاته لا يعتمد على الحظ إلا نادرا، بل يعتمد على المخاطرة المبنية على معلومات أكيدة، وعلى التخطيط والالتزام. ومع ذلك، يتعين عليك الاستعداد للمخاطرة لكن بطريقة ذكية لا بطريقة عمياء أو طائشة.

لم نمتلك تلك العقلية بعد، فعندما أطرح على الناس أفكارا جديدة، يردون في الأغلب بقول إن في استطاعتهم إثبات عدم قابلية هذه الأفكار للتنفيذ. وبالتالي، طالما أن هذا الموقف يبقى سائدا، لن نحقق تقدما أبدا، لا أنكر أنني حملت الحكومة على الاستثمار في عدد من المشاريع التي أخفقت، لكن هكذا تسير الأمور في هذه الحياة، وقد تبين لاحقا أن عددا من المشاريع الصناعية آتت ثمارها لأنا كنا مستعدين للقيام بمجازفات محسوبة.

البحث المبتكر معلم مهم للمنزلة المتقدمة، بل إنه أهم من دخل الفرد، وأذكر أن عددا من الشركات الماليزية أنتجت أشياء لم نستطيع تسويقها في البلاد ولذلك توجب عليها إيجاد أسواق لها في الخارج إننا نميل إلى عدم تقبل منتجاتنا الجديدة. وعلى سبيل المثال، توصل (معهد تطوير البحوث الزراعية الماليزية) (ماردي)، وهو مركزنا البحثي الأول في العلوم الزراعية شركاتنا المحلية لم تعتمدها. وتعين على ماردي الانخراط في تطوير المنتجات، بما في ذلك التطوير التجاري، لإقناع المستثمرين باعتماد نتائج بحوثه. وبسبب هذا الموقف، خسرنا أمام سنغافورة التي يسعدها استيعاب خيرة طلابنا، الذين يبشرون بالخير، ومواهبهم العلمية.

لطالما اعتمد نجاح (الرؤية 2020) على موظفينا الحكوميين الذين هم المؤتمنون الفعليون على سياستنا الوطنية، وفي حال فشلوا في فهم وضعنا وأهدافنا، تصاب الحكومة بالشلل، وإذا أفشلوا السياسات والأهداف الوطنية، لن نتمكن من تغيير هذا البلد أبدا وبلوغ مرتبة الدول المتقدمة.

وعلى العموم، أدى السلك المدني الماليزي مهمته، وما كنا سنصل إلى ما وصلنا إليه لو لم تنفذ أغلبية السياسات الحكومية، على أنه يوجد مجال للتحسين دائما طالما أن الحكومة المنتخبة تعي المشكلات التي تحدق بالبلاد وطالما أن السلك المدني يعرف دوره المناسب ومسؤولياته.

إحدى الصعوبات الرئيسية التي اعترضت تطبيق (الرؤية 2020) دائما هي حمل الناس على استيعاب مفهوم (الأمة الماليزية) (بانغسا ماليزيا). إننا دولة متعددة الأعراق ومكوناتها العرقية غير متوافقة- إنها مختلفة عن بعضها على الصعيد أُثني الثقافي واللغوي والديني، والأهم من ذلك كله أنها منقسمة في إنجازاتها الاقتصادية والاجتماعية.

لكن (الأمة الماليزية) ليست مفهوما يصعب استيعابه وعندما طرحته في سنة 1991م، كنا واثقا بأننا سنكون قد امتلكنا هوية مشتركة بحلول سنة 2020م. المقصود من (الآمة الماليزية) في الأساس أنه ينبغي للمواطنين اعتبار أنفسهم ماليزيين أولا وقبل كل شيء وبوصفهم مواطنين يتعين عليهم ربط هويتهم ببلادهم، وبهذا المعنى، لا يمكنك أن تكون صينيا بالكامل أو هنديا بالكامل ثم تعتبر نفسك ماليزيا. وسيأتي الوقت الذي تسود فيه هوية واحدة مشتركة فيماليزيا، لكن سيبقى هناك عدد من الطرق الصينية، والهندية، والإيبانية، والكادازانية

وغيرها، والطريقة الملايوية بالطبع وستكون الهوية الماليزية شاملة بما يكفي لتعترف بكل هذه الفوارق وتحتضنها ويمكن مواطنون الملايويون والصينيون الهنود والإيبانيون والكازادانيون وغيرهم التعبير عن هوياتهم التاريخية الخاصة بطرقهم المميزة (وينبغي أن يظل ذلك حقا لهم)، لكن ليس بنزعة انفصالية، ومن الناحية المثالية، علينا أن ننسى جميعا البلد الذي نشأ فيه أجدادنا وأن نعتبر انفسنا ماليزيين فحسب، لكن الحلول المثالية ليست الحلول الممكن تحقيقها دائما.

يقتضي تحقيق مفهوم الأمة الماليزية تركيزا على النظام التعليمي، يمكن شبابنا الماليزيون تلقي تعليمهم بالملايوية بمستوى لا يقل عن التعليم بالصينية، لكن حين تصر على وجوب أن يتعلم ابنك باللغة الصينية فأنت تربط نفسك بدولة أخرى هي الصين. والصينيون لا يرغبون حتى في الاقتراب من ملايوي في المدرسة، بل إنهم يرفضون مفهوم (المدرسة الحلم) في حرم مشترك يضم في مكان واحد مدراس تدرس بجميع اللغات الرئيسية الثلاث. كانت فكرة (المدرسة الحلم) محاولة للجمع بين الماليزيين حين لا يزالون في المدرسة لتأهيلهم للتعامل مع بعضهم لاحقا عندما يبلغون سن الرشد. إن الرفض الصيني لجميع المحاولات الرامية إلى الجمع بين الماليزيين على اختلاف أعراقهم مخيب للآمال كثيرا. في هذا البلد، لا تزال هناك أمور كثيرة متصلة بقضايا عرقية، وعندما، وعندما تضاف المسائل الدينية إليها، أخشى أن نواجه مشكلات جديدة وأكثر تعقيدا. بحلول سنة 2008م، عندما عقد مجلس نقابة المحامين منتديات استفزازية عن الهيمنة الملايوية وعن مسألة اعتناق الإسلام فيماليزيا، تحولت هذه المخاوف

إلى أمر واقع.

يتعين على الناس تذكر أن ماليزيا دولة مستقرة لأن الملايويين على استعداد لتقاسم ما لديهم. لكن في الدول المتعددة الأعراق، يرفض السكان الأصليون تقاسم ميراثهم مع أناس يعتبرونهم قادمين جددا، ولن يتنازلوا عن ادعاء السادة. وإذا أراد الآخرون المطالبة بالجنسية، يتعين عليهم أن يكونوا مميزين عن السكان الأصليين. لكن فيماليزيا، وافق السكان الأصليون على تقاسم بلادهم مع الآخرين، بل وافقوا على تبني صفات بعض الشعوب التي أتت لاحقا.

طرحنا (الرؤية 2020) لتكون مخططا وخريطة طريق لنصبح دولة تدخل بنجاح وقوة عالم الحداثة الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية، دولة ربما تبحث على هذا الأساس عن مستويات جديدة من الابتكار. لكننا أردنا القيام بذلك د على أسسنا الثقافية الخاصة وضمن وضمن إطار حضارتنا، لا بتقليد الآخرين خسارتنا شخصيتنا.

وفي النهاية، أدركنا أننا لن نتمتع باقتصاد أو مجتمع أو صناعة أو تكنولوجيا حديثة ما لم نكن شعبا حديثا فعلا في قلب ماليزيا الجديدة هذه وروحها. إن المباني والنظم والصناعات الحديثة ليست كافية وحدها، والعنصر المفقود هو الناس. والعنصر الذي كنا في حاجة إليه ماليزيون يمكنهم من خلال التربية والعلم أن يشقوا طريقهم قدما مع المحافظة على قيمهم الآسيوية وهوياتهم الإنسانية بشكل مميز. وينتابني خوف في بعض الأوقات من أنه على الرغم من أننا نجحنا في بناء صناعات حديثة وإتقاننا تكنولوجيا حديثة، فقد فشلنا في تطوير أنفسنا بالكامل؛ إذ لا تزال نفسياتنا وذهنياتنا وطرقنا في التفكير ماليزية.

إذا نظرت إلى مطار كوالالمبور الدولي أو إلى برجي بتروناس التوأم، سنرى رموزا وتجليات رمزية عظيمة لتلك الحداثة الماليزية الجديدة. إنها بمثابة شاهد ملموس لا يمكن إنكاره على ما نحن قادرون على فعله، وأنا آمل بأن نتمكن في أحد الأيام من تحويل أنفسنا بطرق مماثلة قوية ومدهشة، لكن الحوادث الأخيرة أشارت إلى أن تحقيق ذلك سيستغرق وقتا أطول مما تصورنا في البداية. لطالما خططت ماليزيا لتطورها بعناية، لكن حين يتم التخلي عن هذه الخطط نترك ونحن لسنا متهيئين لمواجهة تحديات جديدة وغير متوقعة، فإننا نعرض للخطر الحلم الذي تصورناه لأنفسنا من خلال مفهوم الرؤية 2020).

# مهاتير يتحدث عن أحداث 11 سبتمبر والعالم الإسلامي ومواقفه السياسية

**يقول مهاتير محمد:-**

كنت أتناول عشائي قبل توجهي إلى المطار لأسفل طائرة متوجهة إلى لندن عندما اصطدمت طائرتان بمبنى مركز التجارة العالمي في نيويورك في 11 أيلول/ سبتمبر 2001م. عندما تلقت زوجة ابني رسالة نصية وصفت ما حصل، فاعتقدت لأول وهلة أنها حادثة بسيطة؛ ذلك أن طائرة صغيرة اصطدمت تعرض لبعض الأضرار، لكن مع ورود مزيد من الوسائل إلينا، قررنا تشغيل التلفاز لمشاهدة الأخبار. وكم فزعنا عندما شاهدنا البرج الأول غارقا في الدخان والنيران، ثم شاهدنا الطائرة الثانية وهي تصطدم بالبرج الثاني.

وبالكاد صدقنا، مثل عدد من الناس الآخرين، أن ما كنا نشاهده يحصل فعلا في نيويورك البعيدة في تلك اللحظة بالذات. لكن ما شاهدناه كان حقيقة- شاهدنا حدثا مزق العالم، وهجوما على الولايات المتحدة قدر أن يغير بعده كل شيء اعتقدنا حتى ذلك الحين أنه من الثوابت.

ألغيت رحلتي إلى لندن وبقينا جميعا قريبين من التلفاز وقد أسرنا بالكارثة التي تشكفت أمام أعيننا. وفجأة، صدرت لهئة من معلق. تداعى أحد البرجين، ثم انهار البرج الثاني بالطريقة ذاتها. أذكر أنني فكرت

في مدى غرابة انهيار البرجين رأسيا بتلك الطريقة، وعندما انقشعت سحب الغبار ببطء، لم يبق شيء من المبنيين قائما، ولم يظهر غير فراغ كامل- حتى العارضات الفولاذية لم يعد لها وجود- وشرح المعلقون التلفزيونيون لاحقا كيف أن بناء برجي مركز التجارة العالمي بطوابقهما الـ110 كان فريدا دعم المبنيان من الأسفل إلى أعلى بجدران خارجية، ولذلك عندما انهارت الجدران، انهارت معهما جميع الطوابق الـ 110 . وبدا بالتالي أن الأمر ذاته حصل لأبار المصاعد الداخلية، التي لابد من أنها استخدمت في بنائها

وعلى العكس من الحوادث الخطيرة الأخرى، لم أشهد ذلك النوع من التقارير المكثفة عن الحادثة التي تحب الصحافة الأمريكية نشرها.

بناء على هذا الدليل وعلى أدلة مشابهة، لدي الآن شكوك حول ما إذا كان الإرهابيون دمروا طائراتهم فعلا أو أن الحادثة برمتها دراما دبرت عن قصد لإقناع العالم بأن هجوما إرهابيا خطيرا شن على الولايات المتحدة ويستوجب شن حرب شاملة. وحتى داخل الولايات المتحدة، يوجد جماعات تشكك في الرواية الرسمية عن الهجوم وعن دور الولايات المتحدة فيها، وهي جماعات تضم علماء ومهندسين معماريين ومهندسين إنشائيين وعلماء دين.

نحن نعرف الآن مبرر غزو العراق كان مذبة فاضحة، إذ تبين عدم امتلاكه أسلحة دمار شامل. وكانت الاستخبارات الأمريكية قد أبلغت الرئيس الأمريكي تلك الحقيقة، لكنه أصر على المضي في غزو العراق وتدمير ذلك البلد وقتل مئات الآلاف من الناس أو التسبب بوفاتهم. إن رئيس أمريكا وأفراد بطانته الذين لم يتورعوا عن الكذب بشأن وجود

أسلحة دمار شامل للحصول على الحرب التي يريدونها لن يشعروا بوخز ضمير بشأن شن هجوم إرهابي أدى إلى مقتل ثلاثة آلاف شخص بريء- إذا ان ذلك ما يلزم لحمل العالم على مساندة حرب الإرهابيين المسلمين وعلى أفغانستان والعراق.

إننا نعيش أوقاتا عصيبة، ونحن نشاهد حربا لا نهاية لها فيما يوصف بأنه مهد الحضارة العالمية. إن الهجوم الكبير (الصادم والمروع) لم يكن بقدر ما ادعاه المعتدون: تقليص النزاعات وخفض المعاناة، وإزالة تهديد العراق بإيقاد حرب باستخدام أسلحة دمار شامل بل إن الأمر كان على الضد من ذلك تماما: إن الأعمال التي قام بها الغرب المتحضر والأشخاص أنفسهم الذين تباهوا بخوض حربين عالميتين لوضع حد لجميع الحروب، لم تساعد إلا على نشر وإشاعة الإرهاب الذي يزعم الغرب بأنه يرغب في استئصاله، ويصر على وجوب أن ينضم العالم بأسره إليه في محاربته. إن جهلهم وحماقتهم جلبت مزيدا من القمع والقتل لذلك الشعب الذي زعموا أنهم يريدون إنقاذه. وبصرف النظر عن الذنب الذي ارتكبه صدام حسين، فهو لا يقارن بالموت والدمار الذي سببه الذين عينوا أنفسهم (منقذي) العراق.

أرعبتني، وأنا صغير، فكرة خوض الحروب والتعرض للقتل في آن واحد، ولم أستطع أن أصدق تحول الأشخاص طوعا إلى جنود والقبول بتلك الفكرة؛ إذ بدا القتل بعنف وبلا مبرر على الأرجح عملا غير إنساني في نظري وقد طالعت وأنا في المدرسة كتبا عن أمجاد الحروب، وانتصارات البريطانيين في أوروبا فم في باقي أنحاء العالم في سياق بنائهم إمبراطوريتهم العظمى. لم ترو هذه الكتب سوى جاني

واحد للقصة، إننا نجد الأمر نفسه في الأفلام، مثل أفلام الغرب القديم التي تظهر رعاة البقر الشجعان وهم يقتلون سكان أمريكا الأصليين رمي بالرصاص. كانت جثث هؤلاء (المتوحشين) ترمى في المروج الشاسعة وكنت- بمعرفتي المحدودة وسهولة انقاد حماستي كطفل- أصفق لرعاة البقر إعجابا ببسالتهم بمسدساتهم المزودة بست طلقات وكنت أشعر بسعادة غامرة دائما لإنقاذ البطلات الجميلات وجميع الأطفال البيض الحسان أصحاب الشعور الجميلة. لكن خوفي من الحروب قل بعض الشيء وصرت أعتقد أنها حروب مجيدة لأن الأعداء فقط يقتلون فيها وكنت بجانب المنتصرين، ولذلك لن أقتل، كانت فكرة مطمئنة للغاية. وفي استطاعتي أنا أيضا أن أكون جنديا وأحارب أعداءنا وأعود بطلا.

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية في سنة 1939م، وبدا أولا أنها محصورة في أوروبا والألمان هم الأعداء، ما عنى أنهم الجهة التي سيستحر فيها القتل وتهزم، لكن الغريب أنهم بدوا الطرف المنتصر. وفي 7 كانون الأول/ ديسمبر 1942م امتدت الحرب إلى ملايا عندما نزل اليابانيون بالقرب من كوتا بارو وغزوا البلاد من الشمال، وكم فزعت عندما تقهقر البريطانيون. شاهدتهم وهم يمشون بجهد في الوحل وتحت المطر، وهو مشهد لا يشبه بشيء الأوروبيين الفخورين الذين عرفتهم، وبذلك عادت جميع مخاوفي من الحروب والتعرض للقتل.

امتلأ قلبي فرحا انتصر البريطانيون والأمريكيون في النهاية، لكن خوفي من الحروب وكراهيتي لها لم يتبدد وأصبح القتل الذي تستلزمه الحروب أمرا حقيقيا في نظري. في الأيام السابقة، كانت أغلبية القتلى من الشباب، لكن الحروب اليوم حروب شاملة تحصد كل شخص وأي

شخص- محاربين وغير محاربين، جنودا ومدنيين- وكان الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية ومنحها لليهود وبالتالي إيقاد نيران الحرب أمرا سيئا. والآن تتعمد الولايات المتحدة وبريطانيا إشعال الحروب على دول لا يمكنها الدفاع عن نفسها.

بصفتي رئيس وزراء ماليزيا، وافقت الرئيس بوش في البداية على وجوب أن نحارب جميعا الإرهاب، لكن عندما غزا بوش أفغانستان، قررت وجوب ألا تساندها ماليزيا فربما كان أسامة هناك، وربما كام المسؤول عن هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، لكني كنت على صفقة بأن غزو أفغانستان لن يضع حدا للهجمات الإرهابية، ولن يزيدها إلا كثافة، بصرف النظر إن رج بوش وحلفاؤه منها منتصرين أم مهزومين ولم يكن في وسعه غير تصور خروجه منتصرا بطبيعة الحال؛ إذ ظن أنه يستحيل كسر الإرادة الأمريكية، وربما لم يعرف أن القوى الإمبريالية لم تتمكن يوما من قهر أفغانستان. وتوقعت أن يكيل الأفغان للأمريكيين الضربات، لكن كابل سقطت ونصبت الولايات المتحدة حامد كرزاي رئيسا للوزراء، وهو موظف سابق لدى إحدى شركات النفط الأمريكية، ابتهج الأمريكيون واتضح أنهم يتحرقون شوقا إلى حرب أخرى وإلى انتصار سهل آخر.

هناك مثل قديم يقول، مع بعض التعديل: (إذا أراد لله تدمير شخص يصيره متعجرفا أولا). أصيب الأمريكيون بجرح في 11 أيلول/ سبتمبر ولم يرغبوا في الظهور بمظهر الضعيف والعاجز؛ لذلك كان عليهم مطاردة شخص ما وتلقينه درسا مثلما كانت جماعات رعاة البقر تفعل، وإذا لم يكن في استطاعتهم تسديد ضربة لأسامة، سيضربون

في أفغانستان وبهذه الطريقة يبعثون برسالة واضحة إليه وإلى جميع المتعاطفين معه والمسلمين المترددين فحواها نحن عمالقة، ونحن أقوياء، ونحن غاضبون، ولذلك لا تعبثوا معنا ولا تقاومونا.

إن تحول مجرى الأحداث على هذا النحو جعلني قلقا للغاية. ماليزيا لن تنجر إليها، لكن ذلك لن يحمي الناس من التعرض للقتل، سمي العراق جهارا الهدف التالي للعمل العسكري الأمريكي. إنه بلد ضعيف يكفي كي يتنمر عليه الأمريكيون ويستحوذوا على نفطه وهذا هو الأهم. وبعد حملة قصيرة، يصار إلى النصيب حكومة مدجنة ومذعنة ويصبح النفط الأمريكي في متناول الولايات المتحدة. ومع أن العراق لم يكن يؤوي أسامة وأن توريط ذلك البلد في هجمات نيويورك لم يكن ممكنا بأي شكل من الأكال، لم يكن ذلك ليشكل عقبة. أتهم العراق بامتلاك قدرة نووية وبحيازة أسلحة كيميائية وأسلحة دمار شامل أخرى. إن دعوى حيازة أسلجة الدمار الشامل هذه أتاحت ذريعة كافية لغزو ذلك البلد، وخلع قائده وإتاحة ثروته النفطية للعالم.

اتضح لي أن ما يخطط الأمريكيون لفعله في العراق يعادل عملية سطو في وضح النهار. كان يجري طرح مفهوم جديد- شن حرب دفاعية لمجرد الاشتباه بأن عدوا أو دولة ربما تخطط لشن هجوم على الدولة المعينة. ليس في هذا المفهوم شيء من المنطق في عالم يتوجب على وزارة الدفاع في كل دولة إعداد خطط طارئة وتحديثها باستمرار استعدادا لجميع السيناريوهات المستبعد وقوعها والاحتمالات المشكوك فيها. إن شن الحرب بالاعتماد على الشك والعمل الدفاعي مفهوم مرعب. ربما يكون لدى الدميع شكوك، لكن لا يمكن غير دولة

تمتلك قوة عسكرية طاغية شن حرب دفاعية، أما الدول الضعيفة، حتى تواجه إمكانية حقيقية بأن يغزو عدو أراضيها، فلن يتاح لها خيار توجيه الضربة الأولى. إن تبرير مبدأ الحرب الدفاعية يعني ببساطة الترخيص لأقوى دولة في العالم بالتهديد بالحرب وشنها على من تشاء، إنه مخطط لعالم ليس فيه دولة آمنة ولا حتى ماليزيا.

التقيت ببوش مرات عديدة في المؤتمرات وذهبت إلى واشنطن العاصمة للاجتماع به في زيادة رسمية، ما بعثت إليه برسائل كثيرة قبل ذلك وكان لطيفا كفاية بأن رد علي شخصا، اعتقد أنه ينبغي لي أن أكتب إليه لتجذيره من مغبة غزو العراق، ولا سيما أنني عرفت تأجج مشاعر المسلمين حيال الغزو. ربما كانوا لا يحبون الرئيس العراقي صدام حسين، لكنهم سيكونون شديدي العداء لغزو أمريكي للعراق، عرفت أيضا أمورا متصلة بالإرهاب والدوافع التي تحرك الإرهابيين. تعاملت ماليزيا مع الإرهابيين من سنة 1948م إلى سنة 1990م. وشاركت في اجتماعات مجلس الأمن القومي منذ أن أصبحت وزيرا في عهد تون رزاق حسين، ولذلك كنت على إلمام تام بسلوك الإرهابيين وعرفت الحرب النفسية التي استخدمناها بنجاح ضدهم أعتقد أنني عرفت عقلية الأشخاص الذين يشنون هجمات إرهابية، ربما يبدو مجانين وربما يبدو أنهم يتمنون الموت- لكن العواطف الجياشة هي التي تحركهم؛ لذلك، لن نتمكن من التعامل معهم بفعالية ما لم نفسهم تلك المشاعر. وربما لا نجدها عقلانية في البداية، لكنك لن تشرع في مكافحة الإرهاب بكفاءة إلا بعد أن تفهم عواطفهم. لم تعتمد ماليزيا على السلاح حصرا، فالمعركة الكبرى التي خضناها كانت معركة استمالة الناس، وذلك يشمل

الإرهابيين، وفي النهاية انتصرنا.

كنت على ثقة تامة بأن غزوا أمريكيا للعراق لن يسهم في الحرب على الإرهاب وسيكبد العالم خسائر لا تحصى؛ لذلك كتبت إلى بوش وتوني بلير، وإلى شيراك والمستشار الألماني غيرهارد شرودر وناشدتهم عدم غزو العراق لأن الغزو سيؤدي فقط إلى زيادة الهجمات الإرهابية ومضاعفة عدد الأشخاص المستعدين للتضحية بأرواحهم، لكن رئيس أقوى دولة في العالم لم يكن ينوي الإصغاء إلى قائد دولة نامية صغيرة؛ فلم يرد على رسالتي، وأعلن عوضا عن ذلك عزمه على غزو العراق وأخبرني وزير الخارجية البريطاني جاك سترو أن بريطانيا ستحاول إقناع الأمريكيين بعدم القيام بذلك العمل، لكننا نعرف جميعا الآن أن الأمريكيين هم الذين أقنعوا البريطانيين بأن يكونوا عدوانيين.

يتعين على الناس معرفة أن شأن الحرب الحديثة قتل الناس عشوائيا وعلى نطاق واسع، وأنها لم تعد حربا تدور رحاها بين جنود يقاتلون جنودا في ميادين القتال؛ إذ قتل الناس جريمة في أي مجتمع، ويتم إنزال عقوبات شديدة في حق القتلة حتى في المجتمعات الأقل تحضرا، وربما تصل عقوبتهم إلى الإعدام. لكن القتل الجماعي للناس، محاربين أم غير محاربين، تجيزه القوى العظمى حماية لمصالحها الوحشية، وتمتدحه وتبجله ويكافئ عليه. إن الأمريكيين والبريطانيين يعارضون جرائم القتل اليومية مثل أي شعب آخر، لكنهم مستعدون للقبول بحالات القتل الجماعي (العرضي) الناجمة عن الحرب. أي نوع من الشعوب هؤلاء؟ لا جدال في أن أفرادا من شعوبهم قتلوا على أيدي إرهابيين، لكن الأشخاص الذين سيتأثرون بأجندتهم الانتقامية ليسوا الإرهابيين

ولا هم على صلة حتى بالإرهابيين. الشعوب المتحضرة لا تقتل أسر ولا أصدقاءهم ولا رفاقهم المواطنين، ولا الأشخاص الذين ليس لهم صلة ولو بعيدة بالقتلة بالتأكيد. أي مجتمع هذا الذي سنعيش فيه إذا كان يجيز قتل أسرة وأصدقاء القاتل أو القتلة نيابة عن معاقبة المجرمين الفعليين؟

لولا قوتهم الفائقة والساحقة ما كانوا ليتجزؤوا على تشكيل (ائتلاف المتطوعين) لغزو العراق، لكنهم جبناء في الحقيقة لأنهم ينتقون الأشخاص الذين لا طاقة لهم بمواجهة جبروتهم العسكري. ومراكز الاعتقال الأمريكية في أبي غريب وغوانتنامو التي احتجزوا فيها المشتبه في ضلوعهم بالإرهاب وأخضعوا لتعذيب وحشي كشفت أسوأ الذي فيهم. إن حكم العالم على وحشيتهم الهمجية وبربريتهم مأخوذ بالإجماع.

في مقابل قتل نحو 3, 000 مسلح قتل 600, 000 عراقي، جلهم من المدنيين الأبرياء ولا يعلم إلا الله الذين أصيبوا بجروح، أو أصيبوا بإعاقات دائمة أو تأذوا مدى الحياة، وهو عدد قد يبلغ مئات الآلاف، وعدد الأشخاص الذين تشتتت حياتهم ودمرت. لكن من أجل أي شيء؟ يظهر لي أن العراق اليوم أسوأ حالا منه في عهد صدام حسين لكن التعطش للدم لم يرو؛ فلا يزال الأمريكيون والبريطانيون يتأملون فكرة توسيع رقعة الحرب لتشمل سوريا التي يقال إنها تؤوي إرهابيين، ولتشمل إيران التي يفترض أنها تطور قنبلة نووية.

أظهر مسح للبريطانيين وأوروبيين آخرين أنهم يعتبرون تهديد الولايات المتحدة للسلم العالمي أشد خطرا من تهديد إيران أو كوريا

الشمالية. ولا يوجد شخص عاقل يعتقد أن بلاده عرضة لخطر غزو إيراني أو كوري شمالي. وحتى اليابانيون لا يمكنهم التفكير بجدية في إمكانية تعرض بلادهم لهجوم كوري شمالي بقنبلة أو قنبلتين نوويتين؛ إذ إن كوريا الشمالية تعرف أنها إذا استخدمت أسلحة نووية أو حتى تقليدية في محاربة اليابان، فإن ما ستسقطه الولايات المتحدة من رؤوس حربية نووية على شعبها ستبيده عن بكرة أبية وستصبح كوريا الشمالية بلدا غير صالح للسكن.

الدولة الوحيدة التي استخدمت أسلحة نووية أو يمكن أن تستخدمها هي الولايات المتحدة. ربما يوجد في حوزتها أكثر من عشرة آلاف رأس حربي نووي ولديها الوسائل اللازمة لإيصالها إلى أي مكان في العالم وتدمير أي بلد، وغزوها للعراق برهان على أنها يمكن أن تكون حمقاء وعديمة المسؤولية، وهنا يكمن الخطر. في الواقع، إنها تستخدم الأسلحة النووية على شكل يورانيوم منضب، وهي تطور ما يسمى أسلحة نووية (أمنة) كي تلتفت على اعتراض العالم على الحرب النووية. وهذا يعني أن قادة أمريكا لم يتعلموا من هزيمتهم في فيتنام شيئا، فلا يزالون يعتقدون أنه لا بد من أن تكون الغلبة للقوة العسكرية وأن تنصرهم في حروبهم، وتحقق لهم غاياتهم وتروع العالم بأسره، لكن عليهم أن يعرفوا أن الانتصار في المعارك لا يعني الانتصار في الحرب، خصوصا في هذه الأوقات الحديثة.

أنا لست خبيرا في الحرب كما إنني لست خبيرا في علم المالية وعلم الاقتصاد. إن عدم كونك خبيرا قد يكون مزية؛ لأنك لن تكون حبيس التفكير التقليدي وأفكاره حيال ما هو مناسب أو غير مناسب،

وما هو معقول وما هو غير معقول. إن للتفكير خارج الأطر المحدد مزاياه، ربما لم أشارك في حرب لكني شهدت كثيرا من الحروب في حياتي: الحرب العالمية الثانية، وحرب المحيط الهادئ، والتمرد المسلح فيماليزيا، والحرب في فلسطين، وحرب فيتنام، وحرب الخليج، وغزو الاتحاد السوفياتي ثم الأمريكي لأفغانستان، ثم الحرب على أفغانستان والعراق عقب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر. كما عشت حقبة شهدت حروب استقلال كثيرة شنتها المستعمرات على الإمبرياليين الأوربيين. بالاستناد إلى ما تقدم، وإلى عدم استعداد حتى الدول ذات القوة المتكافئة لتحدي بعضها، توصلت إلى استنتاجات معينة.

أعتقد أن حروب الاحتلال لم تعد ممكنة؛ فالشعب الذي احتلت أرضه سيرفض البقاء على ذلك النحو أو السماح لمحتليه بالبقاء أسياده ولو لمدة قصيرة. ربما تستسلم الحكومات وربما ترغم علي الخضوع للغزاة المنتصرين، لكن الشعوب لن تحذو حذو حكومتها وستنهض عاجلا وليس آجلا وتقاتل للتخلص من سيطرة أسيادها. وفي سياق صراعها من أجل تحرير أنفسها، ستكون مستعدة للتضحية بالغالي والنفيس وستحارب مستعينة بأي أسلحة تقع عليها أيديها، ستهاجم في شتى أنحاء العالم وليس داخل دولها فقط، وستقاتل مواطني الدولة التي تتحكم برقابها حتى وإن قتل المزيد من أبنائها؛ إذ ربما يقتلون أو يؤسرون أو يعذبون، لكن الآخرين سيكونون مستعدين للحلول محلهم ومواصلة القتال.

يوصف هؤلاء الناس بالإرهابيين، لكنهم يرون أنهم مقاتلون من أجل الحرية، ويعتبرون أفعالهم مجيدة فيما يعتبروهم رفاقهم المواطنون أبطالا وشهداء وفي وجه هؤلاء، ستكون جميع الأسلحة القوية والتكنولوجيا

المعقدة المستخدمة في الحرب الحديثة بلا طائل.

لن ينتصر المحتلون ولو مسحوا البلاد بأسرها، ولن تمحى البلاد من ذاكرة الناجين المنفيين في الدول الأخرى، وستكون كراهيتهم شديدة إلى حد أنه لو أعطوا نصف فرصة سيقتلون العدو أو أبناءه وأحفاده، وستبقى هذه الكراهية إلى الأبد.

بعبارة أخرى، لا يمكن في عالمنا الحاضر لأقوى الدول والمجهزة بأكثر الأسلحة تعقيدا أن تغزو وتحتل وتنتصر ولو على أضعف دولة، لمدة طويلة جدا على الأقل. وفرت حرب فيتنام مثالا مصورا على ذلك عندما زعم أحد القادة الميدانيين الأمريكيين أنه دمر بفضل تفوقه التكنولوجي قرية معينة لإنقاذها من الوقوع في الأصر، ورأى أنه حال دون وقوعه في قبضة العدو، لكن ما لم ينفطن له هو أنه لم ينقذ القرية بعمله ذاك، بل خسرها وخسر المصداقية الأخلاقية لبلاده.

لن يقتصر خوض الحروب الحديثة على جيوش وأسلحة بحرية وجوية كاملة التجهيز تقاتل بعضها، وتخوض معارك واسعة النطاق بتشكيلات ضخمة بناء على خطط أعدت بعناية. ستؤول الحروب الحديثة في النهاية إلى حروب فدائية يزعج فيها أشخاص سيئو التسليح أعداءهم، ويقنصونهم ويقتلونهم، ويشنون هجمات (إرهابية) لتقويض السلام والاستقرار، وكلما كان الاحتلال أعنف، زاد العنف الذي يلجأ إليه القابعون تحت الاحتلال إنها حرب تتعلق بالمصداقية في النهاية، صراع أخلاقي لا بد من أن يخسره الغزاة آخر الأمر؛ حرب يتعين عليهم أن يتنازلوا فيها، إذا ما استمرت، عن كل ما تبقى لهم من سمعة وشرعية على المستوى الدولي، وهذا ما حصل في فيتنام. ولقد هزم جبروت

أمريكا على يد فدائيين فيتاميين يرتدون البجامات ومزودين بأسلحة خفيفة غالبا.

هذه حقيقة ينبغي للدول الغنية والقوية ولقادتها أن يتدبروها. ولهؤلاء أقول: أنتم تبددون أموالكم في تطوير آلات قتل تزداد تعقيدا باطراد وربما تهاجمون وتقتلون في أي مكان في العالم بواسطة متفجرات، أو مسدسات، أو حتى سكاكين على يد أشخاص قهرتموهم؛ لذلك، فكروا في تكلفة أمنكم.

أنتم في حاجة إلى أعداد هائلة من الأشخاص لتراقبوا زوار بلادكم، والتدقيق في سفن الشحن والطائرات القادمة، ولتلافي خطف الطائرات المدنية. لكنكم تردعون رجال الأعمال وليس الإرهابيين عن زيادة بلداكم في كل مرة تجبرون فيها الطائرات على الهبوط أو تفتشونها بحثا عن أشخاص يشتبه في كونهم إرهابيين. ستضطرون إلى إنفاق مليارات الدولارات على تطوير أجهزة ترفع مستوى أمنكم، لتجدوا أن أعداءكم اكتشفوا طرفا للالتفاف على أجهزتكم المعقدة وإجراءاتكم الأمنية المكلفة. وقد تأثرت التجارة العالمية والمؤسسات المهنية سلبا أصلا بالهجمات الإرهابية التي كنتم الدافع إلى شنها وبإجراءاتكم العقيمة التي اعتمدتموها لمعاقبتهم ومكافحتهم. والأسوأ من ذلك كله أنه لا نهاية لذلك كله، فلا يمكنك توقيع معاهدة (إرهابيين).

بالنسبة إلى الدول الصغيرة والضعيفة التي ترغب تلك القوى الكبيرة بالمهيمنة عليها، لا تتعدى تكلفة دفاعها عن نفسها جزءا صغيرا جدا من التكلفة التي سيتكبدها مهاجموها المحتملون. والشيء لذي هي في أمس الحاجة إليه هو تطوير المهارات والقدرات اللازمة لشن حرب

عصابات مديدة على الغزاة، لكن مهما كان الالتزام البشري كبيرا، لن تتحمل من جرائه تكلفة كبيرة على الصعيد المادي ربما تحتفظ بقوات عسكرية تقليدية صغيرة نسبيا بتكلفة متدنية حقا، وبما أن هذه القوات تألف بلادها، ستكون قادرة على إخفاء فداءيها المدربين وعلى تدريب عناصر عسكرية على حرب العصابات.

لم تهزم فيتنام الولايات المتحدة بامتلاك أقوى الأسلحة أو أضخم قوة عسكرية، ولكن هزمتها بحفر مئات الأميال من الأنفاق تحت الأرض في مواقع استراتيجية، ما مكن قواتها الفدائية من الظهور والتخفي متى شاءت، ولم تجد القوات الأمريكية سبيلا لحماية نفسها. ومن ناحية أخرى، امتلك الفيتناميون أهم الموارد: المعرفة المحلية والاستخبارات، إلى جانب الإرادة السياسية النابعة من الكبرياء البشري الضروري والأساسي، تلك كانت توليفة مرعبة لا يمكن صدها في الواقع. وفيماي لاي، بلغ الضيق بالولايات المتحدة حدا جعل قواتها الحانقة تقرر قتل أي شخص.

لكن ذلك لم يزد الفيتناميين إلا غضبا وتصميما واستعدادا للقتل أو التعرض للقتل. وقد ألحق ذلك ضررا فادحا بالصدقية الأخلاقية للولايات المتحدة.

تعترف الولايات المتحدة الآن أن غزو العراق كان غلطة، لكن الغلطة الحقيقية هي اعتقادها أن جيشها لا يقهر، ربما كان ذلك الاعتقاد صحيحا في الماضي، لكن زمانه ولي اليوم، فالحرب لم تعد خيارا للقوي، والاستعداد للحرب لا يضمن السلام. ومع ذلك، يهوي الأوربيون الإثنيون القتال الجيد واختبار القوة.

عندما انتهت الحرب الباردة. لم يستطع الأوربيون، بقيادة الولايات المتحدة، تحمل فترة سلام وجيزة؛ إذ سرعان ما بدؤوا بالبحث عن عدو جديد. وانطلاقا من فكرة صامويل هانتينغتون السطحية القائمة على (صراع الحضارات)- عداء لا مفر منه بين الحضارة الغربية (أو الأوربيون الإثنيين) والحضارة الإسلامية- وجدوا أخيرا ذلك العدو.

استغلت الولايات المتحدة إلى الحد الأقصى كراهية المسلمين للشيوعية الإلحادية للفوز بتعاونهم على طرد الاتحاد السوفياتي من أفغانستان خلال الحرب الباردة. وفي تلك المرحلة دعمت الولايات المتحدة تنظيم القاعدة وأمدته بالأسلحة. وبالمثل، شجعت الولايات المتحدة صدام حسين على مهاجمته إيران التي رأى نظامها الثوري في الولايات المتحدة الشيطان الأكبر، لكن عقب طرد السوفيات من أفغانستان وإخفاق الهجوم العراقي على إيران، انقلبت الولايات المتحدة على حلفائها السابقين. هوجمت أفغانستان واحتلت لاستضافتها أسامة بن لادن، ثم جاء دور العراق الذي غزيت أراضيه بزعم امتلاكه أسلحة دمار شامل أولا ثم لأن الولايات المتحدة قررت أن حليفها السابق صدام حسين دكتاتور، لكن السببين زائفان، وكل ما في الأمر الرغبة في الحرب كانت قوية للغاية ولا سيما الحرب كانت قوية للغاية ولا سيما الحرب على الضعيف.

غلطة الولايات المتحدة اعتقادها أن القاعدة منظمة يمكن دحرها عسكريا، لكن القاعدة حركة مقاومة، حركة تتألف على الأرجح من مجموعات عديدة تعمل بشكل مستقل. وقد برزت مثل هذه المجموعات فيماليزيا وإندونيسيا- جماعة (المعونة) والحركة الماليزية المسلحة

فيماليزيا، والجماعة الإسلامية في إندونيسيا، ربما حددت هويات قادة هذه الجماعات وأعضائها واعتقلوا، لكن سيبرز آخرون ويحلون محلهم.

هؤلاء الناس ليسوا في حرب مع الولايات المتحدة لأنهم فقراء وغير مثقفين ودافعهم أكثر دقة وتحديدا. يوجد في العالم الإسلامي كراهية عميقة وغضب عارم بسبب إقامة دولة إسرائيل على الأراضي العربية الفلسطينية، وقد استعر هذا الغضب منذ أن احتل الإسرائيليون معظم ما تبقى من أرض فلسين في سنة 1967م، وأقاموا عددا كبيرا من المستوطنات، وتحكموا بحركة الناس من فلسطين وإليها فضلا عن الحركة داخلها، وأنكروا وجود الدولة الفلسطينية وشعبها. وفي الأمس القريب، عندما أجرى الفلسطينيون انتخابات انتصرت فيها حماس على حركة فتح، رفضت الولايات المتحدة وإسرائيل الاعتراف بحماس كسلطة فلسطينية منتخبة، واحتجزت إسرائيل الضرائب التي تحصلها والمستحقة للسلطة الفلسطينية المنتخبة لمنع الحكومة الجديدة التي شكلتها حماس من القيام بوظيفتها.

وفي هذا الوقت، تواصل إسرائيل مهاجمة الفلسطينيين مستخدمة الدبابات وطائرات الهليكوبتر الهجومية والطائرات النفاثة، مسحت قرى بأكملها وهدمت منازلها وقتل جميع من كان فيها، واحتجز إسرائيليون الآلاف تلو الآلاف من الفلسطينيين، لكن عندما أسر حزب الله جنديين إسرائيليين، قصفت بيروت ومناطق أخرى في لبنان وقتل كثير من المدنيين يسمح للإسرائيليين بتنفيذ أعمال عدوانية وارتكاب فظاعات في حق الفلسطينيين، فيما تمد الولايات المتحدة إسرائيل بالسلاح والمال. وهذا يعني أن الفلسطينيين يقاتلون القوة المسلحة للولايات

المتحدة من الناحية الفعلية ومن غير المفاجئ، إذا أنهم لا ينالون سوى تغطية إعلامية سيئة يجري تصويرهم بأنهم معتدون مجرمون وتصوير الإسرائيليين بأنهم مدافعون شجعان، ومحاولات الفلسطينيين اليائسة نقل الحرب إلى إسرائيل نفسها بإرسال انتحاريين قوبلت بردود ثأرية إسرائيلية عنيفة. وفي ذلك تتبع إسرائيل والولايات المتحدة استراتيجية بسيطة وهي التفوق على الإرهابيين في إرهابهم، فيرد الإسرائيليون على الهجمات الفلسطينية غير المتكافئة بالجرافات والدبابات وطائرات الهليكوبتر الهجومية التي تدمر قرى بأكملها وتبيد ساكنيها.

ومؤخرا هاجمت إسرائيل قطاع غزة بزعم إطلاق حماس صواريخ على إسرائيل، لكن الصحافة الغربية تجاهلت حقيقة أن إسرائيل فرضت حصارا على قطاع غزة قبل إطلاق الصواريخ ومنعت الطعام والإمدادات الطبية والوقود من دخول القطاع. تضور سكان غزة جوعا حتى الموت وماتوا الانعدام المواد الطبية وانقطاع التيار الكهربائي اللازم لتشغيل المستشفيات والتدفئة.

عندما هاجم الإسرائيليون غزة بالقنابل والصواريخ، ثم بالدبابات والمدافع، لم تنشر وسائل الإعلام الغربية أي تقارير عن الفظاعات التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية ولا عن قتل الأطفال والمسنين. وعوضا عن ذلك، استمتع العالم الغربي بأسره بفيلم من إنتاج شركة بلوك باستر عرض الفظاعات التي ارتكبها الألمان في الحرب العالمية الثانية، وهكذا جعل ما يسمى المحرقة النازية عذرا لقتل الشعب الفلسطيني.

يتعين تحميل بريطانيا على الخصوص مسؤولية استمرار الحرب في غرب آسيا بين العرب وإسرائيل، فعقب هزيمة السلطنة العثمانية

وتفكيكها في الحر بالعالمية الأولى، أناطت عصبة الأمم ببريطانيا إدارة فلسطين كأرض منتدبة. في ذلك الوقت، كانت أغلبية الفلسطينيين من العرب المسلمين، كما كان هناك بعض العرب المسيحيين وعدد ضئيل من اليهود؛ لأن نعظمهم كانوا يعيشون في الدول الأوربية، وأشير إلى أن الأوربيين لمن يرحبوا باليهود أبدا، وكانوا يرتكبون في حقهم مجازر دورية ارتكب النازيون أخرها وأشنعها.

وبعد الحرب العالمية الثانية، تبرم البريطانيون من الهجمات الإرهابية الإسرائيلية المتكررة. ورغبة منهم في إيجاد مخرج سهل، اتفقوا مع المتطرفين الصهاينة على إقامة دولة إسرائيل في فلسطين ولذلك، آني الإرهاب أكله في حالة اليهود، لكن ذلك حدث من دون استشارة شعب فلسطين. وعقب إصدار الأمم المتحدة قرارا بتقسيم فلسطين، طرد العرب من الشطر الإسرائيلي واضطروا إلى العيش في محميات اللاجئين منذ ذلك الحين. وعلى مدى السنين الستين التالية، ناضل الفلسطينيون والعرب والمسلمون الآخرون في العالم أجمع لاستعادة أرض فلسطين.

**لكن الأمريكيين والبريطانيين يأبون الاعتراف بأن إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين هي التي زعزعت استقرار الشرق الأوسط، وحرضت العرب على اليهود، وبمساعدة أمريكية وبريطانية، احتلت إسرائيل مزيدا من الأراضي الفلسطينية عقب حرب 1967م. وما من مرة نهض الفلسطينيون للقتال واستعادة أرضهم المسلوبة إلا وساعد البريطانيون والأمريكيون إسرائيل على صد العرب؛ لذلك، لن يتم التوصل إلى حل للصراع في الشرق الأوسط ولا التخفيف من حدة عداء**

المسلمين لأمريكا وبريطانيا ما لم يتم التوصل إلى حل منصف للمشكلة الفلسطينية. وطالما لم يتم تصحيح الظلم القائم، سيشن المسلمون هجمات في العالم قاطبة. وربما كان هجوم سنة 2001 على مركز التجارة العالمية واحدا منها، مع أنه أكثر ضخامة ودراماتيكية، كما وقعت عدة هجمات في بريطانيا، وبذلت محاولات إسقاط طائرات إسرائيلية في أفريقيا. كما نسفت السفارة الأمريكية في كل من كينيا وتنزانيا، وهوجم المنتجع الإندونيسي في جزيرة بالي مرتين ما أدى إلى مقتل عدد من الأستراليين والأمريكيين. وفيماليزيا، أخفقت الانتفاضة المسلحة التي قامت بها جماعة المعونة. لكن الحركة الماليزية المسلحة اغتالت عضوا في جمعية إحدى الولايات، وسطت على مصارف وفجرت قنابل في أماكن عديدة، واعتقل عدد من الناشطين واحتجزوا وأصبح واحد أو اثنان خبيرين في صنع المتفجرات لصالح جماعات إسلامية راديكالية في إندونيسيا. ولا يزال بعض أفراد هذه الجماعات خارج قبضة العدالة ولا تزال ماليزيا فيمامن من هذه الهجمات في هذا الوقت، لكن غضب بعض الشبان الملايويين ومرارتهم ازدادت سوءا بشكل ملموس بسبب الهجمات الأمريكية على أفغانستان والعراق.

ربما يجوز نعت كل هذه الهجمات (بالإرهابية)، لكن ذلك لن يجعل وقفها أسهل، إنهم في نظر عدد من المسلمين طالبو ثأر محقون يردون على الاعتداءات الأمريكية على الدول الإسلامية، الإرهابيون الحقيقيون في نظر عدد كبير من المسلمين هم الأمريكيون والبريطانيون؛ فعمليات القصف وإطلاق النار والقذائف الصاروخية والهجمات الصاروخية التي ينفذونها زرعت رعبا على نطاق واسع في صفوف أولئك الناس

العاجزين. وقد أكدت دراسة أعدتها جامعة جونز هويكنز في الولايات المتحدة مقتل 650, 000 عراقي من جراء غزو الأمريكيين. لم يكن لدى العراق آنذاك، كما أنه ليس لديه الآن 650, 000 جندي، ولذلك لا بد من أن أغلبية من قتلوا والآلاف الآخرين الذين أصيبوا بجروح كانوا مدنيين. وبالنسبة إلى مئات وآلاف الأشخاص الذين قتلوا أو جرحوا أو شوهوا أو أصيبوا بعاهات عقلية في تلك الحرب، فإن الأمريكيين هم الإرهابيون.

هذه الحرب الدائرة بين أولئك الذين يزعمون شرعية قوة الدولة وبين الذين أرغموا على حمل السلاح فاعا عن الفلسطينيين الضعفاء والمشردين والذين ليس لهم دولة لن تنتهي بانتصار أي طرف، لكن يمكن إنهاؤها إذا وضعت أمريكا وبريطانيا حدا للتعنت الإسرائيلي. حلوا القضية الفلسطينية وسينعم العالم بالسلم ومزيد من الأمن، لكن تحميل الدين الإسلامي الوزر لن يوصلنا إلى أي مكان.

# إصلاح التعليم في ماليزيا

عن إصلاح التعليم فيماليزيا قال محمد مهاتير محمد:

أدركت منذ زمن بعيد أن ماليزيا في حاجة إلى أن تطور نظامها التعليمي ليتسنى لشعبنا التسلح بالأدوات اللازمة للبقاء في هذه الألفية، ومن بين أقربائي كنت الوحيد الذي التحق بالجماعة التي اعتبرت امتيازا نادرا قبل الاستقلال. ولا ريب أن التعليم أكبر منحة منحني إياها أبواي وهي منحة أرغب في أن تتاح للجميع.

كما كان التعليم مجالا اهتممت به في مرحلة مبكرة؛ ففي أثناء دراستي في الجامعة، انخرطت في توثيق أوضاع الطلاب الملايويين وحاولت معرفة سبب عدم أدائهم عملا جيدا. وكنت في عداد الأشخاص الذين اقترحوا في مرحلة مبكرة جدا أن تقيم الحكومة مدارس داخلية للتلاميذ الملايويين القادمين من القرى؛ لأني عرفت أنهم لن يستطيعوا الدراسة في منازلهم باعتبار أن بيئتها لا تعين على الدراسة ولعدم وجود من يعينهم في دروسهم، وعندما كنت عضوا في البرلمان، عينت في مجلس جامعة ملايا، ثم رئيس مجلس التعليم العالي الماليزي. كما توليت حقيبة التربية والتعليم في سنة 1974م، ثم رئاسة الوزراء لاحقا بالطبع، لكن على الرغم من كل ما بذلته في هذه المراكز المتنوعة لتطوير نظامنا التعليمي، بقي عدد من المشكلات العالقة حتى عندما تنحيت عن رئاسة الوزراء.

يوجد في ماليزيا مدراس داخلية حكومية يفوق عددها ما هو موجود في أي دولة نامية، وأصبحت أشد دفاعا عنها حين أصبحت وزير التربية والتعليم. كان هناك قليل من المدارس الداخلية قبل ذلك، لكنها صممت في الأغلب لخدمة النخبة وليس الناس العاديين، ففي سنة 1905م، أسست حكومة الاستعمار كلية ملايا في كوالا كانغسار لأبناء الأسر الملكية الملايوية الذين كان يجري تهيئتهم لتولي مناصب رفيعة في الخدمة المدنية أقيمت هذه الكلية على غرار ما يسمى المدارس الأهلية الكبيرة في إنكلترا وأصبحت (إيتون) الشرق.

وعندما برزت حاجة إلى قيادة عسكرية أفضل في وقت لاحق، أسست الإدارة الاستعمارية برئاسة المفوض السامي السير جيرالد تمبلير الكلية العسكرية الاتحادية في سنة 1952م على غرار مؤسسات مشابهة في إنكلترا، كما تأسست كلية السلطان إدريس للتدريب في سنة 1922م لتدريب المعلمين الملايويين. وكان المعلمون المتدربون الشباب الأول في هذه الكلية في عداد أوائل الوطنيين- أقاموا اتحاد الشباب الملايوي، وكان حركة سرية تعاون أعضاؤها الذين مقتوا الاستعمار بشدة مع القوات اليابانية الغازية.

لم يبدأ الضغط من أجل إقامة شبكة واسعة من المدارس الداخلية إلا مع تأسيس كليات مارا للعلوم للمرحلة قبل الجماعية، بدءا بالعام 1966م. أرسل ألمع الطلاب الملايويين من أنحاء البلاد كافة- فضلا عن عدد قليل من غير الملايويين- إلى هذه المدارس الداخلية حسنة التجهيز وقيل لي في مرحلة متأخرة جدا إن مدرسي التربية الدينية حاولوا تحويل هذه المدارس إلى مدارس شرعية؛ حيث جعلت

الموضوعات الأخرى تابعة للتعليم الروحي التقليدي وأداء الشعائر الدينية وغيرها. وآمل بألا ينجحوا في تفويض أهدافنا من إقامة هذه المدراس فنحن في حاجة إلى تعلم ديننا أيضا. لكن مع عدم استبعاد مجالات المعرفة الأخرى.

لم يكن لدينا نظام مدرسي وطني في البداية، بل كانت توجد أنواع مختلفة من المدراس. شكلت المدارس الإنكليزية التي أسستها الإدارة الاستعمارية والإرساليات المسيحية المتنوعة أغلبية المدارس الثانوية في البلاد. وتوزعت المدارس المحلية تبعا للمحاور الإثنية: مدارس إعدادية آهلية تدرس باللغة الملايوية؛ مدارس خاصة صينية إعدادية وثانوية تآثرت كثيرا بنظام التعليم الصيني؛ وعدد صغير من المدارس الإعدادية الخاصة التي تدرس باللغة التاميلية. ولم تسنح للتلاميذ الذين درسوا في مدارس (اللغة الأم) هذه أي فرصة للاختلاط مع التلاميذ من أبناء الإثنيات الأخرى، ومن حسن الحظ أن بعض المدارس إنكليزية الأهلية أتاحت التعليم الإعدادي للأطفال من جميع الأعراق. وكانت مدرستي، وهي المدرسة الإنكليزية الأهلية التي سميت لاحقا كلية السلطان عبد الحميد، من هذه الفئة وأتاحت صفوفا للمرحلتين الإعدادية والثانوية. كان زملائي شديدي التنوع ولذلك لم أجد مشقة أبدا في إقامة صداقات أو العمل مع أشخاص من جميع الأعراق.

عندما تولى عبد الرزاق حسين حقيبة التربية والتعليم في سنة 1955م، قرر تنظيم المدارس الإعدادية في نظام وطني يعتمد الملايوية لغة التعليم. وتجسيد هذا الهدف في تقرير التعليم الذي أعده عبد

الرزاق[1] لكن الحكومة لم تكن على عجلة من أمرها في تطبيقه لانشغال البلاد بالنضال لنيل الاستقلال آنذاك. كما إنه بالكاد كان البريطانيون متحمسين له والذين كانوا لا يزالون يتمتعون بسلطة كبيرة على الحكومة الانتقالية المنتخبة برئاسة تونكو عبد الرحمن.

بعد استقلال البلاد بوقت وجيز، حدث تغير مفاجئ في نظامنا التعليمي. أمر عزيز إسحاق، الذي كان وزير الزراعة والتعاونيات في وزارة تونكو إلى جاني تسلمه وزارة التربية والتعليم بالوكالة أيضا، بتحويل جميع المدارس الإعدادية الأهلية إلى مدارس وطنية لغتها التعليمية هي اللغة الملايوية. وكانت الصفوف الإعدادية في المدارس الإنكليزية في عداد تلك الصفوف التي فجأة بهذه الطريقة. احتج المجتمع الصيني على الفور، لكن لم يكن في وسع الوزارة التراجع بسهولة عن قرار عزيز؛ لأن القرار حظب الوزارة إطلاق اسم (مدارس من النوع الوطني) على المدارس الإعدادية الصينية والتأملية عوضا عن تسميتها (المدارس الوطنية). وتعين أن تكون مناهجها التعليمية متوافقة مع المنهاج التعليمي في المدارس الوطنية مع أن لغة التعليم ستكون الصينية أو التاميلية.

في هذه الأثناء، بقيت المدارس الثانوية الأهلية اللغة الإنكليزية لغة التعليم وبقي الطلاب الصينيون والتاميليون يتلقون علومهم في هذه المدارس وافتتحت مدارس ثانوية تدرس باللغة الملايوية لكنها لم تجذب طلابا غير ملايويين. وكحل وسط، تقرر منح المدارس الثانوية الصينية دعما ماليا حكوميا إذا اعتمدت المنهاج الدراسي الوطني، لكن هذه المدارس لم تحظ بإعجاب الآبا الصينيين الذين آثروا إرسال أبنائهم

(1) أصبح تقرير رزاق أساس تطوير سياسة التعليم الوطنية.

إلى مدارس ثانوية تدرس باللغة الإنكليزية، وكذلك فعل كثير من الملايويين وأغلبية العنود.

عقب الانتخابات العامة لسنة 1969م وأحدث الشغب العرقي التي تلتها في كوالالمبور، عين تون عبد الرحمن يعقوب وزيرا للتربية والتعليم وطلب تون رزاق مني مساعدته، لكني أدركت بعد أن تناولت العشاء معه أنه لا يريد مساعدتي، وقد فصلت من أمنو على أي حال بعد وقت وجيز من ذلك ولم أعد مستشار الوزارة. وعلى نحو غير متوقع، أعلن تون عبد الرحمن تحويل جميع المدارس الثانوية الأهلية والمدارس التي تتلقى دعما حكوميا إلى مدارس ثانوية وطنية؛ حيث يكون التعليم باللغة الملايوية لكن استثنى من القرار المدارس في ولايتي سرا واك وصباح. وهذا القرار جعل تون عبد الرحمن يحظى بشعبية كبيرة في أوساط الملايويين، ولا سيما طلاب جامعة ملايا، لكنها كانت خطوة سياسية لا أجندة أكاديمية. وأصبح عضوا في المجلس الأعلى في ؟؟؟ مع أنه لا يحق له بصراحة الانضمام إلى الحزب كونه من ولاية سراواك النتيجة الأوضح لتحويل المدارس الثانوية التي تدرس باللغة الإنكليزية إلى مدارس ثانوية وطنية انتقال جماعي للطلاب الصينيين إلى المدارس الثانوية الصينية (من النوع الوطني)؛ حيث كان التعليم لا يزال باللغة الصينية. وبالتالي أضحت المدارس الإعدادية والثانوية الوطنية ملايوية بالكامل تقريبا وفقد الوسط الوحيد لاختلاط الشباب الماليزيين من الأعراق كافة.

بحلول الوقت الذي أصبحت فيه وزير التربية والتعليم، نرسخ ذلك النمط وفات أوان إدخال أي تغييرات جوهرية، والأمر الوحيد الذي

أمكنني القيام به كان جعل المدارس الثانوية الوطنية الأهلية حسنة التجهيز وجذابة إلى أقصى حد ممكن. وبما أن المدارس الصينية التي تتلقى دعما حكوميا لم تحصل على أموال كافية لتتوسع أو تترقى، أملت بأن تقنع هذه السياسة أعدادا أكبر من الآباء الصينيين بإرسال أبنائهم إلى المدارس الأفضل تجهيزا في القسم الثانوي الوطني، لكن ذلك لم يتحقق؛ إذ نهض الصينيون للتحدي وجمعوا أموالا كافية ليدعموا بأنفسهم المدارس الصينية. ولم يمض وقت طويل حتى أضحى بعض مدارسهم الثانوية أفضل من المدارس الأهلية من جميع النواحي.

عقب أحداث الشغب التي وقعت في سنة 1969م، زاد وعي الملايويين عموما بحقيقة أنهم ملايويون، وهو انتماء له بعد ديني مهم. نتيجة لذلك، زادت مستويات الالتزام الديني وأداء الشعائر الإسلامية وازدادت أعداد من يؤدون صلاة الجمعة وبرز طلب دائم على بناء المساجد، كما بذلت ضغوط قوية لتوفير تعليم ديني أفضل في المدارس، ذلك أن المدارس الثانوية الإنكليزية التي بنتها حكومة الاستعمار لم تدرج التعليم الديني في مناهجها الدراسية، وكانت مدارس الإرساليات تدرس الكتاب المقدس الذي تعين حتى على الطلاب الملايويين دراسته، لكن تعليم الدين الإسلامي لم يكن جزءا من منهاجها. والآن، جعلت الحكومة مادة التربية الدينية موضوعا دراسيا، وبما أنها لن تكون إلزامية للطلاب غير المسلمين، أتيح لهؤلاء صفوف للتعليم الأخلاقي، ومع أنني كنت وزير التربية والتعليم، تولى (المركز الإسلامي) تحديد المنهاج الدراسي الإسلامي.

افترضت أن المنهاج الدراسي الديني سيشتمل بشكل عام التعاليم

الإسلامية كافة، إذا أعطى الشكل المناسب، سيشجع تعليم طريقة الحياة الإسلامية (الدين) الطلاب على الاستقامة والاجتهاد. لن يهمل تدريس الشعائر الدينية لكنها ستشكل جزءا فحسب من تعليم الدين الإسلامي، ما يتيح للطلاب المسلمين تعلم شعائرهم الدينية وممارستها لينالوا النعيم في الآخرة، لكن المواد غير الدينية الأخرى ستحظى باهتمام مناسب.

لسوء الحظ، أهمل المنهاج الدراسي المعتمد تعليم طريقة الحياة الإسلامية وقيمتها التي تبني الشخصية، وجرى التشديد درجة كبيرة بالمقابل على أداء العبادات بالشكل الصحيح. كان الإسلامية يدرس كدين يشمل شعائر، وواجبات ومنهيات، ومستلزمات مجردة ومحظورات، لا كدين يقوم على مسؤوليات إنسانية وأخلاقية بالغة الأثر ولا كطريقة حياة. والأسوأ من ذلك أن عددا من مدرسي الدين الإسلامي كانوا من أنصار باس الذي انتهز الفرصة- وأساء استخدام موقعه وثقة الناس- في غرس عقيدته وآرائه لسياسية في عقول طلابه الشباب.

**يضيف مهاتير محمد قائلاً:**

يتمتع مدرسو مادة الدين الإسلامي بنفوذ قوي على الرغم من تدني منزلتهم في أغلبية المدارس، حتى إن نظار المدارس لا يجرؤون على تأديبهم مخافة اتهامهم بقلة احترام الدين. وعندما اشترط مدرسو مادة الدين على الطلاب أداء الصلوات المسنونة وقراءة الكتب الدينية طوال الليل فيما ينبغي للأولاد أداء فروضهم المنزلية، لم يستطيع النظار إبطال أوامرهم. أصر مدرسو الدين هؤلاء على أن يرتدي الأولاد ثيابا تعتبر إسلامية، وتوقفت البنات عن ممارسة الألعاب من الناحية العملية،

وفي بعض المدارس، ألزم الصبيان باعتمار غطاء للرأس عندما يلعبون وقت الاستراحة.

وفي هذه الأثناء، [illegible]ت الحكومة أن تكون اللغة الإنكليزية لغة ثانية عظيمة الأهمية يتعين على الجميع تعلمها وإجادتها، مع وجوب أن تكون لغة لباسا ماليزيا القومية لغة التدريس. لكن عددا من الطلاب الملايويين وجدوا، بتشجيع من الناشطين الشباب والقوميين الملتزمين بالنمط القديم، أن اللغة الملايوية تكفيهم، وهم ليسوا في حاجة إلى تعلمها بإتقان لأنها لغتهم الأم، إنها كافية ليعرفوا لهجاتهم المحلية لكنهم لا يهتمون بإتقان الملايوية المكتوبة والمحكية الحديثة. وبسرعة كبيرة قلت براعة الطلاب الملايويين بلغتهم، هذا فضلا عن قلة إلمامهم بالإنكليزية، لكن الطلاب الصينيين لغتيهم الأم، وقد ترسخت إلى حد بعيد هذه التطورات المقلقة بعد أن لم أعد وزير التربية والتعليم لكن يوجد استثناء واحد، إذ سمح لمعهد مارا للتكنولوجيا الذي انبثق عن المدارس المهنية التابعة لهيئة تنمية الصناعات الريفية (ريدا) باستخدام الإنكليزية في صفوفه. تطور معهد مارا للتكنولوجيا إلى أن أصبح مؤسسة ضخمة للغاية- عندما أصبح امعة تضم أكثر من مئة ألف طالب جميعهم ملايويون أو مواطنون أصليون. ويفضل إلمام خريجي المعهد باللغة الإنكليزية، استطاع عدد منهم مواصلة دراساته العليا في الخارج وافلاح في الحياة.

دافعت ونافحت عن اللغة الملايوية بإخلاص لا يقل عن إخلاص أي قومي ملايوي إن لم يكن أكثر، وبالعودة إلى أربعينيات القرن الماضي، ناضلت أصلا دفاعا عن استخدام اللغة الملايوية، كتبت في ستريتس

تايمز (Strairs Tinies) أن الملايوية ليست لغة خمسة ملايين شخص في ملايا فحسب، بل لغة 120 مليون إندونيسي آنذاك. تولدت لدي رغبة قوية في أن يعترف بالملايوية لغة عالمية رئيسية، لكن مع تقدمي في السن واكتسابي الخبرة، أدركت أن اللغة لا تنتشر ما لم يكن المتكلمون بها ناجحين في الحياة. عندئذ سيرغب آخرون في تعلم لغتهم أيضا، ودخول محيطهم العقلي وعالمهم الثقافي والانتفاع من مشاركتهم حكمتهم.

في أحد الأزمنة، اعتبر العرب الذين طوروا الحضارة الإسلامية أصحاب معرفة لا تضاهي ليس في الشريعة فحسب، بل في جميع ميادين المعرفة من أسبانيا إلى آسيا الوسطى، اللغة العربية واستخدموها. وعلى سبيل المثال، كتب الفيلسوف اليهودي ميامونيدس (أو ابن ميمون) جميع مؤلفاته باللغة العربية، كما تعلم الأورربيون العربية لامتلاك الثروة الفكرية التي كانت تزخر بها المكتبات العظيمة في قرطبة وبغداد؛ حيث جرت المحافظة على أعمال فلاسفة اليونان وعلمائه ومتخصصيه في الرياضيات بعد ترجمتها إلى العربية للأجيال اللاحقة والشعوب الأخرى. والغريب أنه فيما كان الأوربيون يتعلمون العربية، قرر المسلمون عدم التبحر في العلوم سوى العلوم الشرعية. ولذلك لم تعد العربية لغة مهمة لاكتساب المعرفة الجديدة والحية، وحلت محلها اللغة اللاتينية، ثم اللغات الأوروبية الأخرى وأضحت العربية لغة المعرفة والحكمة القديمة، ولغة تعاليم دينية تزداد عزلة، ولغة حضارة أسيرة راكدة.

وبالمثل، شاع استخدام اللغة الإنكليزية؛ لأن الشعوب الناطقة بالإنكليزية كانت الأكثر نجاحا في الاستعمار وفي بناء الإمبراطوريات،

وقد نالت إحدى هذه المستعمرات البريطانية استقلالها وأصبحت أقوى دولة في العالم، دولة قادرة على فرض إدارتها والترويج لأجندتها، على مستوى عالمي. إن الولايات المتحدة هي المسؤولة اليوم عن الاستخدام المتواصل للإنكليزية بصفتها اللغة الأساسية للمعرفة والعلاقات الدولية. كما أسهمت كندا وأستراليا ونيوزلندا والهند وجنوب أفريقيا في رفع مكانتها العالمية، وكذلك شعوب دول الكاريب، والأغلبية العظمي من جميع المعارف العلمية التي أنتجت ونشرت في العالم قاطبة موثقة الآن باللغة الإنكليزية، بل إنه بات يتعين الآن على المذاهب العلمية الوطنية التي أنتجها الألمان والفرنسيون والهولنديون والروس والإيطاليون وغيرهم، وكانت عظيمة يوما، أن تبرز نفسها على الساحة الدولية باللغة الإنكليزية، وكذلك الثقافات العلمية الأحدث لدول دينامية مثل اليابان وكوريا الشمالية.

إذا كان المراد أن تكون الملايوية لغة دولية، يتعين على الشعوب الناطقة بالملايوية النجاح في جميع الميادين، وبخاصة في تولي الريادة في التوصل إلى معارف جديدة. لكن بحكم أنني شخص واقعي، أعترف بأن الملايويين ليسوا ناجحين في الحياة بشكل لافت كما أنهم ليسوا مخترعي معارف جديدة، كي تكون كذلك، علينا أن نتعلم من الآخرين أولا. توجب على الأوربيين سابقا تعلم العربية للحاق بالعرب في زمان الحضارة الإسلامية العظيمة. والآن، وبحسب الطريقة ذاتها، يتعين على الملايويين تعلم اللغة الإنكليزية. كما يمكننا تعلم لغات أخرى أيضا بل يجب علينا ذلك، لكن الحقيقة لا مفر منها هي أن الإنكليزية باتت اليوم اللغة المشتركة للمعرفة والتجارة الدولية.

لدى معاينة مشكلة العدد المتزايد من الخريجين العاطلين عن العمل في أواخر ستينيات القرن الماضي، اكتشف المجلس الأعلى في أمنو أن جزءا من المشكلة يكمن في كون كثير منهم لا يتكلمون الإنكليزية؛ لذلك، اقترح بعض أعضاء المجلس العودة إلى تدريس كل شيء باللغة الإنكليزية، لكن هذا الاقتراح رفض بعد جدال طويل. ومع ذلك، أحسن كل عضو بأنه يتعين فعل شيء لجعل الخريجين الملايويين أهلا لنيل وظائف. توجب على الطلاب الملايويين التعامل مع دراسة اللغة الإنكليزية في مدارسهم بمزيد من الجدية مثلما يفعل الطلاب غير الملاويين، لكن عددا من أعضاء المجلس أحسوا بأنها طالما أن مادة اللغة الإنكليزية ليست إلزامية، سيبقى الطلاب قادرين على تحصيل العدد اللازم وتقديرات (ممتاز) لدخول الجامعات المحلية من دون الحصول على تقدير جيد فيمادة اللغة الإنكليزية. قررنا أخيرا وجوب تدريس بعض مواد الامتحانات الأساسية باللغة الإنكليزية. وبما أن معظم نواحي المعرفة التطبيقية الحديثة تدرس بالإنكليزية، أحسسنا أن العلوم والرياضيات هما أفضل تلك النواحي.

هناك أسباب أخرى دعت إلى اختيار العلوم والرياضيات كمادتين تدرسان باللغة الإنكليزية. معظم المواد الأخرى التي تدرس في المدارس ثابتة نسبيا، بمعنى أنها لا تتغير كثيرا ولا يضاف إليها سوى القليل من المعرفة بمرور الوقت، لكن العلوم في تغير دائم وتتطور بسرعة، لذلك يمكن إبدال المعرفة القديمة بالمعرفة الجديدة التي تضاف كل يوم تقريبا في سياق إجراء البحوث. وتكاد تكون كل هذه المعارف الجديدة منتج باللغة الإنكليزية، وتستحمل ترجمة كل ذه الإضافات إلى اللغة الملايوية؛

لأنه ليس لدينا ببساطة أشخاص مؤهلون في الحقول المختلفة ويجيدون كلا من الإنكليزية العلمية والملايوية ليقوموا بالترجمة، وإذا وجدوا لن يرغبوا في تمضية حياتهم في ترجمة الأوراق الحثية والكتب والفشل في حيازة المعرفة العلمية الجديدة سيعني أننا سنصبح متخلفين، لكن إذا درسنا العلوم بالإنكليزية، سيكون كل عالم قادرا على الاطلاع على آخر المكتشفات في مجاله التخصصي بنفسه.

تعقد مؤتمرات في الميادين العلمية المتنوعة باستمرار، والمشاركة في المناقشات العلمية على مستوى العالم تستلزم إجادة اللغة الإنكليزية العلمية، حتى إن استخدام النماذج الملايوية المتنوعة للمصطلحات العلمية الإنكليزية لن يجدي نفعا.

زد على ذلك أنه ربما يرغب الماليزيين في متابعة دراساتهم في ات أجنبية، واللغة الإنكليزية هي لغة التدريس في هذه المؤسسات في أغلبية الحالات ومن دون إجادة الإنكليزية العلمية لن يقدروا على الانتفاع من تلك الدراسات، والأمر نفسه ينطبق على الرياضيات. وإذا كان لا يطرأ تغير كبير على محتوى مادة الرياضيات، فقد زادت تطبيقاتها في عدد من الميادين. وعلى سبيل المثال، لن يكون إطلاق قمر صناعي ممكنا من دون حسابات رياضية للقوة، والمسار والزمن، وجميع هذه المعارف الرياضية متاحة بالإنكليزية، ولا يزال يتعين القيام بعمل متقدم في الحسابات الرياضية باللغة الملايوية، ونحن في حاجة إلى عدد من الكتب الدراسية والبحوث التي تناول الرياضيات المتقدمة.

لهذه الأسباب كافة، ساندت بقوة تدريس العلوم والرياضيات بالإنكليزية، يتعين على الماليزيين التبحر في العلو. والرياضيات مثل

أقرانهم في الدول المتقدمة إذا كانوا يرغبون في تحقيق (الرؤية 2020).

جرى التحول من الملايوية إلى الإنكليزية في تدريس هاتين المادتين في سنة 2003، قبيل اعتزالي رئاسة الوزراء. عندما تطرح أي شيء جديد في المدارس، تظهر مشكلة متجددة وهي الحاجة إلى البدء بالصفوف الأدنى للعمل بالتدريج صعودا بالتزامن مع صعود التلاميذ. وبعد إدخال تغيير في الصفوف الدنيا، يستغرق تعرف التلاميذ إليه في المسويات المدرسية كافة 11 عاما، وهذا يعني أنه سيمضي وقت طويل قبل أن يمكننا تقييم النجاح أو التغيير إذا لم يتحقق. لكن يوجد خيار آخر: برمجيات حاسوبية يمكن تصميمها بحيث يمكن التحول إلى الإنكليزية في العلوم والرياضيات في جميع الصفوف في وقت واحد. ولن يكون المدرسون أنفسهم في حاجة إلى إجادة اللغة الإنكليزية، وفيما يدرسون المواد التي تخصصوا بها، يمكنهم تطوير إتقانهم الإنكليزية مع طلابهم. لست أدري إن كانت وزارة التربية والتعليم تبنت هذا المسار الإجراني لأنها كانت لا تزال تبحث عن معلمين متقاعدين للتدريس باللغة الإنكليزية. ربما يحل ذلك جزءا من المشكلة لكن يستبعد وجود عدد كاف من المعلمين الكبار من أصحاب الخبرة المطلوبة.

وجه القميون المتعصبون للغة الملايوية إلى انتقادات كثيرة، وهناك عدد من المطالبين بالعودة إلى تدريس العلوم والرياضيات باللغة الملايوية.

قال المنتقدون إنه مضى على تطبيق هذه السياسة ست سنوات ولم ينتج منها سوى بروز فجوة بين الطلاب الحضريين والطلاب الريفيين،

والطلاب الملايويين يراجعون في هاتين المادتين لأن فهمم للغة الإنكليزية ليس جيدا كفاية. رفضت الحكومة الإذعان لتلك الضغوط السياسية آنذاك، لكن في 8 تموز/ يوليو 2009، أعلن تان سري محيي الدين ياسين قرار الوزارة العودة إلى تدريس هاتين المادتين بلغة بهاسا ماليزيا في سنة 2012، أعتقد أنها غلطة؛ فالتعليم لا يتعلق بتطوير اللغة فحسب، بل باكتساب جميع واع المعرفة أيضا.

وإلى جانب قابلية الخريجين للتوظيف، برزت مشكلة الجمع بين تلاميذ المدارس المنتمين إلى الأعراق المختلفة. توقف معظم الطلاب الصينيين والهنود عن مخالطة الطلاب الملايويين منذ تحويل المدارس التي تدرس باللغة الإنكليزية إلى مدارس وطنية. ومع أن الجامعات الأهلية استقطبت طلابا من جميع المجتمعات، لم يندمجوا في حرم الجامعة. وعلى سبيل المثال، أعاقت كليات الدراسات الإسلامية في الجامعات الأهلية مخالطة الملايويين لغير المسلمين في مهاجع الطلاب، ما يوحي بأن الاتصال بغير المسلمين أو حتى مجاورتهم تعني التلوث بالنجاسة. كما يتحاشى الطلاب الصينيون الإقامة في المهاجع أو بيوت الشباب التي يقيم فيها الطلاب الملايويين. إن فشل طلاب الجامعات المحلية في الاختلاط مع بعضهم ينذر مستقبل البلاد بالشر، إذا أوجدوا لأنفسهم كيانات منفصلة وفضاءات اجتماعية متوازية في حرم الجامعة، سعيدون إنتاج الفصل العرقي نفسه في المجتمع ككل بعد تخرجهم. وجامعاتنا، التي هي أبعد ما تكون عن دعم تطور مجتمع متماسك متعدد الأعراق وحث جميع الطلاب وبخاصة الملايويون على امتلاك القدرة على التفاعل بين الإثنيات والمخالطة الاجتماعية، ستضمن عوضا عن

ذلك وجود نظم تعليمية تقسيمية بحسب العرق بدءا بالمرحلة الإعدادية ووصولا إلى المرحلة الثانوية لتترسخ من خلال الجامعات في جميع نواحي الحياة اليومية [illegible]، لكن الماليزيين لا يمكنهم العيش داخل مقصوراتهم العرقية. ومن المهم في مجتمع متعدد الأعراق أن يتآلفوا مع بعضهم وهم لا يزالون صغار السن. وإذا كانت المدارس عاجزة عن تحقيق ذلك، ينغي للجامعات أن تحقق ذلك، وإلا لن يحصل انصهار آبدا.

اقترحت في مرحلة مبكرة مقاربة جديدة: إقامة مبان تضم عدة مدارس أو مناطق تعليمية تسمى (مدارس الرؤية) الفكرة هي أننا سنبني مدارس للأعراق الرئيسية الثلاثة داخل حرم واحد. وفي هذه المجمعات، يحضر الطلاب صفوفهم في مدارس منفصلة بحسب اللغة التي يفضلونها، على أن يتم جمعهم في أنشطة مدرسية معينة. وستتم فعاليات هذه التجمعات المدرسية في قاعة اجتماعات لفئات المدارس الثلاث كلها وسيلعبون معا بعد تقسيمهم إلى فرق لا تتبع المدرسة ولا العرق. وهذا يعني أن كل فريق سيضم خليطا من طلاب من فئات المدارس كلها، وستجمع جميع الأنشطة غير الأكاديمية بين مختلف الطلاب كمشاركين مع تجاهل تقسيمات فئات مدارسهم. وربما يجمع عدد من المجتمعات التربوية كذلك الطلاب معا من فئات المدارس الثلاث.

لسوء الحظ، عارض التربويون الصينيون هذه الفكرة، وآثر عدد من الآباء الصينيين الذين آذعنوا لآراء هؤلاء التربويين مواصلة إرسال أبنائهم إلى مدارسهم الخربة القديمة على إرسالهم إلى (مدارس الرؤية) الحديثة، وبدا أن الصينيين لا يريدون أن يختلط ابناؤهم مع أبناء

الملايويين والهنود. وربما اعتقدوا أن الأولاد الملايويين شديدو الميل إلى اللعب وإلى عدم أخذ دراساتهم على محمل الجد وربما تخوفوا من عدوى المواقف السيئة، أو ربما يوجد سبب آخر- لكني استأت من موقفهم.

وبما أن المدرسة الصينية شديدة الرغبة في استقبال التلاميذ الملايويين والهنود، حيث الصينية هي لغة التعليم، أصبح فضها دعم مفهوم _مدارس الرؤية) أشد إيلاما، وقد أقتنع عدد من الآباء الملايويين، الذين تنبهوا إلى أن الصينية هي لغة عالم قطاع الأعمال المحلي، بأن فرص أبنائهم ستكون أفضل، إذا تعلموا اللغة الصينية. كما زعم عدد لا بأس به منهم أن التعليم في المدارس الصينية أفضل، لأن المدرسين الصينيين أكثر إخلاصا وجدية. إذا أضحت هذه المواقف والممارسات أوسع انتشارا، سيفشل التعليم الوطني باللغة الملايوية حتما. لكني أحسست في بعض الأوقات إنني أوافق هؤلاء الآباء الملايويين الرأي- فالمعلمون الملايويين لا ينكبون قلبا وقالبا على وظائفهم ويظهر أنه لا هم لدى عدد منهم سوى حياتهم المهنية وأوضاع العمل، إنهم يشتكون بلا انقطاع من تدني الرواتب وحتى بعد تحسين العمل، إنهم يشتكون بلا انقطاع منن تدني الرواتب وحتى بعد تحسين جداولها- والتي جرى تحسينها مرات كثيرة خلال السنين الاثنتين والعشرين التي قضيتها في رئاسة الوزراء- لا يزالون يجهرون بالشكاوى ذاتها كما لو لم يتم فعل شيء حيالها.

ليس في العالم دولة نامية أنفقت على التعليم بقدر ما أنفقت ماليزيا، لدينا مبان مدرسية جميلة في جميع أنحاء البلاد، حتى إن بعض المدارس

الثانوية أشبه بالجامعات. وغالبا ما يشير الزوار القادمون من الدول النامية الأخرى إلى فخامة المدارس الماليزية وحسن تجهيزها. لدينا اليوم (مدارس سمارت) المجهزة بأنواع الأدوات المساعدة التعليمية الحديثة كافة. والمرافق التعليمية التي وفرتها الحكومة لا يمكن أحد أن يعيبها، كما أن المنح الدراسية متاحة بكثرة.

كما كنت أترقب دائما الأشياء التي ربما تسهل تحصيلنا للمعرفة، وفي أحد الأيام، أحضر تربوي ملايوي رجلا من الصين إلى مكتبي ومعه عدد من الأطفال الذين تراوحت أعمارهم بين الخامسة والعاشرة. بين الرجل قدرة هؤلاء الأطفال على حل مسائل حسابية تتضمن أرقاما كبيرة بومضة عين، فثار فضولي، كتبت رقما من نحو ثماني خانات مضروبا بعدد كبير مماثل فتلفظ الأطفال بإجابة سريعة في ثوان معدودة من دون كتابة، أذهلني ما رأيت واعتقدت أنه لا بد من أن هؤلاء الأطفال مميزون فقال الرجل أنهم أطفال عاديون دربوا على استعمال طرق خاصة، وبين لي أيضا أن الحساب باستخدام المعداد يمكن أن يكون في مثل سرعة الحساب بواسطة الآلة الحاسبة، إن لم يكن أسرع.

تبين أن هذا الرجل الصيني بورفسور من الصين، سألته إن كان يستطيع تعليم تلاميذ المدارس فيماليزيا فعل الأمر نفسه فأبدى استعداده للإقامة فيماليزيا بقدر ما يلزم لتعليم المعلمين الماليزيين طريقته، سررت وأوعزت إلى وزير التربية والتعليم يتضمن استخدام المعداد وطرق الحساب الذهني التي ابتكرها البروفسور الصيني في المنهاج الدراسي. لا ريب أنها ستساعد في تطوير مهارات. أبنائنا الحسابية، لكن فكرة إضافة المعداد أبرزت مشكلات بيروقراطية

عديدة؛ إذا أراد التربويون الحكوميون مقارنة طرق الرجل الذي أوفدته إليهم بطرق رجل آخر لديه مهارات مماثلة، ثم كان عليهم تحديد سلم أجر الرجل الذي طلب إبرام عقد خاص، وهو طلب منطقي. وفي النهاية، استؤجر الرجل بعد مفاوضات طويلة دامت أكثر من عام. لم أتلق أي تقرير بعد ذلك، لكنني بقيت مقتنعا بأن اقتراح استخدام المعداد، سيطور التلاميذ الملايويين وخصوصا مهاراتهم الحسابية.

لكن ينبغي عدم قصر التعليم على تحصيل المعرفة، بل ينبغي أن يعني ببناء الشخصية أيضا. ينبغي أن يرعى المواقف والسمات التي تبنى خصال الشخصية والقيادة الجيدة، والثقة بالنفس، وحب الاستطلاع الذي يحفز التفكير والقدرة على الابتكار، ويتعين أن يساعد على تطوير توجه صحيح نحو عالم معتمد على التفكير العقلاني والمنطقي. إن تطوير الفكر والشخصية عمليتان ليستا منفصلين، بل هما متلازمتان، فالشخص العقلاني يكون محترما وجيدا، والشخص الجيد لن يتصرف بتهور أو بطريقة غير عقلانية.

كما إن الشخص الجيد يمكنه التفكير بوضوح وعقلانية، فضلا عن إظهار قيم أخلاقية جيدة. ولا شيء أخطر من معرفة في يدي فرد فاسد أو غير جدير بالثقة.

على الرغم من إدراج التعليم الديني والأخلاقي في المقرر التعليمي، لا يلقى بناء الشخصية وغرس القيم الجيدة اهتماما كبيرا في المدارس والجامعات الماليزية، ويتم تعليم أغلب الأشياء بتحفيظها عن ظهر قلب وإعادة إنتاج المعلومات في الامتحانات بطريقة آلية من دون فهم. ولا يأخذ الممتحنون في اعتبارهم التفكير المبدع ولا يشجعون عليه

بالتأكيد. وقد أخبرني بروفسور مساعد كان يحاضر في مجموعة من الطلبة الجامعيين أن أمله خاب عندما لم يطرح عليه أي من الطلاب سؤالا، وظن أن السبب واحد من أمرين، إما أنهم لم يستوعبوا ما قاله، أو أنه ليس لديهم قدرة على التحليل والتفكير النقدي.

هناك عدد من الأشخاص الذين لا يفهمون حتى الحاجة التحلي بالصدق وصون الشرف. ففي المدرسة، يجري حث الطلاب على الانضباط من غير أن تبين لهم الأسباب، ولذلك يرون الانضباط عبئا ثقيلا وليس سيطرة على الرغبات الأساسية. لا يبين لهم أن حياتهم ربما تعتمد في يوم من الأيام على تحليهم بالانضباط، وعلى قدرتهم على إبقاء أنفسهم تحت السيطرة في أحرج الأوضاع، لكن مجرد إخبارهم بوجوب التحلي بالانضباط لا يولد غير الاستياء والمقاومة، والنتيجة النهائية ستكون أي شيء عدا الشخصية الجيدة المنشودة.

**ويضيف مهاتير محمد قائلاً:**

**غرس في أبواي قيما مكنتني من مواجهة التحديات والتغلب على كثير منها على مر السنين، لكن لا يتوافر لأغلبية الآباء وقت كثير في هذه الأيام للقيام بذلك، ولا تقوم المدرسة وكذلك المعلمون بهذه المهمة بكل أسف، ومع أن هذه القيم قد توجب كبح الذات؛ لأنها تستلزم منا السيطرة على نفسنا وكبح جماحها بطرق متنوعة، فهي تمنحنا الدافع أيضا لأنها تشجعنا وتمكننا من القيام بأعمال نبيلة تستحق الجهد لم تكن لنقدر على القيام بها لولا هذه القيم. صحيح أن بعض المعلمين مخلصون وملهمون- لا يكتفون بالحديث عن تلك القيم، لكنهم يجسدونها بالعمل بمقتضاها وتوصيلها للآخرين، بمن فيهم الطلاب، بطريقة مقنعة- لكن**

أغلبيتهم جعلت التعليم وسيلة لكسب الرزق ولا يرون تجسيد الشخصية لطلابهم جزءا من وظيفتهم.

ينبغي لمدرسي مادة الدين أن يكّونوا من بين من لديهم قدر من الإلمام بمفهوم تطوير الشخصية، وينبغي لهم بالتالي أن يأخذوا على عاتقهم أداء دور في تطوير شخصيات طلابهم، لكن المؤسف أن أحال ليست كذلك، فالأفكار التي ينقلونها بالكاد تصلح لزمننا. إنهم يشجعون على التعلم عن طريق الحفظ وعلى الالتزام الحرفي بالتفاصيل الظاهرية للممارسات التعبدية لا على القدرة على الفهم والاختيار من بين الخيارات الأخلاقية والقيم الأساسية والعمل بمقتضاها. وينبغي لمدرس مادة الدين المشاركة في التعليم الأخلاقي وغرس القيم القوية والإيجابية، لكنهم ليسوا مدربين على فعل ذلك. وفي الواقع، يمكن أن يكون فهمهم للتجسيد الناجح لشخصية راشدة ناضجة وخلوقة عميقا جدا، لكنهم بالكاد يدرسون المفاهيم التي جعلت المسلمين ناجحين في العهد الذهبي للحضارة الإسلامية. وتركيزهم يقتصر على الأداء الآلي لشعائر وشكليات معينة للفوز بالنعيم في الآخرة، لكنهم لا يركزون على تنمية الوازع الأخلاقي للفرد. وفي النهاية، هم يشجعون على تطوير شخصية طيعة تعاني عقدة دونية وعدم الثقة بالنفس، شخصية لا يمكنها الشموخ وتحمل المسؤولية والتحلي بالوعي الأخلاقي. بعبارة أخرى، إنهم يشجعون على تطوير شخصية من النوع الذي يخضع لآراء دينية لأنهم هم أنفسهم يجسدونها ويفهمونها.

أعتقد أن كل شخص قادر على القيام بأعمال عظيمة، وعلى اكتساب المعرفة والمهارات، وعلى النجاح في أي عمل يختار القيام به. خلق الله

فينا خاصية تمكننا من تطوير قدرتنا وتحقيق النجاح إذا قمنا بعمل ما بشكل متكرر، وبهذه الخاصية تعلمت علم الأمراض في سنتي الثالثة في كلية الطب؛ قرأت الكتاب مرات عديدة إلى أن تمكنت، فعليا، من تصور صفحاته وليس فهم نصوصها فقط. صرت أرى في عين عقلي النص الحقيقي والرسوم التوضيحية عند الإجابة عن الأسئلة إنها طريقة لا تعتمد على الحفظ المتعمد للنص ولكن تعتمد على جعل المعلومات مألوفة للغاية- على طريقة تعرفنا على الوجوه على سبيل المثال.

والأمر نفسه ينطبق على العمل العلمي، كنت آزاول خراطة الخشب كهواية، توصلت إلى نتائج سيئة للغاية في البداية، لكن مع أداء العمل بشكل متكرر، استطعت إتقان التقنية وصنع قطع جميلة. وهناك منحة إضافية للأشخاص الذين يجتهدون في اكتساب المعرفة أو المهارات. فالمهارات التي يكتسبها المرء تمرر بطريقة ما إلى أبنائه وأحفاده، وأذكر أنني راقبت في أحد الأيام صبيا من بالي وهو ينحت قطعة خشبية وأدهشني مهارته، استطاع إنتاج منحوتات جميلة من دون جهد تقريبا ولم يكن في مقدوري فعل ذلك، كما إنني لا أعرف إن كان في مقدور أبنائي فعل ذلك، لكن سكان بالي سبابا وشيوخا يستطيعون نحت أشكال جميلة على الخشب أو الحجر والظاهر أنهم ورثوا المهارة من أسلافهم وحسنوها.

إذا عقد الملايويون العزم على اكتساب المهارات المهنية مثلا، أنا على ثقة بأنهم سيصارعون الصينيين في عالم المال والأعمال في غضون جيل واحد أو جيلين. الظاهر أن الملايويين لا يقتنعون عندما أقول لهم ذلك؛ إذ توفر لهم الحكومة الدعم بأشكاله كافة لمساعدتهم

في تحصيل المعرفة والمهارات، ومن سوء الحظ أنه تطورت لديهم عادة الاتكال على هذا الدعم والمطالبة بتوفيره بشكل دائم، لكن ما الفائدة في كوننا دولة مستقلة إذا كنا في صميمنا كأفراد وكمجتمعات معتمدين على الآخرين دائما؟

تبين لي أن المواقف الإيجابية ليست الوحيدة التي تنتقل من جيل إلى جيل، بل يمكن توريث المواقف المعطلة أيضا، وبطريقة أو بأخرى، يكتسب كل طفل وكل جيل المواقف وتوجيهات لقيم التي تصبح جزءا من الفرد ومن المجموعة أو العرق أيضا. الشخصية تعبر عن نفسها في العمل- في أفعال الآباء والمدرسين فيما يربون الجيل التالي؛ وفي طائفة من المهارات التخصصية، والتقنيات والمواقف التي يورثونها. وبهذه الطريقة أصبح اليابانيون يابانيين ولا يزالون كذلك، والإنكليزية باقون على ما كانوا عليه، والألمان باقون على ما كانوا عليه بكل ما في الكلمة من معنى، والأمر لا يتعلق بلون البشرة أو المناخ، بل بالثقافة ونظام القيم الذي يطورونه.

ناقشت السياسة الاقتصادية مطولا في هذه الصفحات وكيف أنها أسهمت بكثير في تقليص التباينات الاقتصادية الكبيرة والعوائق الاجتماعية بين الأعراق فيماليزيا، لكن برامج إزالة المظالم الاجتماعية لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، وكنت آمل بإزالة أغلبية صور التباين من خلال التعليم، ولهذا السبب تحملنا الانتقادات التي وجت إلينا بدعوى التمييز في تقديم المنح الدراسية. بيد أنه مضى نحو أربعين بسنة الآن منذ البدء بتطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة ولما نحقق هدفنا المتمثل في جعل الملايويين يمتلكون 30 في المئة من ثروت الشركات

في البلاد. كما عانت جهود الحكومة في تسهيل تحصيل التعليم الجامعي على الملايويين من فرص ضائعة مماثلة، ومن الظلم الطلب إلى السكان غير الأصليين الوقوف جانبا والانتظار فيما كثير من السكان الأصليين سعداء باللهو وعدم الدراسة.

لتصحيح هذا الوضع، قررت الحكومة وجوب اعتماد الجدارة معيارا لقبول الطلاب في الجامعات المحلية، فإذا لم يوجد عدد كاف من الملايويين المؤهلين، أو إذا لم تكن لديهم رغبة في الانتفاع من الفرص، يصار إلى قبول غير الملايويين المؤهلين. علا صياح الملايويين، بيد أن النسبة المئوية للملايويين في الدفعة التالية التي التحقت بالجامعات عقب اعتماد الجدارة معيارا كانت أعلى في الواقع من النسبة المئوية للملايويين الملتحقين بالجامعات قبل اعتمادها. حيرتني النتائج إلى أن اكتشفت أن مؤهلات قبول الملايويين وغير الملايويين لم تكن واحدة، استند قبول الملايويين إلى نتائج امتحانات القبول في الجامعات بينما استند في قبول غير الملايويين إلى امتحان الشهادة الثانوية، كنت آمل بأن أصدم الملايويين كي يفيقوا ويتعاملوا مع قضية التعليم بجدية لكني فشلت. إن رغبة المسؤولين الملايويين في (مساعدة) الطلاب الملايويين أفشلت خطتي، ولن يتعلم الملايويون أبدا كيفية التنافس بناء على قواعد اللعبة ذاتها إذا كان حماتهم يصرون على إمالة الكفة لصالحهم.

واجهنا في السنين الأخيرة أيضا مشكلة خلل توازن لدى طلابنا الجامعيين؛ إذ وصلت نسبة الإناث إلى 70 في المئة الآن ولا يمكن إرجاع السبب إلى قلة عدد الذكور المؤهلين للدخول. يقول عدد منهم

إنهم يؤثرون العمل وتحقيق إيرادات على إنفاق عدة سنن في الجامعات من غير أن يكسبوا شيئا ويقول بعض إنهم يؤثرون التدرب كتقنيين، لكنك لا تراهم يعملون في الميادين التقنيه. كما إن عدد منهم ضالعون في أنشطة توشك أن تصبح إجرامية، فأغلبية سائقي الدراجات النارية المتهورين ملايويون كذلك معظم المدنيين على المخدرات.

ما لم يتم التوصل إلى طريقة لجذب الملايويين الذكور إلى التعليم الجامعي، لن تجد الفتيات المؤهلات أزواجا ينظرن إليهم بعين التبجيل والاحترام؛ ذلك أن ما يجنيه الأزواج من أصحاب المؤهلات الضعيفة سيكون أدنى مما تجنيه زوجاتهم، وربما يهوى عدد من الرجال الملايويين أن يكون الأمر على هذا النحو، وأن يكونوا معتمدين اقتصاديا على زوجاتهم وعالة عليهن، فيما يضيعون أوقاتهم في المقاهي أو يتفننون في الألعاب البهلوانية الخطرة على الدراجات النارية. ربما يناسبهم هذا النوع من الاتكال والسلبية وإذا كانت الحال كذلك، وإذا كانوا يريدون أن يكونوا أبناء أمهات متهاودات، وأزواجا غير مسؤولين وغير مقتدرين اجتماعيا لزوجات ملايويات، وأرباب أسر ملايوية ضعيفة، فلا يجدر بهم إنكار حقوق الآخرين. وموقفهم هذا يجعلني قلقا على مستقبل الملايويين، وأنا أتساءل، أين أخطأنا؟ نحن نتحدث في هذه الأيام عن التعليم مدى الحياة، وربما يوجد عدد قليل من المطورين المتأخرين الذين يمكنهم الاستفادة من الفرص التعليمية في مراحل لاحقة من حياتهم، لكنهم بالتأكيد أقل بكثير ن الجموع الغفيرة من الملايويين ضعاف الأداء.

بعد أن دنا أوان تقاعدي، لم يعد لدي وقت لمعالجة كل هذه المشكلات

ولم يعد يوجد شيء يمكنني فعله بعد الآن، كانت الأفكار التي بينها في كتابي المعضلة الملايوية (The Malay Dilemma) قد تبلورت ببطء في ذهني قبل وقت طويل من تقليدي منصب رئيس الوزراء، حتى كنت لا أزال طالبا شابا في كلية الطب في سنغافورة في مطلع خمسينيات القرن الماضي، وربما قبل ذلك. كنت أقترب من سنتي الثانية والعشرين في رئاسة الوزراء، لكن على الرغم من كل ما أنجزناه، لا يزال بعض أكثر المشكلات الأساسية التي يعانيها الشعب الملايوي والتي أوضحتها في كتابي المعضلة الملايوية على حاله. والظاهر أن بعض هذه المشكلات ليست أقرب إلى الحل الآن منها حين بدأت بالحديث عنها.

جل ما يمكنني قوله هو أنني آسف على فشلي في تغيير الملايويين، وتشكيل الملايوي الجديد، وتسليح الشعب الملايوي بالمعرفة والمهارات التي يحتاج إليها لينجح في حياته وينال المكانة التي يستحق في بلده. وإذا كان يبدو أنه لا هم لي سوى الملايويين، فلأن الأعراق الأخرى، حتى العرق الهندي، قادرة على الاعتناء بنفسها؛ لقد التقيت بطلاب هنود يكافحون لدراسة الطب في أقاصي العالم، في حين تحج أماكن للملايويين في الجامعات المحلية ولا يكلفون أنفسهم عناء التأهل لنيلها. فأي شيء آخر يتوقعون منا تقديمه لهم؟

**ها هو مهاتير محمد يعود من جديد ليترأس الوزارة في مايو 2018م وهو في الثانية والتسعين تري هل سيحقق حلمه.**

# المراجع

مذكرات مهاتير محمد

مواقع مختلفة علي شبكة الإنترنت

# فهرس المحتويات